

عبد الله ساعف



حكاية أنه ما

Anh Ma

سيرة جنيرال مغربي في حرب فيتنام

عبدالله ساعف

حكاية "أَنَّهُ مَا"

سيرة جينيرال مغربي في حرب الفيتنام

منشورات دفاتر سياسية
سلسلة نقد السياسة (4)

حكاية «أنه ما»

سيرة جينيرال مغربي في حرب الفيتنام
عبد الله ساعف

التصميم والغلاف : طارق جبريل

الناشر : دفاتر سياسية

طبع من هذا الكتاب : 11 000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى فبراير 2007

الايداع القانوني : 1782/2006

السحب : مطبعة النجاح الجديدة

منشورات
دائرة سياسيم

سلسلة نقد السياسة

4

المدير المسؤول: عبد الله ساعف

إلى روح الراحل ألبير عياش

أود أن أعبر هنا عن كبير امتناني للفقيد البير عياش ولنصائح الصارمة وللاهتمام المتواصل الذي أبداه لتقديم هذا العمل منذ البداية إلى النهاية .

ولست أدري كيف أوفي السيدة كامي كامليا لحرش ، زوجة بن عمر ، بطل هذا الكتاب حقها من الشكر للمعلومات الحاسمة والذكريات ، والصور ، والوثائق ، والمراسلات التي أمدتني بها ، وكذا لقراءتها النقدية لهذا العمل خلال جميع مراحلها .

تشكراتي أيضا لجورج بوداريل ، فأهم ما في هذا العمل ، خصوصا في مرحلته الخاصة بالفتنام مدين لسخاء المثقف فيه . فقد أطلعني بكل أريحية على مكتبته ووثائقه ، وأرشيفاته ، ومراسلاته الخاصة ، كما أعبر عن عرفاني بالجميل للعديد من قدماء الجنود المغاربة في الهند الصينية الذين ساعدوني على التقدم في هذا البحث .

تشكراتي كذلك لعلي يعته ، عبد الله العياشي ، عبد السلام بوقرية ، الفقيه محمد البصري الذين وافتهم المية منذ إعداد الطبعة الفرنسية الأولى لهذا الكتاب ، أشكر كذلك أبراهام السرفاتي ، أحمد بنجلون ، رشيد سكيرج ، عبد الله رشد ، عبد الرحمان زغلول ، جو بنديلاك ، مصطفى اليزناسني ، والهاشمي الطود ، كما أشكر روني كليس وميشيل زيراري لتفضلهما بقراءة النص النهائي لهذا الكتاب ، ومحمد زروال لتحمله الكثير من الإضافات والحذف

وإعادة الكتابة والصياغة التي قمت بها في النص الفرنسي .
أما بخصوص النص العربي وأنا أعيد نشر "حكاية أنه ما"
مترجمة إلى العربية وهو اللقب الفيتنامي للمناضل اليساري محمد
بن عمر لحرش والذي نشط تحت أكثر من إسم حركي في الفيتنام
وخارجها ، أود أن أتوجه بالشكر والعرفان لمحمد مستعد لمجهوداته في
نقل الصيغة الأولى من الفرنسية إلى العربية ، كما أتوجه بالشكر
إلى كل من إدريس الخوري على مراجعته النص النهائي وإلى توفيق
بوعشرين وطارق جبريل وعبدالإله زغلول ومصطفى الفن وكمال
الرايس لمساهمة كل واحد فيهم في وصول هذا النص إلى يد القراء .

قلق حقيقي كان ينتابني وأنا أمشي على طول شارع «برين» في الزاوية التي يشكلها مع شارع «جوردان» بحثا عن المسكن الباريسي لألبير عياش، الاختصاصي في التاريخ الاجتماعي للمغرب خلال الفترة الاستعمارية. فمنذ فترة كانت ملامح شخصية استثنائية تشغل بالي: إنه محمد بن عمر لحرش، شخصية فريدة من نوعها في الوسط السياسي والنقابي المغربي كما كانت تؤكد على ذلك الإشارة الموجزة التي نشرها ذلك الرجل العالم والذي كنت على موعد معه بعد لحظات (1). باطلاعي على العناصر الأولى لهذه البيوغرافيا، كان ابن بنعمر قد أخذ أبعادا أسطورية بالنسبة إليّ، فلنتصور إذن: مناضل سابق في الحزب الشيوعي المغربي، عضو في لجنته المركزية، بعث في مهمة ثورية بالفتنام بطلب من هوشي منه، وأصبح فيما بعد حسب ما يقال، «جنرالا» في صفوف القوات الثورية للفييت منه. وبعد عودته إلى المغرب في بداية الستينات، اختفى في ظروف غامضة. كان من الصعب عليّ أن أفهم أن شخصية من هذا القبيل لم تثر انتباه أحد وأن تتم بالكاد الإشارة إليها، بصورة عابرة في الصحافة المغربية.

لقد كان المسار الاستثنائي لهذا الرجل مدهشا جدا حتى في

خطوطه الكبرى . كنت أنتظر بصورة مسبقة الشيء الكثير من هذا المسار . هل كنت أنتظر منه أكثر من اللازم؟ لكن ألبير عياش ، وبأسلوب المؤرخ للصراعات الاجتماعية القديمة كان بإمكانه أن يضع حدا ، في بضع ثوان لأوهامي وذلك بإخراجه من قمطره وبتواضع ، جذاذة صغيرة وبسيطة ودقيقة إلى حد التحجر ، كما هي عادته ، وخاطبني قائلا : «ما قولك إذن؟! لقد كنت مخطئا بانتظارك لكل هذا من شخصيتك هاته ، فأنت ترى أنها لم تكن إلا هذا . . .» .

كنت أستعد لخيبة أمل محتملة ، وأنا أقوم بتركيب الرقم السري لباب العمارة ، ثم وأنا أدخل إلى المصعد كنت أعمل جاهدا على إعادة استحضار شذرات المعلومات التي جمعتها حتى الآن عن بن عمر . هل كان هو فعلا الرجل الذي عينه الحزب تلبية «للطلب الشخصي» لهوشي منه الذي التمس من قيادة الحزب الشيوعي المغربي إرسال إطار حزبي إلى الفتنام تكون مهمته تأطير الجنود المغاربة الفارين من الجيش الاستعماري الفرنسي أو المعتقلين من طرف «الفيت مينه» ، والقيام بعملية استقطاب للجنود المغاربة الذين كانوا لا يزالون في صفوف الجيش الفرنسي؟

من كان ذلك الرجل ذو العضوية الثابتة في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المغربي الذي توجه إلى الفتنام في نهاية 1945 ، بعد مغادرته المغرب سرا؟ ما هي دلالة مسار ذلك الذي سيشارك ، على رأس وحدة للمتطوعين المغاربة بالفتنام ، في انتصار «ديان بيان

فو» بل والذي قد يكون شارك شخصيا في إلقاء القبض على الجنرال ذي كاسطريس؟ من كان ذلك الخريبكي الغامض الذي ذهب الفتناميون إلى درجة ترقيته جنرالا في جيش الفيت مينه؟

الشهادات العديدة للأشخاص الذين عرفوه تصفه بالشخصية البسيطة ذات الأفق البسيط والقدرات الفكرية والأساسية المحدودة جدا ، شهادات أخرى لأشخاص لم يعرفوه سوى في آخر أيامه تصفه بالشخص المدمن على الخمر ، يتكلم بلهجة سوقية ، بل فاحشة ويعيش مسبقا حالة انحطاط تام ، وهو ما جعلهم يشكون في أن مثل هذا الرجل كان له ماض سياسي أو عسكري معروف بدرجة معينة . في آخر أيامه كان البعض يسخرون منه عند مروره أمامهم : «آه ، أنظروا ها هو المارشال ! . .»

لكن الشخصية عاشت ووجدت بالفعل ، فكلما كنت أتقدم في التنقيب في الصحافة العمالية الشيوعية لفترة الاستعمار (مثل جرائد «اسبورا» «لاكسيون سانديكال» . .) إلا وكانت ملامح الشخصية تتحدد أكثر . لم يعد الأمر يتعلق فقط بإشارات بسيطة ومتناثرة ، وإنما بمسار . بحياة لها دلالتها . حياة حافلة بالنضالات والمحن الحقيقية واللحظات الحاسمة . . آثار مساره تكشف عن تكوين ماركسي قوي وعن ملامح مناضل كبير . وشيئا فشيئا ومع تقدم تنقيبي في الجرائد اكتشفته وهو يتسلق هرم الجهاز الحزبي . ثم اعتقاله عدة مرات . وكان يأخذ الكلمة في المناسبات الكبرى الحياة

التنظيم الشيوعي . في المنشورات الشيوعية لتلك المرحلة نصوص تحمل توقيع محمد بن عمر (المكر)، كنت أفحص غير مصدق عيني ، متسائلا ، محققا ، مطابقا بين المعلومات . لقد كان الأمر يتعلق به فعلا ، تاريخ حياته كان يتشابه مع تاريخ حزبه ومع تاريخ نخبة سياسية معينة . أحداث حياته كانت تبدو أحيانا مميزة ، لها طابع فردي قوي وغير قابلة للاختزال وأحيانا أخرى غير شخصية مجرد دواليب ميكانيكية أكثر اتساعا أو مجرد أجزاء لأجهزة مجهولة تتجاوزه .

كانت جذاذات ألبير عياش صامته نسبيا وتقنية جدا أمام المشروبات المرطبة التي كانت زوجته تقدمها لي بسخاء . لقد كان المؤرخ يعترف بتواضع وبحذر علمي جدا بمحدودية المعلومات التي جمعها حتى الآن : فالمعطيات التي كانت تحتويها الجذاذات حول حياة وتجربة ومغامرات بن عمر ، والتي تم تجميعها بعد العديد من التحقيقات ، وعملية فك رموز الأرشيفات التي أمكن بلوغها ، والمطابقة بين المعلومات ، وتعبئة الإمكانات العلمية في مجال المعرفة الاجتماعية ، كل ذلك يظل عبارة عن معطيات خارجية لكل طاقاته في مجال المعرفة الاجتماعية العلمية ، معطيات أجنبية . فصول ألبير عياش كان يبدو لي محايدا بشكل غريب ، باردا ومتحفظا وهو يقرأ علي إشارات الملخصة عن سيرة محمد بن عمر لحرش «ظهر لأول مرة كعضو في المكتب النقابي لعمال سد بين الويدان ، ثم

كسكرتير للاتحاد النقابي المحلي بقصبة تادلة حيث اجتهد في تنظيم العمال الفلاحين ، ألقى عليه القبض وسجن . ثم شغل فيما بعد منصب سكرتير الاتحاد النقابي بالدار البيضاء حيث أصبحت له مسؤوليات سياسية : وهكذا عمل أولا سكرتيرا لفرع الحزب الشيوعي بالبيضاء ، ثم أصبح عضوا في لجنته المركزية خلال المؤتمر الثاني المنعقد في أبريل 1949 .

غادر المغرب ليحارب في صفوف قوات "الفيت مينه" حيث أصبح يعرف باسمه الجنرال عمر ، أما الجنود المغاربة الذين كان قائدهم فكانوا يعرفونه باسم الجنرال معروف . بعد عودته إلى المغرب سافر إلى دول أوروبا الشرقية (2) .

استشطت غضبا للصرامة الاحترازية التي فرضها ألبير عياش على نفسه مع شخصية لا يمكن برأيي إلا أن تلهب المتخيل . فالمعلومات التي كان يقدمها لي كنت أعرفها مسبقا ، فكنت أؤاخذه لعدم استطاعته إفادتي بأكثر منها . وبما أنني رفضت تصديق ذلك ، فإلنني كثيرا ما أعدت الكرة وخلال فترة طويلة ، وذلك خلال محادثات جديدة رأسا لرأس ، أو عن طريق رسائل ملحة ، بل طالبته بأن يسأل لي الشيوعيين الفرنسيين السابقين الذين ما زالوا على قيد الحياة فكان يجيبني : «لقد سألت السيد "برودوم" (3) إلا أنه لا يذكر أي شيء . أندري لورو (4) قال لي ما سبق أن أخبرتك به ، استجوبت أيضا إدمون عمران المالح الذي كان قد توصل مؤخرا

برسالتك . أعتقد أنك توصلت بجوابه الذي يخبرك فيه بما يعرفه ،
ولن يقول أكثر مما قلته لك» .(5)

كان ألبير عياش قد أفادني ، في الواقع ، بما كان من الممكن
معرفته حسب ما كانت قد توصلت إليه التحقيقات آنذاك . أما
رسالة عمران المالح فلم أتوصل بها ، لكنه أكد لي بدوره خلال لقاء
بالصدفة ، حدود معلوماته عن لحرش . عديدة هي الرسائل التي
بعثتها إلى كل الجهات ، بما فيها الفتنام ، والتي ظلت دون جواب ،
كثيرة هي أيضا الوعود التي أخلفت لموافاتي لاحقا ، بتوضيحات
ووثائق ، أو التهرب في آخر لحظة من اللقاءات ومن الإدلاء لي
باعترافات والكشف عن معلومات . والغريب أنني كثيرا ما سأحس
عن خطأ أو عن صواب ، بأن الشهود الذين كنت أخاطبهم من
عايشوا بن عمر ، كانوا يكشفون أقل مما كانوا يعرفونه في الحقيقة عن
حياته ، لم أكن أفهم وما زلت لا أفهم أسباب ذلك .

كنت مستاء لعدم كفاية الشهادات ولنقص المعلومات وندرة
التفاصيل ، إلا أنني كنت مرتاحا في كل مرة كانت الشخصية تحافظ
فيها على ملامحها المهيبة والواعدة . دون وعي ، كنت أقصي
الجوانب السلبية في جذادة أردتها أن تبقى هامشية .

هل سبق لنا أن حلمنا بلقاء مغربي شارك في الثورة الفتنامية
وفي صفوفها بالذات؟ هل كان باستطاعتنا أن نعي بما فيه الكفاية
الدلالة التي تكتسيها حياة هذا المواطن الخارق للعادة الذي شارك في

إحدى أكثر دروس الفعالية إدهاشا لمعركة التحرير الوطني المترابطة مع التغيير الاجتماعي؟ كيف استطاع مسار هذا الرجل أن يصمد متحديا أكثر الأطروحات تشاؤما حول عدم تغيير وجمود وثبات البنيات التي تميز ، ربما ، مجتمعا؟

قررت أن أتبع خطواته عن قرب ، أن أقتفي آثاره ، أن أحميد تركيب مراحل حياته وأفهم ملامح شخصيته : في المغرب بلد التوازنات العريقة ، بلد الف (6) والأنساب والعصبية القبلية . . . لم يكن من الممكن حياة محمد بن عمر لحرش ، الرفيق الجنرال والمناضل الشيوعي الذي ذاق فرحة الانتصارات الثورية الأكثر مثالية في عصرنا الحالي ، أن تنتج اللامبالاة .

في يوليوز 1984 وبمناسبة انعقاد ندوة دولية ببغداد حول السلام بالخليج ، التقيت دون جدوى المسؤول عن العلاقات الخارجية بالحزب الشيوعي الفيتنامي . . ثم كررت محاولاتي متصلا بالعديد من المسؤولين الرسميين في الجمهورية الديمقراطية الشعبية للفيتنام الذين كانت لهم علاقات مع بن عمر ، لكن دون نتيجة كذلك . فالفيتناميون الجدد لمرحلة ما بعد الحروب ، ولمرحلة الندوات وفي زمن إعادة البناء والنزاعات مع الصين والقضية الكامبودية ، كانوا منشغلين بما هو أهم من القيام بأبحاث لحسابي حول مغربي غامض . إلى جانب ذلك ، ألم يكن من البديهي أنهم لم يعودوا من الآن فصاعدا مدينين بأي شيء لأي حد؟

كان من المتعذر الوصول إلى الأرشييف بسبب الأجال القانونية وحساسية الموضوع وامتداداته الحالية . سواء في جوانبه المغربية أو الفتنامية . بعض الوثائق كانت تبدو بكل بساطة مفتقدة الآثار الرسمية لابن عمر التلميذ . ظلت بعيدة عن متناولي إلى آخر المطاف . كما أن تلك المتعلقة بمروره العابر بالبريد والمواصلات أو بالمكتب الشريف للفوسفاط تبدو إلى اليوم صعبة المنال . لم يكن من الممكن للتحقيق أن يكون منهجيا ومركبا وأن يتم التحكم فيه وفق الأصول . فالخطوط المكسورة للامح الشخصية كانت تضيع تارة وسط اختلاط الشهادات غير الكافية أو المتناقضة وكثير من الصمت والوثائق الناقصة ، لكن عناصر أخبار جديدة كانت تصل بشكل متفرق ومتقطع : كان عليّ أن أقرر في أغلب الأحيان أن أترك الأمر لصدفة الاكتشافات واللقاءات والقراءات . . . «لم يسبق لي أن سمعت عن السيد لحرش ، وهو ما لا يدل على عدم أهميته وإنما على جهلي . أرجو لك عملا موفقا» . هكذا أجاب دون تأخر عن طلبي للمعلومات ، جون لاكوتور المطلع على أحوال كل من المغرب والفيتنام خلال الخمسينات (7) . كانت حياة بن عمر تقع في قلب ما يسميه هذا الكاتب بـ «التاريخ المباشر» ، ترى كيف كانت ظروف هذا التاريخ الآن في فهمه والمتزامن في إنتاجه ، وذلك دون وساطة ، ودون أن يكون تماما مصدر تلك الشروط دائرة الفاعلين أنفسهم ولكن جوارهم المباشر؟ (8) كيف يمكن تبليغ وتلقي كلام أولئك الذين كانوا

فاعلين ، ووضع التاريخ انطلاقا من الأرشيفات الحية التي يجسدها هؤلاء الأشخاص الذين تقاطع مصيرهم مع مصير بن عمر؟

كان تحقيقي حول هذا الأخير قد ارتضى هذا التمرين في التاريخ وهو مزيج من الصحافة والبحث التاريخي ، ولكن كذلك من البناء الشخصي فوق فترة قريبة العهد أكثر من اللازم ، تمرين يطبع فيه الزمن الأحداث ببطء ذي دلالة بحيث يتأرجح بين إرادة معرفة الحقيقة والرغبة في حقيقة وجود شخصية مثل هاته .

لم يكن الأستاذ جرمان عياش عضو الحزب الشيوعي المغربي وصاحب مقالات منشورة في نفس أعداد مجلة «إِسْبَوَارْ» (الأمّل) التي كتب فيها بن عمر ، قد سمع به هو الآخر⁽⁹⁾ ، تعرف عليه بالتأكيد في إحدى الصور التي أريتها له لكنه أكد لي أنه لم يكن هناك شيء يثير انتباهه إليه خلال تلك المرحلة . إضافة إلى ذلك ، ذكرني بأنه كان هو نفسه قد أبعد عن المغرب على يد الجنرال جوان سنة 1950 ولم يعد إليه إلا في سنة 1956 . والحال أن هذه هي بالذات الفترة التي كان قد تم فيها اختيار بن عمر لمهمته الفتنامية ، فكان عليّ بالضرورة أن أستنتج من جهتي بأنه مهما كانت كثافة الصداقات التي نعثر عليها داخل تنظيم سياسي مثل الحزب الشيوعي خلال تلك السنوات من الأربعينيات ، فإن بعض المناضلين قد يُمضون عمرهم جنبا إلى جنب وهم يجهلون بعضهم البعض . فالعزلة التي يعيشها الإطار الحزبي لا يمكن التخفيف من حدتها . إلا

أن أبراهام السرفاتي كان يتذكر : توصلت برسالة من السجن الذي كان معتقلا فيه ، رسالة دقيقة ، جازمة وغنية بالمعلومات والفرضيات حول حياة بن عمر (10) . يظل المؤرخون الفرنسيون لحرب الفيتنام الأولى في مجملهم ، غير مباليين بشكل يثير الاستغراب بتفاصيل توضيحات ومعاناة وعذاب واعتقالات و فرار الوحدات المغاربية بالجيش الاستعماري الفرنسي . إنهم لا يكتشفونهم سوى كتفاصيل ثانوية : عناصر احتياطية كانت في ساحة المعركة وعناصر احتياطية في فهم هذه الحلقة من التاريخ الاستعماري . فيظهرون بالكاد في روايات الحرب . لا يكتشفهم المؤرخون على العموم ، إلا كتفاصيل مكمل لمعركة ما ، أو كعناصر مساعدة في مناورة ، أو مواد لنوادير الحرب . وأحيانا يتعلق الأمر بالنسبة للمؤلفين الفرنسيين ، عسكريين أو غيرهم على اعتبار هؤلاء ، عند سرد مختلف تطورات الحرب الفرنسية في الهند الصينية ، كحلقات ضعيفة محتملة في الحملة العسكرية الفرنسية بالشرق الأقصى . . . بيد أن الشهادات كانت تصل تباعا ، كنت أراكم حواراتي مع أشخاص مقربين من بن عمر ، ومع مسؤولين شيوعيين مغاربة كبار مثل علي يعته وعبد السلام بورقية ومحمد فرحات . . وأسجل عند إعادة دراسة الآثار المكتوبة لهذه العشرات من الحوارات ، أن المعطيات كانت في مجملها تلتقي لتؤكد على البعد الاستثنائي لهذه الشخصية .

على أن المرحلة الفتنامية في مسارها كانت غامضة ، وفي 1987 جمعت ندوة كبيرة بمدينة ميلانو العديد من الباحثين : وضعتني الصدفة قرب "كولوتي بيتشل" وهو مؤرخ مختص في تاريخ آسيا وإفريقيا . كلمته عن قصة بن عمر فنصحني بالاتصال بشخص يدعى "جورج بوداريل" كان قد انضم سابقا إلى صفوف "الفيت منه" (القوات الفتنامية المقاتلة من أجل الاستقلال عن فرنسا) وتم العفو عنه مع نهاية الحرب ، أعطاني عنوانه في باريس فكاتبته . في البداية لم يجبني ، إلا أنني كنت في عمل بجامعته خلال ندوة من تنظيم أحد أصدقائه وبفضل هذا الأخير نجحت في النهاية في الالتقاء به .

قابلت بوداريل عدة مرات . إنسان محبوب وخدم دلي على العديد من المؤلفات التي ساعدتني في بحثي . لكن هذا الرجل كان يبدي سخاء كبيرا . كمتقف لم يكن يتخلّى عن شيء من العمومية في كلامه ، وعن الحذر في نبرته وعن نزعة أكاديمية محضة في علاقته بالأمور الفتنامية . وقد فهمت بمرور الوقت أنه كان دائما يتأكد من أنه غير مطارد . كان يضرب لي مواعيد غريبة : «توقف عند ميترو «لاريوبليك» على الرصيف الموجود في اتجاه باب «دي ليلا» وسأكون في الجنب الآخر من الرصيف . . .» نفس الاحتياطات الكثيرة عند اختياره للمقاهي التي كنا نجلس فيها لتبادل الحديث . عندما كنت أطلب منه بعض التفاصيل أو أسماء أماكن أو أشخاصا

أو أحداثا دقيقة لها صلة من بعيد أو من قريب بآبن عمر، كان كلامه يتحول إلى نوع من التهرب . شهورا بعد ذلك ، وذات شهر مارس من سنة 1991 توصلت من بوداريل بمراسلة ضخمة : نسخ ، مقالات بصحف ومجلات ، نصوص متنوعة ، مناشير ، نداءات للتضامن أثارها الحادث الذي وجد نفسه في بؤرته بمناسبة ندوة بمجلس الشيوخ الفرنسي (11) . كان بوداريل يعطي شعورا بأنه يفهمني ما يلي : «الآن فهمت لماذا كنت ألزم الصمت!» وقد عرفت لاحقا ، بالأدلة الثابتة أنه كان قد توصل بالعديد من الرسائل المجهولة تهدده بالقتل .

بفضل بوداريل تمكنت في النهاية من الالتقاء بكاميليا الحرش ، زوجة بن عمر الحرش . وقد ساعدني على التغلب على تحفظها ، فاتفقنا على الالتقاء نحن الثلاثة بمكتبه «سود إست أزي» بزنفة الكاردينال لوموان (في باريس) . كانت تبدي الكثير من الحذر ، عندما التقينا مرة أخرى فيما بعد . ولكنها كانت تبدي أيضا لطفًا وعلاقة مفتوحة بشكل واسع على الصداقة ، كنت أفهم الصمت المتواصل لكاميليا : كانت تتعرض بالكاد . لبعض الجوانب الحساسة في الحياة الماضية لابن عمر ، كانت تبذل جهدها للحفاظ على صورة زوجها حيث كانت تخفف من مشواره الثوري في آخر أيامه وتضع سورا كاملا من الجهل أمام بعض «تطورات» بن عمر ، والتي خلص إليها تحقيقي .

كان ينبغي إذن أن تُعطى لعمل بن عمر أهميته التاريخية الحقيقية . فاتجهت هذه المرة صوب قدماء المحاربين في الهند الصينية : وحدات القناصة ، والگوم ، والفرسان . . . إلا أنه كان يتعين أولاً أن يعاد هؤلاء إلى أنفسهم ، وأن يتم فك رموزهم داخل السياق التاريخي والاجتماعي لمرحلتهم . كان ينبغي أن تؤخذ في الحسبان أيضاً حدود الذاكرة : فإلى أي حد كان بإمكان الأشخاص المستجوبين الذهاب أبعد من اللازم في إعادة استحضار الذكريات وبناء «فتناتهم» الخاص؟ . . . هنا أيضاً كان بعض قدماء المحاربين يقررون الصمت ، بينما كان آخرون يتكلمون وهم يمارسون الرقابة الذاتية . . كثيراً ما كان يسيطر عليّ الانطباع بأنني لم أعمل بما فيه الكفاية ، وبأنني لم أكن مجتهداً في جمع المعلومات ، وأنني قوّتُ عليّ شهادات أساسية . وهكذا كنت على وشك الالتقاء بعبد اللطيف المنصوري ، طبيب بن عمر وصديقه الحميم خلال السنوات الأخيرة من عمره ، خلال منفاه الجزائري ، فإذا به يلقي حتفه في حادثة سير بإسبانيا . أين ذهب كذلك الجيلالي المساعد الأول لابن عمر في الفتنام؟ أين يمكن العثور على «إلس» أو "إسو" كما كان يسميه أصدقاؤه ، والملقب بـ «فيتت تكوين نهو» الذي التقاه جاك دوايون ، صاحب المؤلف الكلاسيكي : «جنود هوشي منه البيض» (12) ، هل في مكان ما من منطقة لوميدي بفرنسا؟ ألم يكن من السابق لأوانه كتابة قصة مثل هذه؟ هل كان في استطاعتي المزيد

من الانتظار؟ العديد من الوثائق فقدت وأخرى لا يزال غير ممكن الوصول إليها .

هل كان تأليف الكتاب زمنيا قريبا أكثر مما ينبغي من الموضوع المتناول؟ جل الفاعلين يبدون لي هنا متخلصين من الفعل ، كما لو كانوا متحررين من ذكريات الأحداث التي مارسوا تأثيرهم على مجراها (13) ، والحقيقة كذلك أن الفورية ليس لها سوى جوانب سلبية ، بل لها أيضا فضائلها .

بعد عودة بن عمر من الفيتنام ، بقي في المغرب بعض الوقت قبل التوجه إلى الجزائر للالتحاق بالمعارضة المسلحة المغربية ، وهنا تبرز مناطق ظل يحاول أغلب الشهود «المسؤولين» حمايتها بأى ثمن . وإذا كانت ، بشكل عام ، «لا توجد مجموعات أو أشخاص أو مؤسسات ليس لها مناطق ظل تحميها ، وترد مسرعة بالإخفاء التام على الإضاءة غير الملائمة» (14) ، فإن عدة شهود ما زالوا يشعرون بمصلحة حيوية في الحفاظ على هذا الجانب من حياتهم في الظل . وبالنظر إلى بعض المعطيات ، فإن واجب تكتم كبيرا يفرض نفسه على المؤلف نفسه .

كلما كانت تحقيقاتي تتقدم أكثر ، كلما أصبحت واعيا أكثر بالوظيفية التي كنت أعطيها بصورة لا واعية للشخصية : كنت أجعل منها رمزا لتساؤل إجمالي أكثر شمولية . إنها إذن كتابة عن جوار «مشارك» أكثر مما ينبغي في الأحداث ، كتابة إحصاء وتقطيع ،

وبالضرورة كتابة إقصاء : فماذا كان يعني بالنسبة لذلك الذي عاش في الفيتنام ، الربط بين المقاومة من أجل التحرير الوطني والمقاومة من أجل التحرير الاجتماعي ، وعدم تحقيق هذا الربط في المغرب؟ ألم تكن من الاعتراضات الأساسية لجيل المناضلين الشباب في نهاية الستينات وبداية السبعينات . جيل كان كله إخلاصا لماركسية تسمي نفسها بالثورية . هي لماذا لم ينطلق التحرير الوطني بارتباط مع التحرير الاجتماعي سواء في المغرب أو باقي البلاد العربية؟ هل ارتكبت بعض الأخطاء؟ (15) ، كان المسار الرمزي ، ولكن الحقيقي تاريخيا ، لابن عمر يعيد طرح سؤال الأخطاء الاستراتيجية للحركة الوطنية وخصوصا أخطاء اليسار . بن عمر الملقب بمعروف هو الفيتنام والصين ، كما جرى في وقت واحد معايشتهما واستبطانتهما وامتلاكهما من جديد ، وليس قط ببساطة ، مراجع مستقاة من الكتب أو نماذج نظرية عاطفية وجمالية ...

على أن القيمة الدالة والوجودية لحالة امحمد بن عمر لحرش لم تكن لتتوقف عند مصيره الثوري بالفيتنام : ألم يكن قد التحق مبكرا بالخللايا الأولى للحزب الشيوعي المغربي؟ ألم يكن قد عاش من الداخل إحدى أكبر التجارب الاشتراكية من «الداخل»؟ ، ألم يعمر مدة طويلة في الدول الاشتراكية بالمعسكر الشرقي؟ ألم يكن أيضا قد تخلى عن انتماءاته الحزبية الأولى في نهاية مشواره؟ .

لقد كان من الممكن أن يُكشف عن الجنرال بن عمر كأحد

الرموز الأكثر دلالة لمسارات الماركسية في منطقتنا ، إلا أنه كان يُضحى مناسبة لكتابة تاريخ اجتماعي عام ، وفي نفس الآن لتاريخ شخصي ، أكثر من اللازم ؛ مناسبة لوضع صورة نموذجية تماما ومتميزة بشكل لا يقبل الاختزال ، ولرسم كليشي المناضل النموذجي في العالم الثالث في صورته المثالية التي هي تجسيد للبدوي الخارق للعادة ، وللبطل وللزعيم السياسي وللعسكري الكبير ، ولكن أيضا ذلك الذي ينتهي حقيرا ، سكيرا ، منحطا منبوذا .

أيها الرفيق الجنرال ، لو لم تكن قد وجدت لكان من الضروري إيجادك دون شك وخلقك كبطل لملاحم خارقة ، ولآمال عمالية وبدوية لا تُصدق ، وكلوحة مناقضة للإكفهرار والجمود المعروف عن دولنا .

لو لم تكن قد وجدت بالفعل ببساطة وبتواضع لكننا نحتناك ووضعنك وخلقنا أسطورتك من كل ذلك الغموض البئيس لليوطوبيات الباقية فينا .

كل المعطيات يبدو أنها تدل على أن امحمد بن عمر لحرش ولد قرب خرببغة سنة 1914 أو 1915 في أمزيز وسط قبائل أولاد عبدون ، أصوله البدوية تبدو مؤكدة (16) .

هناك بالفعل عناصر دقيقة قليلة معروفة عن هذه المرحلة الأولى من حياته ، في الفتنام ، كان يعجبه أن يعرف بنفسه كابن إحدى تلك القبائل الكبرى للأطلس التي قاومت حتى النهاية زحف القوات الفرنسية . كان يوضح أنه ورث لون بشرته الداكن عن جدته السمراء ، وكان يبدو فخورا بهذا النسب . كبر امحمد بن عمر في وسط اجتماعي متميز في هذه المرحلة الاستعمارية المعروفة بتكاثر القرى المنجمية . وكان قد فرض إقامة هذه التجمعات السكنية استغلال مناجم الفوسفات بأولاد عبدون الذين جاء منهم ، منذ البداية ، عدد مهم من العمال . كانت نقط تجمعهم في هذه القرى كثيرة وذات بنايات متنوعة وغير متمركزة مخصصة بالدرجة الأولى لإسكان العمال (17) .

كانت هذه الدواوير-العنابر امتدادا للاستغلال كما هو الشأن بالنسبة للأجور أو للبنيات التحتية للمناجم مع علاقات اقتصادية متنوعة ، وديناميكية اقتصادية خاصة تفلت من مراقبة المكتب

الشريف للفوسفاط (18) .

هذه البنية العامة كانت حاسمة في إنشاء حياة جماعية فريدة وتكتل اجتماعي مستقل ، ومرتبطة مستقبلا بهذا الإطار الجديد القائم على استخراج المعدن وتحمل المقولة الناتجة عن ذلك لمسؤولية الحياة الاجتماعية .

كان هذا يجري في خضم نزاعات عديدة كتلك التي كان يتواجه خلالها وسط قروي مع بلدات منجمية أو التوجه العام مع العلاقات شبه المؤسساتية الرابطة بين القرى وإدارة المقولة أو تواجه دوام البلدات مع عرضية المؤسسة المنجمية .

من المعروف أن قرار استخراج فوسفات الجير من طرف المكتب الشريف للفوسفاط يعود إلى العشرينات . وكانت القبائل المعمرة لهضبة أولاد عبدون ، والتي كانت في الحقيقة قليلة السكان في البداية ، تعيش حياة شبه الرحل ، حيث كان هؤلاء المربون للماشية الصغيرة يغيرون أمكنتهم باستمرار بحثا عن أراض معشوشبة ومناخ معتدل . فأراضيهم القبلية قليلا ما كانت تزرع باستثناء الجزء المكون من سهل الغفاف .

في هذا التاريخ ، كل جزء صغير جدا من السكان «مجتمع» حسب مصطلح الإحصائيات . ان تعمير المنطقة يبدو ذا طابع متحول ، مؤقت وغير مستقر . لم يكن ثمة في تلك الفترة طريق رئيس للمواصلات ، كان مصدر اليد العاملة بالأساس هو التوزيع أو

السجناء ، وقد ارتفع عدد العمال النائين القادمين من جنوب المغرب .

هل كان ابن عمر ابن إحدى تلك العائلات الصغيرة من المزارعين المربين للماشية الصغيرة من ذوي المداخل المتقلبة في هضبة شبه جافة؟ أو من تلك العائلات التي التقفها التجمع السكاني المنجمي بخريبكة والذي كان ، خلال العشرينات والثلاثينات ، ينشأ ويكبر ويجتذب القرويين المجاورين بشتى الأشكال سواء في القابضة المركزية التي فتحت أبوابها في خريبكة ، أو قابضة بوجنيبة أو بولنوار؟ في سنة 1936 ، كانت هذه المؤسسات الثلاث موجودة أصلاً تنشطها المهن الصغيرة التي أدى إلى ظهورها في المدينة والقرى المحيطة بها مجيء عمال جدد .

ولد بن عمر وترعرع وسط هذا المناخ الذي لم تتوقف فيه بنايات المكتب الشريف للفوسفات منذ العشرينات عن النمو حيث تتناقض ، بشكل صارخ ، أشكال البناء العفوية في الأحياء الهامشية ؛ فهناك الكاريان ، وهو بناء زهيد الثمن ، عبارة عن خليط من الأكواخ والنوالات .. متداخل مع بناء صلب من النوع القروي ، ومع بنايات صلبة من الطراز المديني .

نحن الآن ربما في 1921 و 1930 ، كان امحمد آنذاك يبلغ من العمر حوالي 14 أو 15 عاماً ، ترى ما مصيره فيما بعد؟ ماذا يفعل؟ إلى غاية 1942 أي وهو في سن السابعة والعشرين؟ ماذا فعل؟ هل

اشتغل بالنجم؟ أم بمهن صغيرة لدى التجار؟ أو في الأوراش؟ نادرا ما حدث زوجته عن عائلته وعن شبابه وعن أنشطته وهو راشد . وإذا حصل وتحدث عن ذلك فبعبارات غامضة . اجتاز بنجاح مباراة الدخول إلى البريد والمواصلات . وكانت مباراة صعبة في تلك الفترة ، تتضمن إنشاء وتمارين في الحساب ، ومعرفة لا يستهان بها بالجغرافيا وتاريخ فرنسا .

أكان له الاختيار عندما تجند وهو شاب في الجيش؟ أم كان مرغما؟ ما من شك في أنه شارك أيضا في الحرب مثل آلاف المغاربة ، من أجل كسب الرزق : «كاجينا ، على الخبز والكاميلا» (19) ، على كل ، ها هو في الحرب العالمية الثانية ، حاضر بقوة في قلب الحماية نفسها ، خصوصا منذ الإنزال الذي قامت به قوات التحالف في شمال إفريقيا بمناسبة عملية «طورش» في نونبر 1942 . في رواياته الى معارفه سيحكي لاحقا أنه مشى فوق أرض طبرق في مصر ، وغرس رجله في رمالها السوداء «ما زالت حكاياته عن المناجم في جنوب طبرق ترن في أذني» ، يؤكد عبد الله العياشي . فقد شاركت تحت قيادة الرائد دوكليرك في معركة الصحاري اللبية . وفي المواجهات التي عرفتها تونس ، وكذا في أهم مراحل الحملة الإيطالية سنة 1943 .

واشتهر على الخصوص خلال معركة مونطي كريستو بإيطاليا عندما أطاحت الطواير المغربية بهذا الموقع الذي كانت قد تعثرت فيه

القوات الأمريكية . ذكرى الحرب طارده مدة طويلة كتجربة ذات أثر عميق ، وسنرى لاحقا بعد مدة طويلة في الفتنام أنه سيستعمل المشاركة الظافرة في معارك كازينو كسلاح للدعاية ضد الحملة العسكرية الفرنسية في الشرق الأقصى .

كانت لابن عمر نوادر كثيرة عن الحملة الإيطالية وخصوصا عن تصرفات العسكر المغاربة هناك . ان قصة الكاتب الايطالي ألبرتو مورافيا عن اغتصاب «لاتشيو تشيارا وابنتها روزيلا ليست فقط وليدة الخيال الروائي لهذا المؤلف ، ولكن لها قيمة الوقائع التاريخية . مثل هذه الوقائع قد تكون تعددت في كل المناطق تقريبا عند مرور القوات المغربية وجيوش أخرى (20) . في كتابها «ألفا سنة من السعادة» ، تعيد ماريا أنطونييتا ماتشوتشي وصف المناخ الذي ساد خلال زحف الوحدات المغربية تحت القيادة الفرنسية : «ظهرت الفرقة العسكرية المغربية في منطقة لاطيوم بقيادة الجنرال كيوم وهي التي كانت قد بثت سم داء الزهري في منطقتي لبسوي وبازيليكاطي . وقد حكى لي مالا بارط أن البابا بعث خطابا إلى قيادة القوات المتحالفة يقول فيه : «أوقفوا المغاربة بأبواب المدينة الأبدية» . ففي الفاتكان كانت هناك ثلاثة آلاف امرأة لاجئة . وبموجب هذه الموجة النسائية التي كانت تتدفق في اتجاه البابا ، قدم له الضباط المغاربة التسجيل معتقدين أنه يملك حريما يضم ثلاثة آلاف امرأة وهي علامة لاريب فيها على غناه وبأسه .

وقد كان «للمغربيات» أي النساء اللواتي اغتصبن من قبل المغاربة ، دور مهم جدا في هذه الفترة من حياتي .
بيد أن المغاربة كانوا قد «مغربوا» أيضا الأطفال النابوليين (من مدينة نابولي) البالغين من العمر ستا إلى سبع سنوات والذين كانت أمهاتهم تبيعهم لجنود كيوم : فبعد أن يتحسسوا كما ينبغي المؤخرات الصغيرة لمعرفة قيمتها ، كان الجنود يدفعون مقابلها خمسة إلى عشرة دولارات» (21) .

إن كلام م. أ. ماتشيوتشي يكاد يكون مبالغا فيه . ويؤكد أحد نصوص بن عمر قوة شهادتها : «بين لنا تاريخ الجيوش في مختلف الحروب أن الانتصارات التي تحققها جيوش المرتزقة مردها بالأحرى إلى أدوات الحرب وفن استعمالها . أما شجاعة وحداتها فكثيرا ما كانت تغيب في كل مرة ، لم تكن هناك غنيمة منتظرة! فعلى سبيل المثال وخلال الحرب العالمية الثانية بإيطاليا رأينا قوات الكوم ، المعروفة بقتاليتها وشجاعتها وهي تفر مثل الأرانب أمام القوات الألمانية في مونطي كريستو . فكان لا بد من المناذاة على وحدات الرماة المغربية التي استرجعت عقب تحضير هائل يتجاوز الحدود لسلح المدفعية ، المواقع التي تركها «الكوم الشجعان» في المقابل ، خلال معركة سيينا وبعد ثلاث محاولات فاشلة ، نادى الحلفاء على وحدات الجنرال جوان . هذا الأخير ، الذي كان عارفا بنفسية جنوده ، وعد بـ 24 ساعة «دون قوانين» بعد إسقاط سيينا! وبطبيعة

الحال تمت السيطرة على سسينا خلال أقل من يوم واحد (. . .) . فطبقت الأربع وعشرون ساعة دون قوانين (. . .) ، وقد تميز الغوم بشجاعتهم فنهبوا واغتصبوا وقتلوا سكانا عزلا (22) . هذه الأعمال السيئة للعسكر لم تمنع بن عمر من اعتبار أن الشعب المغربي كان يحارب بالأساس من أجل الحرية . كان يؤكد على ذلك كما لو كان عقيدة لرفاقه الذين ما زالوا يحكون اليوم نتفا من الروايات التي كان بن عمر يسردها لهم عن هذه الحرب ، بل إنه كتب ذلك بوضوح «إننا ننسى أن الشعب المغربي حارب بشجاعة البربرية النازية من الحدود التونسية إلى ألمانيا ، ليس فقط من أجل حرية الآخرين ولكن من أجل حريته هو» (23) .

القدرات العسكرية لابن عمر تبدو بديهية : كان معروفا ضمن نخبة الرماة في الجيش الفرنسي الذي أنهى في صفوفه الحرب برتبة مساعد أول ، وسيمنح فيما بعد وسام ميدالية الحرب . ليس هناك ما يثبت المعلومات البيوغرافية التي تتحدث عن بن عمر كعضو في الخلايا الأولى للحزب الشيوعي المغربي . من المؤكد أنه قد يكون تميز ، وهو «عامل في طور التكوين» ، بنشاطه النقابي وأنه «أعاد ربط الاتصال بالحزب بعد الحرب» ، زوجته كاميليا ما زالت تؤكد أنه كان شيوعيا قبل الحرب ، وهو ما يظل غير مؤكد ، ولكن أئن يتعرض للتأثير الشيوعي خلال حملته بإيطاليا؟ في أحد أعداد شهر مارس 1944 من «أكسيون سانديكال» (العمل النقابي)

وهي أسبوعية أهم مركزية نقابية خلال الحماية (الاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب) ، نعثر على هذه المقالة المقتضبة : «كنا توصلنا برسالة من مدير المصلحة العامة للإعلام (بالجيش) يخبرنا فيها أنه نظرا لأن جريدتنا بدت أنها من المحتمل أن تثير بصورة خاصة ، اهتمام جنودنا المنتمين للحملة العسكرية بإيطاليا ، فإنه كان يعتزم تسجيل 20 اشتراكا فيها . . وكانت هذه المصلحة تدعو إلى منح هذه الاشتراكات بسعرها الأدنى ، وإذا أمكن بسعر التكلفة فقط . . والآن ، ها نحن هنا نقوم بذلك بالجان ، وقد بعث مدير الإعلام مؤخرا إلى أكسيون سانديكال بلائحة العناوين . . إننا لا نشك في أن المرسل إليهم ، وهم قواد مختلف الفيلق ، سيكونون سعداء بنشر جريدتنا وسط رفاقنا الجنود» (24) .

بانتهاء الحرب ، دخل بن عمر إلى المغرب ابتداء من 1945 هذه الحرب التي يبدو أنها فتحت أمامه الآفاق ، حيث لعبت دورا محوريا في التكوين السياسي لهذا الرجل القابل للتلقي والمتفتح بصورة متميزة حسب أقوال الذين عرفوه . كل المعلومات تتقاطع لتبين أنه لم ينتم إلى الحزب إلا بعد الحرب حيث كان يتمتع مسبقا بوعي وبمستوى سياسي عال .

وسنرى فيما بعد أن مستواه السياسي العالي وقدراته العسكرية ستحسم في اختيار بن عمر للمهمة الفتنامية .

حسب الذين عرفوه آنذاك ، فإن بن عمر كان ذا سمعة طيبة ، فمن بين العمال الذين برزوا بشكل مبكر في تاريخ الحركة النقابية بالمغرب ، فرض امحمد بن عمر نفسه إلى جانب مناضلين آخرين مثل الطاهر ، والحدادي ، والعلوي مامو ، ولحسن بن المعطي والطيب بوعزة ، حيث كان يتكلم بطلاقة العربية والفرنسية ، ويظهر مثل مناضلين شيوعيين ومحترفي العمل النقابي الفعال في الوسط القروي ، وستعزز ثقافته السياسية في الحزب الشيوعي المغربي وفي مدارسه التكوينية ، الحدادي كان حاصلا على شهادة الكفاءة في الكهرباء و م . العلوي و ط . بوعزة على شهادة الدراسات المهنية أما الآخرون فغادروا المدرسة مبكرا (25) .

امحمد بن عمر نفسه كان له مستوى السنة الأولى من شهادة الدراسات الابتدائية (26) ، تابع دروسه في مدرسة فرنسية إسلامية بخريبكة إلى غاية القسم المتوسط ، وقد يكون قد حصل على شهادة الدراسات الابتدائية الإسلامية التي كانت موادها عديدة وأصعب من مثيلاتها في التعليم الأوروبي .

أصبح بن عمر موظفا في البريد والمواصلات ولكن لمدة قصيرة : تم تعيينه في تادلة ، لكن غياب أرشيف وأثار موثقة عن هذه الفترة من حياته يجعلها غامضة ، ويتذكر مستخدم بريد يبدو أنه أول شخص تم توظيفه في تادلة سنة 1931 ، أن بن عمر قد يكون اشتغل بالكاد سبعة أيام في البريد كموظف مرافق ، كانت له رتبة ناقل

بضائع ، ومن مجموع الأيام السبعة كان بن عمر قد قضى ثلاث ليال في السجن الذي رمته فيه سلطات الاحتلال ، كان ذا طبع «متمرد» قوي البنية ، كما كان له مسبقا حس بلاغي قوي ، لم يكن يخفي تعاطفه مع الشيوعية ، وكان العديد من القادة الشيوعيين قد جاؤوا إلى ذلك لزيارته في مقر عمله نفسه (27) .

إلا أنه يبدو من الصعب اليوم إعطاء المزيد من التوقيقات حول ظروف مغادرته للبريد والمواصلات ، خلال هذه الفترة بدأ اسم بن عمر في الصعود أكثر فأكثر في الأنشطة النقابية أولا ، وفي العمل السياسي لاحقا ، وبدقة أكثر ، في النشاط النقابي والسياسي الموالي للشيوعية .

هل من الممكن اليوم إحصاء معلومات دقيقة حول مشوار نقابي نشيط في الأربعينات؟ المعلومات المتوفرة تبدو ، على الأقل في البداية ، نادرة غير مؤكدة وسطحية أكثر مما ينبغي ، هل كان حاضرا خلال الأسبوع الأخير من شهر شتنبر 1945 عندما ترأس علي يعتة شخصا ، أمين الحزب الشيوعي المغربي القادم مباشرة من البيضاء ، تجمعما لتدشين مقر جريدة الحزب «إسبوار» (الأمل)؟ (28) لم يعد السي علي يتذكر اليوم وملابسات أول اتصال له بابن عمر ويتردد في تحديد ذلك بدقة (29) . هل حصل ذلك في تادلة أم في خريبكة؟ .

فيما بعد ، وبمناسبة إنشاء اللجنة المؤقتة للجبهة الوطنية ، وبعد تدخل بورقية ، أحمد المهدي ، وسي مبارك باسم نقابة العمال الفلاحيين ، ها هو من تسميه الجريدة «سي بن عمر» يأخذ الكلمة باسم قدماء المحاربين بمنطقة تادلة . (30) إن أهمية هذه المنطقة بالنسبة لقدماء المقاومين تكشف عن أحد الانشغالات الكبرى لشيوعيين هذه الفترة الذين كانوا يبحثون في هذه الأوساط عن أرضية مناسبة لمد نفوذهم .

وتظهر الجبهة الوطنية ، التي كان بن عمر يتحرك مسبقا

داخلها ، وهي منظمة تخضع إلى حد كبير لسيطرة الشيوعيين كثمرة تسلسل ظروف تشهد على أفول متواصل لنفوذ الحزب الشيوعي المغربي ، من المعروف في ذلك الوقت أن جل التنظيمات السياسية المغربية كانت ترفع شعار المطالبة « باستقلال » المغرب ، في حين كان الحزب الشيوعي المغربي يكتفي بالناداة ، من خلال توصية داخلية للجنة المركزية (فبراير 1946) بوحدة جماهير المغرب من أجل «تحسين مستوى معيشتهم وانتزاع الحريات الديمقراطية» (31) . لكن ومنذ وثيقة 4 و3 غشت 1946 ، ذهب الحزب بعيدا في مطالبه بالدعوة إلى إلغاء معاهدة فاس (التي أقرت الحماية الفرنسية على المغرب) والاتفاقية الفرنسية الإسبانية لسنة 1912 (32) .

وفي 28 غشت ، استقبل وفدا عن الحزب الشيوعي (33) . في تلك الفترة بدأ تواجد المغاربة في قيادة الحزب يصبح أكثر أهمية . هذه الوقائع العديدة إضافة إلى إبعاد الشيوعيين من السلطة في فرنسا على يد حكومة رامادبي يبدو أنها تفسر تدني تعداد الفرنسيين داخل حزب الشيوعيين ، وكذا انخفاض تجنيد المناضلين في الوسط الأوروبي . كانت أهمية حزب الاستقلال تتزايد بشكل محسوس وأصبح الحزب الشيوعي يضعف كل يوم أكثر ، بصورة لا جدال فيها . أكان ثمة أيضا كما حاول أن يشرح ذلك بعض المؤلفين ، تراجع اختياري أم نوع من التخريب للحزب؟ هل طبق الحزب الشيوعي المغربي ما يسمى بـ «نظرية الاحتياطات غير المباشرة» . يبدو

مستبعدا أن الحزب الشيوعي المغربي قد تراجع بشكل اختياري حتى لا يضر بصعود حزب الاستقلال .

كان نفوذ الحزب الشيوعي المغربي يعاني من تراجع في صفوف العمال المغاربة : التحق عدد مهم من أعضائه بحزب الاستقلال ، وأمام هذا التراجع المتواصل لنفوذه اضطر الحزب الشيوعي المغربي إلى اللجوء سنة 1947 إلى إنشاء الجبهة الوطنية (34) . وكانت نتائج هذه التجربة من أكثر النتائج نسبة (35) ، مع ذلك ، كان تأثير الحزب الشيوعي المغربي يبدو قويا في بعض المناطق : في تادلة مثلا ، وبفضل نشاط مناضلين تميزوا بروحهم القتالية ، حقق الشيوعيون انتصارات كبيرة .

عبد السلام بورقية ، أحد الرواد المغاربة للحزب الشيوعي ، وعضو الديوان السياسي لحزب التقدم والاشتراكية حاليا ، يحتفظ بذكرىات حية عن الصراعات الشيوعية خلال تلك الفترة خاصة في منطقة تادلة : «كان الحزب قويا في تادلة ، في الحقيقة تم تأسيسه هناك . فتادلة تبدو مرحلة مهمة في إنشائه . لقد حققنا إنجازات مهمة خصوصا في الأوساط القروية لمواجهة المعمرين وحلفائهم الإقطاعيين المحليين ، استطعنا أن نضع حدا لبعض المظالم وساهمنا في التخفيف نسبيا من بؤس الحياة القروية . . ما زال هناك فلاحون وعمال فلاحيون يتذكرون اليوم ماذا فعل الشيوعيون عندما جند المعمرون هؤلاء في أشغال شاقة لزراعة البذور والحصاد ، واقتادوهم

في شاحنات وعربات مكتظة إلى أراضيهم لتشغيلهم فيها دون أي تعويض» (36). وقد أتاحت الفرصة لابن عمر ليطلع بنفسه على المعاناة القروية وعلى نغص العيش الذي لم يكن يكف العمال الفلاحيون عن التعرض له حيث أشار في أحد نصوصه المنشورة في جريدة «إسبوار»: «الضرب، الشتم، السجن دون مبرر كأمثلة، هذا دون أن ننسى الظهير الشهير الذي يسمح باحتفاظ المقاولة بالعامل إلى غاية استيفائه لديونه، وبما أن العامل مرغم على الاستيدانة للعيش، فإن هذا يعني ببساطة نظام القنانة، واستحالة مغادرة العامل الفلاحي لمشغله» (37). كان بن عمر يكتب عن حرية العمل الخيالية ما دامت الديون تتراكم.

غير أن الروح القتالية للشيوعيين تتجلى أكثر في الوسط النقابي رغم أن هذه الروح كانت تعاني في 1949 من بعض التراجع بالنظر إلى عدد العمال المنتمين للنقابات، فاتساع مجال العمل النقابي بدا أنه مدين لنشاط الشيوعيين (38). فمنذ 1945 وانطلاقاً من 1946 كان للعمال المغاربة الحق في حضور التجمعات النقابية بحرية، كما كانوا يشاركون في التسيير، وفي الإدارة وحتى في قيادة نقاباتهم وأصبح عدد الذين يأخذون من بينهم الكلمة خلال التجمعات يرتفع تدريجياً، كما كان يتم استقبال وفدهم من قبل مصالح الإقامة العامة، لا بل من قبل المقيم العام شخصياً. هذا التقدم تم تحقيقه على عهد المقيم العام الجنرال إريك لابون الذي كان

يعتبر ، حتى في نظر أكثر الوطنيين تطرفا ، شخصية متسامحة ومتفتحة نسبيا لكنه لم يقرر شخصيا إلغاء ظهير 24 ماي 1938 الذي يمنع المغاربة من ممارسة العمل النقابي (39) .

أرخ المؤتمر الرابع للاتحاد المنعقد ما بين 30 نونبر وفاتح دجنبر 1946 لرحلة مهمة في مسلسل مغربة الحركة النقابية . فحوالي 60٪ أي ما يعادل الثلثين من مجموعة 55 ألف نقابي كانوا آنذاك مغاربة ، وأزيد من 200 مندوب يتوفرون على 459 تفويضا ويمثلون 148 نقابة أو فروعاً نقابية . كانوا آنذاك مجتمعين في قاعة الحفلات بجنان الحارثي بمراكش حسب دورية «لاكسيون سانديكال» .

وفي التقرير الأدبي الذي قدمه الكاتب العام للاتحاد هنري برودوم ، ركز على عدة مشاكل خاصة قلة نشاط تنظيمات القاعدة ، ومحدودية انتشار الصحافة النقابية والبيروقراطية ، و «غياب الجدلية في العلاقات بين القاعدة والقمة ، وبطء الإجراءات المالية . . .» ، ودعا إلى تكثيف عملية تجنيد المناضلين في أوساط العمال المغاربة ، «كان علينا أن نعد في صفوف نقابتنا 50 ألف ، بل 80 ألف مغربي ، كما كان يقول لنا في يوم ما السيد لابون ، وليس 33 ألف ، ونحن نشاطره فعلا هذا الرأي» (40) ، في عام 1946 كان رقم 33 ألف نقابي على الأقل قد تم مسبقا بلوغه إلا أن الجديد في المؤتمر هو تواجد ومشاركة مناضلين مغاربة متميزين .

فمن مجموع 33 خطيبا ، إثنا عشر كانوا مغاربة : قاسم مثلا ، وهو عامل بسد امفوت تناول الكلمة بالعربية وتمت ترجمتها إلى

الفرنسية فيما بعد ، وقد أثار اللاشعرية المثيرة للاستنكار للحركة النقابية المغربية ، والغياب الذي لا يقل إثارة للاستنكار لتشريع اجتماعي لصالح العمال المغاربة . وقد تم فوراً حل النقابة التي أنشأها في بضعة أسابيع فيما بعد ، وقاسم نفسه تعرض للاعتقال ، كل المغاربة الذين أخذوا الكلمة أثاروا ، كإلزام ، الحق في العمل النقابي . امحمد الطاهر قام بإحدى أكثر المداخلات حدة : «يجب احترام الوعود التي أعطيت لنا في أعلى مراكز السلطة ، فكثيراً ما يفقد مناظرون عملهم بسبب نشاطهم النقابي يجب وضع حد لهذه الوضعية ، وإذا تبادت الإقامة العامة في موقفها فسيكون علينا التحرك في باريس ، وإذا دعت الضرورة إيفاد بعثة إلى الحكومة الفرنسية الجديدة» (41) ، كما هو حال كل المناضلين المغاربة الحاضرين في المؤتمر ، التحق الطاهر بالعمل النقابي عن طريق الحزب الشيوعي ، وقد كان الطاهر يجسد النموذج المثالي للعامل المغربي الذي تكون على الطرق التنظيمية للأحزاب والنقابات الفرنسية . ولم يكن امحمد الطاهر المثال الوحيد . كان مندوب الموانئ فيما كان مناظرون آخرون كالشوفاني مناديب عمال النقل ، والناصري مندوب عمال البحرية ، وقاسم مندوباً عن البناء ، والطيب بوعزة مندوباً عن المناجم وميمون العلوي مندوباً عن البريد . أما امحمد بن عمر فكان يمثل نقابة العمال الفلاحين بتادلة .

والى ذلك فقد كان مؤتمر الاتحاد بمراكش تحت سيطرة الحزب الشيوعي ، كان هذا الأخير هو الذي يعطي التوجيهات إلا أنه كان

يدشن مرحلة جديدة في تطور الحركة النقابية بالمغرب ، فلأول مرة وصل مغاربة إلى مراكز المسؤولية داخل النقابات . ففي 1945 كان مكّي عبد النبي المغربي الوحيد العضو في اللجنة التنفيذية . وفي 1946 التحق سبعة مغاربة بهذه اللجنة وأصبح ثلاثة آخرون أعضاء في مكتب الاتحاد العام ، إضافة إلى ذلك تم خلق منصب كاتب مشارك ، وأسند لمغربي ، بالمقارنة مع وضعية الدول المغاربية الأخرى ، كانت مغربة الحركة النقابية تعرف تأخرا بينا في الجزائر وتونس كان العديد من المناضلين النقابيين قد سبق تكوينهم خلال سنوات حكم الجبهة الشعبية في فرنسا وفي الغالب قبل تلك الفترة .

في المغرب بالمقابل ، كان ظهور 1938 قد أخرج إمكانيات وصول أطر مغربية إلى المسؤوليات النقابية . فالأطر النقابية التابعة للاتحاد العام للنقابات المتحدة بالمغرب وأولئك المنتمون لاحقا وبعد فترة وجيزة للاتحاد المغربي للشغل ، شيوعيين كانوا أم استقلاليين تم تكوينهم خلال سنوات ما بعد الحرب .

كان عبد السلام بورقية قد استقر مسبقا في منطقة تادلة وقد قاده عمله إلى هناك حيث انتسب إلى الحزب الشيوعي . كما كان يوجد هناك عنصر آخر سيصبح أيضا مهما في المستقبل : المعطي اليوسفي وهو من مواليد أولاد يوسف بنفس منطقة تادلة ، وعضو بالحزب الشيوعي منذ إنشائه في 14 نونبر 1943 دون أن يغفل صورة الرائد مارسيل لامورو وهو يجوب باستمرار هذه الأرض مؤسسا بها الحزب مثلما فعل في العديد من مناطق البلاد ، منظما بها ندوات

قروية ما بين 1947 و 1948 ، ومبلورا المقاربات الأولى للحزب بخصوص قضايا العالم القروي إبان الفترة الاستعمارية .

لقد تطورت الأنشطة الأولى لابن عمر بالأساس على أرضية العمل النقابي في سياق يطبعه التطور الواضح للحركة النقابية ، في منطقة تعيش تحت نفوذ شيوعي قوي ، كان ابن عمر يظهر آنذاك كعضو في مكتب نقابة سد بين الويدان ، وكان هنري برودوم ، الذي أصبح منذ المؤتمر الثالث الكاتب العام للاتحاد العام للنقابات المتحدة بالمغرب (42) ، قد جاء شخصا لإنشائه في قلب ما كان يعرف بالمنطقة الأمنية ، أي الممنوعة من قبل السلطات من ممارسة الأنشطة السياسية والنقابية ، كان ابن عمر يظهر بالتدرج كأحد عناصر المكتب الأكثر نشاطا وكأحد المسؤولين النقابيين بسد بين الويدان الذي كان طور الإنجاز بيده العاملة الضخمة التي تضم حوالي سبعة آلاف عامل (43) .

في الحقيقة ، كان قد شرع في إنجاز أعمال سقي مهمة بالمنطقة ، وفي الوقت الذي كانت تهيمن فيه أزمة لزراعة القطن في 1946 ، ظهر مشكل طبيعي في موقع الدائرة السقوية التي كانت تبدو فيها الطبقة المائية الجوفية وهي ترتفع بفعل السقي مقترنة بصورة خطيرة من سطح الأرض وبشكل يهدد بتحويل جزء كبير من المنطقة المسقية إلى مستنقع . كان السقي المكثف يبدو بوضوح هو السبب في هذا الارتفاع لمستوى المياه الجوفية وكان الجريان السيء لهذه المياه باديا نظرا للمانع الذي تشكله المميزات الجغرافية لهذه الأراضي هو

السبب العميق لهذا الارتفاع .

لهذا تم الإسراع خلال سنتي 1947 و 1948 بإنجاز شبكة لتصريف المياه في مجموعة المنطقة المهددة ، وقد كان ذلك فعالا لأنه كان ينبغي تثبيت الطبقة المائية في مستوى ملائم عن طريق صرف المياه الزائدة في اتجاه النهر ، كما تم اتخاذ عدة إجراءات تجريبية أخرى (44) ، رافقتها تعديلات إدارية مهمة ، ونقل المسؤولين وتغييرهم (45) .

كانت المنطقة المسقية قد ارتفعت مساحتها ب 1600 هكتار ستة 1947 وفي 1949 انتقلت من 2800 هكتار إلى 17800 هكتار مجهزة بقنوات ترابية وكانت المساحة تضم 2000 هكتار من الأراضي الجماعية المستغلة من طرف المكتب مباشرة عن طريق جمعيات تم إنشاؤها من طرف الجماعات المالكة للأراضي .

إلى ذلك ، ينبغي إضافة الاضطرابات الاجتماعية المتولدة عن الجهود المبذولة لاختيار قنوات اسمنتية لتوسيع شبكة السقي إلى جانب الأشغال الأولية التي دشنت في موقع سد بين الوردان ابتداء من 1946 ، وبناء معمل الشركة التجارية لأفريقيا الشمالية «S.C.O.M.A.N» وهي فرع مؤسسة «بونطا موسون» الذي كلف لاحقا باستغلال المعمل .

كانت هذه الأوراش المائية الكبرى المكثفة نسبيا والتي كثيرا ما صورت من طرف الاسطغرافيا الاستعمارية كأحد أكبر ملاحم تلك الفترة ، و «كمعجزة» عهد الحماية (46) ، تساعد بلا ريب على تطور كبير ومتسارع للحركة النقابية في أوساط العمال الفلاحين

وعلى تجذر الشيوعية علانية .

كان بن عمر إذن في البداية عضوا في فرع أفورار لنقابة عمال سد بين الويدان والتي كان انشغالها الأول هو النضال في سبيل حق العمال في التنظيم السياسي والنقابي وتحسين الأجور وظروف العمل ثم سيصبح أمينا عاما للاتحاد شيوعيا لنقابة عمال سد بين الويدان وأميناً عاما للاتحاد المحلي لنقابات قصبة تادلة مجتهدا في تنظيم العمال الفلاحين في هذه المناطق المعتبرة «مناطق غير آمنة» (47) .

وكانت «لاكسيون سانديكال» ، و«إسبوار» ترددان صدى الانشغالات التي تحرك البادية المغربية والمظالم الكبيرة التي يتعرض لها الفلاحون ، في التقرير الأدبي الشهير الذي قدمه إلى المؤتمر الرابع للاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب ، ركز أمينه العام برودوم أيضا على ضرورة تكثيف تجنيد المناضلين المغاربة خصوصا وسط فئات العمال الفلاحين التي مستها بالكاد حركة الانتماء النقابي . وكان يلاحظ أن «فاس وتادلة تبدوان قد أخذتا انطلاقتهما في هذا الاتجاه . . . » (48) .

كان ذلك يتم في ظروف صعبة بشكل جلي كما تبين ذلك حالة امحمد بن عمر نفسه ، وذلك حتى في تلك الفترة من الانفتاح التي جسدها عهد «إريك لابون» حيث كان العمال الفلاحيون يبدون رغم كل شيء محرومين من التسامح الذي تظهره الإقامة العامة . في الواقع ، كان النشاط النقابي يلجأ إلى عدة تقنيات وهكذا وبرأي المحجوب بن الصديق ، الذي سيصبح الكاتب

العام للاتحاد المغربي للشغل ، فإن «آلاف العمال الفلاحين أو الغابويين كانوا مدمجين بصورة شكلية في نقابات البناء» (49) ، وفي جميع الأحوال كان العمل التنظيمي للعمال الفلاحين يتقدم مقابل توضيحات كبيرة وفي ظل ظروف قاسية . . وتحفظ وثائق تلك الفترة بأثار اعتقال امحمد بن عمر ووضعه في سجن فردي ونهب المقر الصغير لفرع نقابته .

كان ثمة حوار مع جريدة «لاكسيون سانديكال» قد سجل ردة فعل امحمد بن عمر إثر ذلك ، إذ كان يرى أن الاعتقالات الجارية آنذاك كانت دون شك معادية للعمل النقابي ، فالنقابات كانت أول طرف مستهدفين بهذه العملية : «إن أقوى حجة هي أنه عند اعتقالي انتزعت 500 بطاقة وآلاف الطوابع البريدية وثلاثة دفاتر للمحاسبة ، كما تمت محاولة الضغط علينا للكشف عن لائحة العمال المنقبين ليتعرضوا في وقت لاحق لإجراءات انتقامية وتمت محاولة ترهيبنا لكن دون نتيجة ، إننا ندرك أنه ليست هناك مكاسب دون كفاح وأن كفاحنا من أجل شعبنا هو الذي يعطي لحياتنا معناها الحقيقي . ولن يوقفنا أي ضغط أو تهديد» (50) . خلال سجنه من 21 إلى 31 ماي ، استطاع امحمد بن عمر أن يوصل إلى رفاقه رسالة مكتوبة بقلم رصاص على ورق قديم للتلفيف ذي لون كاكي يروي فيها ظروف اعتقاله وحبسه ، وقد نشرت ذلك في جريدة «إسبوار» نصها الكامل (51) ، كانت الرواية تشير إلى أن امحمد بن عمر كان متوجها إلى بين

الويدان لغرض نقابي حاملا معه ترخيصا سكنيا ، إلا أنه قرر إخبار القبطان بذلك معتقدا أنه يصحح خطأ وحتى يتفادى أي احتكاك مع المسؤولين ..

وبما أن القبطان كان غائبا ، فقد ذهب امحمد بن عمر للبحث عن وسيلة نقل تقله إلى السد بعد أن أخبر المخزني بأنه قد يعود بعد يومين : «كان الوقت ليلا وفجأة ، وبينما كنت أمشي صادفت القبطان ومساعدته وهما على متن سيارة جيب ، عدت على أعقابني لأنكلم معهما ، لكن سرعان ما التقيت بأربعة مخازنية مسلحين كانوا يتبعون جريا سيارة الجيب التي كان يوجد بها القبطان ، ومساعدته ومخزني آخر مسلحان ، توقفوا بمحاذاتي وقال لي القبطان : «اصعد إلى السيارة لتذهب إلى السجن أولا! ستبقى هناك ثلاثة أشهر على الأقل! لا يسمح بالتجول بحرية في منطقة عسكرية ثم عليك أن تؤدي السلام العسكري عندما يمر أمامك ضابط للشؤون الأهلية» (52) .

«وضعوني في حبس فردي ممنوع كليا على أي كان أن يتكلم معي . معتقل ليل نهار ، وليست هناك إمكانية لأتنفس على راحتني ، في الأيام الثلاثة الأولى لم يعطوني طعاما ولا شرابا ، والآن يقدمون لي خبز شعير أسود ، حوالي 150 غراما ، دون اعتبار لمعدتي المريضة .. السجن مليء بالقمل والبرغوت والبق والفئران .. في أحد أركان الحجره توجد مجموعة من الأسرة المصنوعة من الدوم

وهي عبارة عن عث للعقارب ، في ركن آخر ، كيس شعير يجلب الجرذان والفئران ، وفي ركن آخر ، ملابس مريض بالحمى الصفراء مات في هذه الحجرة نفسها . «(53) .

وبقلم بن عمر لا تبدو الفقرة الأخيرة التي ينهي بها روايته مجرد أسلوب تعبير مكرور : «ما أريدكم أن تدركوه أيها الرفاق هو أنني ما دمت على قيد الحياة ، فلن أفقد الثقة أبدا ، فقضيتنا عادلة والشعب كله معنا» (54) .

ونتيجة للاحتجاجات التي جاءت من البيضاء وباريس ومنظمات (FSM) (الفيدرالية النقابية العالمية) ، أطلق سراح بن عمر .

بعد بضعة أيام تبين لمحمد الطاهر على أرض الواقع التعسف الجاري به العمل ، حيث سجل الرعب الذي يصعب إخفاؤه عن سكان المنطقة ، «طوال الطريق المتعرجة الصاعدة» إلى سد بين الويدان ألتقي «عمالا ودعاء يخلون الطريق أو يقفون جامدين مع تأدية السلام العسكري عند رؤية سيارة أو جيب» (55) ، محمد الطاهر وقف في نفس الوقت على شعبية بن عمر (56) ، الذي كان يبدو أنه يتمتع بنفوذ واسع في المنطقة .

ويتذكر علي يخته هذه الحالة الأخرى فقد أراد بعض العمال المتنازعين مع مشغليهم تفجير السد . وعند إطلاعه على مشروعه منعهم الحزب من ذلك : واضطر إلى إيفاد بن عمر مرفوقا بالمعطي

اليوسفي لإقناعهم بالعدول عن ذلك (57) .

نشر امحمد بن عمر خلال هذه الفترة العديد من النصوص في صحافة الحزب والنقابة . لكن من أين جاءه هذا الميل إلى الكتابة؟ أهو موهبة؟ أم واجب طبيعي لمناضل يعرف القراءة والكتابة؟ في هيات التحرير بالجرائد النقابية والشيوعية كانت تعقد اجتماعات منتظمة : (الاجتماعات كانت أسبوعية في إسبوار) ، حيث كانت توزع المواضيع والقطاعات والأبواب إلا أن نصوصا كانت تصل إلى رئيس التحرير من مختلف مناطق البلاد وعبر طرق مختلفة . كان الرفاق الفرنسيون كثيرا ما يساعدون زملاءهم المغاربة في تنقيح نصوصهم على مستوى اللغة» (58) . ويؤكد المناضلون الفرنسيون السابقون بشكل قاطع أن بن عمر كان يكتب خلال تلك الفترة مقالاته بنفسه . وسيواصل الكتابة لاحقا في الفتنام وبعد عودته ، إن انشغالاته بالعالم القروي والتي أبرزتها أنشطته ، تتأكد من خلال مواضيع نصوصه الأولى التي تحتل فيها وصف الوضعية بالبادية مكانة أساسية : «إن الفلاحين المغاربة مفلسون تماما أو يكادون ، لقد أرغموا على إعطاء البذور كضريبة . العديد منهم اضطروا إلى بيع ماشيتهم لشراء الحبوب بـ 3600 فرنك للقنطار بعد أن كانوا قد باعوها قبل ثلاثة أشهر بثمن منخفض جدا . آخرون باعوا أراضيهم بـ 1400 فرنك للهكتار» (59) ، كان يوجه أصعب الاتهام للإقامة العامة التي تنهض سياستها على إفلاس الفلاحين عوض

مدهم بيد المساعدة (60) . لقد كانت الوضعية القروية تبدو الانشغال الوحيد لابن عمر .

كان العمال الفلاحيون من وجهة نظره الفئة الأكثر حرمانا داخل الطبقة العاملة المغربية : «كيفما كان الوقت وكيفما كان الوصل ، تراهم يشتغلون ليل نهار ، معفرين وصدورهم عارية مقابل أجر زهيد ، ثلاثون فرنكا في اليوم ، فإذا كانت ثلاثون تعتبر قانونيا ، رغم الوعود الرسمية للإقامة العامة ، هي الحد الأدنى للأجر اليومي للعامل الفلاحي ، فإن هذا الأجر يمثل بالنسبة للمعمرين حدا أعلى لا يتجاوزونه قط بل بالعكس ، إن عددا مهما منهم يقلصونه بواسطة نظام الغرامات» (61) .

لماذا إذن كان يتم رفض الزيادة في أجور العمال الفلاحين؟ كان ابن عمر يلاحظ أنه كلما كانت تطرح هذه القضية إلا وكانت تبرز معارضة عامة في الأوساط الاستعمارية . كانت هذه الأخيرة تعتبر أن «أجر العامل الفلاحي قد يكون حقا مرتفعا أكثر من ذلك بفضل الامتيازات العينية . ترى ما هي هذه الامتيازات؟ أهى مثلا ذلك الكيلوغرام اليومي من القمح الذي يؤدي العمال ثمنه وقد أضيفت إليه الضريبة؟ أم هي الخضار التي تباع لهم في مكان العمل بنفس الثمن الغالي كما في السوق؟ وكذلك هو الشأن بالنسبة للقمح والبيض والدواجن» (62) ، في تلك «العدة من الحجج الاستعمارية ، نجد : حق اللقط بعد الحصاد ، النعناع بالجنان ، إمكانية

بناء كوخ دون كراء الأرض إلخ . . » (63) .

في وصفه لمسلسل هذا التدهور الشامل ، كان بن عمر يمزج بين ملاحظاته الشخصية المسجلة على الساحة والتحليل بصورة تعميمية : «في أحد أسواق نواحي الدار البيضاء اشترينا كسرة (64) ، خبز وكأس شاي بـ 60 فرنكا ، في الوقت الذي ما زال فيه العامل الفلاحي يتقاضى 30 فرنكا في اليوم (65) .

كان بن عمر غالبا ما يتوقف عند معاناة العالم القروي . وكانت عبارة ليل نهار تتكرر مثل لازمة لتبرز بصورة أفضل الامتداد الزمني لهذا البؤس القروي : «ليل نهار يشتغل العمال الفلاحيون تحت شمس محرقة ، بصدر عار ، معفرين بطبقة كثيفة من الغبار ، ليست ثمة راحة باستثناء نصف ساعة عند الزوال ليتمكنوا من أكل كسرتي خبز جافتين» (66) . لكن هذا الوصف اليومي كان يتطور أيضا ليأخذ شكل العبارات التقنية لمطالب الأجور . «إنهم يتقاضون أجرا زهيدا ما بين 30 و40 فرنكا عن كل يوم عمل . وأنا ألح على كلمة يوم عمل ، إن العامل إذا مرض أو تغيب لسبب ما يخصم له أجره اليومي . 30 إلى 40 فرنكا يوميا تكفي بالكاد لشراء الخبز وبضعة أكواب من الشاي . والعديد منهم لهم أقرباء يطعمونهم ويكسونهم ويدأونهم! ولكن من يبالي بذلك . فالعامل وعائلته يستطيعان أن يقتاتا من الطبيعة مثل الدواب . كان امحمد بن عمر يوضح بعناية كيف أن هذه الظروف تزداد تدهورا خلال فصل الشتاء (67) ، بشكل

متكرر . :«إنهم يشتغلون 14 ساعة في اليوم دون أن يتقاضوا أجر الساعات الإضافية ، العطلة المؤدى عنها غير موجودة بالنسبة لهذه الفئة من العمال ، والعطلة الأسبوعية كذلك . بهذا الحد الأقصى للأجر الذي يتقاضاه العمال الفلاحيون ، أي 40 فرنكا عليهم أن يوفروا المأكل والملبس لهم ولعائلتهم التي غالبا ما تكون كثيرة العدد» (68) .

كان العمال الفلاحيون يساهمون في ثروة البلاد بفضل تشبثهم الدائم بالأرض . «منذ طلوع الفجر تجدهم في الحقول بعضهم ينكش الأرض والبعض الآخر يسقي الأغراس المثمرة المتعددة ، وآخرون يقودون آلات (69) ، ومع ذلك كانوا يتقاضون أسوأ الأجور في «العالم» . لم تكن الإدارة تفعل شيئا لصالحهم ، على العكس من ذلك ، كانت السياسة الاستعمارية تسعى إلى تكريس هذا الإفقار . «لقد ألقى المقيم العام ، مؤخرا ، خطابا إلى المعمرين والفلاحين بثته الإذاعة ، يقول فيه إن الحكومة مستعدة لتقديم يد العون لهم عن طريق منح قروض لشراء البذور أو لإزالة الأعشاب الضارة أو للحصاد إلخ . وهو شيء جميل . لكننا الآن في شهر نونبر وينبغي لعمليات الحرث أن تنتهي في 15 دجنبر . فماذا تنتظر الحكومة لتتفضل وتأتي لمساعدة آلاف الفلاحين الذين ينتظرون بفارغ الصبر هذه المساعدة؟ لم يعط أي شيء بعد سوى الوعود تلو الوعود كما هي العادة . وإذا وقعت مجاعة في 1948 فستكون الإدارة

هي المسؤولة» (70) .

في كل مرة ، كانت تثار مسألة رفع أجور العمال الفلاحين ، كما كان يسجل بن عمر ، كانت تلاحظ معارضة عامة وقوية للنزعة الاستعمارية . يرفع عملاء كبار المعمرين أصواتا راعدة ، وتجاريهم الصحافة المخلصة لهم ، وتعدد المناورات لدى الأوساط الرسمية (71) ، هذا في الوقت الذي يغرق فيه الفقر الفلاحين المغاربة في حالة من البؤس الإنساني الأكيد . كان بن عمر الشيوخي يرى المعمرين وهم يحسنون باستمرار أرباحهم . فكانت هذه على سبيل المثال وضعية «الشركة المسيرة للسيد العربي والمراقبة من قبل سيركي» والتي ارتفعت أرباحها من 8.537.000 فرنك سنة 1945 إلى 6 ملايين و 949 فرنكا في 1946 .

أما الشركة العامة للمغرب فقد ارتفعت أرباحها من 4.409.000 فرنك سنة 1945 إلى 8.093.000 سنة 1946 ، بينما ارتفع الرصيد الموجه إلى إعادة توظيف فوائض القيمة من مليون ونصف إلى 34 مليون فرنك . أما الشركة العقارية والفلاحية للمغرب ، فارتفعت أرباحها سنة 1946 إلى 4.320.000 فرنك برأسمال قدره 10 ملايين بنسبة 43٪ (72) .

كان امحمد بن عمر يفرد مكانة خاصة في تحاليله لممارسة المعمرين : «يقبل المعمرين منح قروض مالية لعمالهم ، ولكن بفعل ظهير يرغم العامل الفلاحي الذي حصل على تسبيق مالي من

مشغله على البقاء في خدمته إلى أن يرد ديونه التي يكون مجموعها في الغالب خياليا ، وبإمكان معمر أن يذهب إلى المراقب أو إلى الشؤون الأهلية ليقول إن العامل (. . .) الذي يوجد في خدمته مدين له بمبلغ قدره (. . .) ودون حتى الاستماع إلى الشخص المتهم غالبا ما يحكم عليه بالحبس عدة شهور في المظمورة استنادا فقط إلى الكلام «المقدس للسيد المعمر» (73) ، كان بن عمر يسجل الطابع المتغير للمعمرين والمرتبط بتقلبات الأرباح : «خلال موسم الحصاد بقصة تادلة كان معمر المنطقة يجدون أنفسهم متضايقين بتهديد جدي من قبل العمال الذين كانوا جميعا يريدون مغادرة الضيعات ، ولأنهم لاحظوا الأجور من 40 إلى 60 فرنكا في اليوم ، والآن وقد جمعت كل المحاصيل ، أعيدت الأجور إلى 40 فرنكا عن كل يوم عمل» (74) .

كان بن عمر ينهي تحليلاته بالتعبير عن مطالب دقيقة نسبيا كتحديد التعويض المالي في 80 فرنكا في اليوم (75) ، «على الحكومة أن تتخذ إجراءات ملموسة عن طريق التوزيع الفوري للبذور ومنح قروض مالية مستعجلة لتسمح للفلاحين بشراء الدواب الضرورية للحدث» (76) . كان بن عمر يرى على الخصوص أن الإدارة لا يمكنها أن تستمر في التواطؤ مع المعمرين الكبار المتلهفين على الأرباح» (77) . وينبغي الاستجابة لمطالب العمال الفلاحين الذين يريدون كذلك الحصول على الحق النقابي وإقرار نظام مفتشية الشغل (78) . ومن بين

الأساليب الأخرى لوضع حد للتعسفات «يجب الاعتراف بالحق النقابي للجميع دون استثناء» (79) . وفي جميع الأحوال ، فإن العمال كانوا حسب بن عمر قد بدأوا مسبقا في تنظيم أنفسهم من أجل النضال . وكان ينادي بانخراطهم في النقابات «اتحدوا داخل النقابة لتنتزعوا حقوقكم» (80) . بيدكم أنتم «أن تنتظموا وتتحدا وتجيئوا لتعزيز صفوفنا داخل النقابات مع رفاقكم في النضال الذين لا يكونون في سبيل تكسير قيود عبوديتكم» (81) .

في مارس 1948 ، انعقد المؤتمر الخامس للاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب ، وكان التقرير الأدبي المقدم من طرف هنري برودوم يعترف بالتذبذب الذي عرفه التنظيم . لكن يلاحظ أن ذلك لم يستمر : «بإمكاننا اليوم أن نقول إن كل نقابتنا تقريبا تعرف ارتفاع عدد منخرطيها» (82) ، وكان يفصح مناضلي نقابة «فورس أو فريير» Force ouvrière الذين كانوا يقفون برأيه وراء هذا «العمل القذر لخلق الانشقاق» كما فصح دون تسميتهم أولئك الذين كانوا قد حاولوا ، في خرييكة أو مراد إمفوت أو عبر الصحافة الوطنية ، إنشاء أو التعبير عن فكرة نقابية مغربية ، «أولئك الذين يبحثون عن بث الانشقاق من خلال الاستقلالية» كان هنري برودوم يوضح : «ينبغي أن لا ننسى أن بالعمل سنحصل على مطالبنا ولن يعطى لنا شيء بسهولة» وبالنسبة للمؤتمر المقبل ، فإن هدفه المنشود هو الوصول إلى 100.000 منخرط ، وكان ينهي عرضه بالتعبير عن الوفاء والتعلق

بالاتحاد العام ، بنقابتنا العظيمة والمجيدة الكونفدرالية العامة للشغل» (83) ، وقد تمت ترجمة العرض من قبل الشيوعي امحمد بن عمر .

بعد فترة قصيرة من انعقاد مؤتمر مراكش ، في ماي من سنة 1948 ، كان بن عمر يظهر كعضو في مكتب الاتحاد المحلي للنقابة بالبيضاء . فلماذا غادر تادلة والتحق بالبيضاء؟ الشهود لا يقدمون سوى تفسيرات محتملة : تضافر الحاجيات التنظيمية وضغوط الشرطة عليه . على كل حال ، وفي ظرف وجيز نسبيا أصبحت مسؤولياته سياسية بالأساس .

ارتبط اسم بن عمر أولا بالعمل النقابي أكثر منه بالعمل السياسي . ومن وجهة النظر هاته ، فإن مساره لا يختلف كثيرا عن التدرج العادي للمناضلين الشيوعيين المغاربة . فمسارات العديد من العمال توضح هذا الارتقاء البطيء انطلاقا من الأشياء الملموسة للحياة اليومية في اتجاه الانشغالات السياسية (84) .

ويحكي علي يعة أن قيادة الحزب الشيوعي المغربي كانت قد طلبت من بن عمر أن يأتي للاستقرار في الدار البيضاء . والحقيقة أنه جاء إليها كإطار نقابي ما دام قد كان في 1948 عضوا في الاتحاد المحلي بالدار البيضاء (85) . بعد ذلك أصبحت مسؤولياته الرسمية ذات طبيعة سياسية .

وما ينبغي توضيحه هنا هو أن الدار البيضاء وناحيتها كانتا تشكلان داخل الهيكل التنظيمي للحزب الشيوعي المغربي منطقة تنظيمية تضم مدينة البيضاء نفسها والمحمدية وسمطات والجديدة وخريبكة ، وعدا ذلك كان بن عمر في البداية أمين مكتب الحزب منطقة البيضاء مكلفا بالأحرى بشؤون خريبكة (86) . وقد أشارت «إسبوار» جريدة الحزب في عددها الصادر في 12 يونيو 1948 (85) ، إلى طرده من خريبكة في أعقاب الدعم الذي كان قد ذهب لتقديمه

لنضال منجمبي المدينة : قادة نقابيون آخرون تم إبعادهم بهذه المناسبة ، خصوصا ببيير أرفي كاتب افتتاحيات جريدة «لومانيتي» (الإنسانية) وعضو الجمعية الوطنية الفرنسية ، وكذا عبد السلام بورقية الذي كان بدوره أمين الحزب بمنطقة البيضاء .

يتذكر علي يعبته الذي كان مرغما آنذاك على السرية ، أنه قضى مع بن عمر يومين أو ثلاثة في مكان منعزل : وقد سجل لديه حسا قويا للنكته وطبعا متفائلا واحتقارا للمشاكل اليومية (88) . إبراهيم السرفاتي هو الآخر عرفه شخصا خلال هذه الفترة عند عودته من فرنسا في يوليوز 1949 وكان هو نفسه معروفا داخل الحزب الشيوعي المغربي كإطار سابق في الشبيبة الشيوعية المغربية (من 1944 إلى 1945) ومن خلال نضاله الحزبي في فرنسا (1945-1949) ، وسرعان ما كلف السرفاتي بالاتصال المباشر بعلي يعبته ، الذي كان في السرية منذ 1948 ، مع مشاركته في الأنشطة النضالية للحزب الشيوعي المغربي بمنطقة البيضاء (89) . كان بن عمر آنذاك أمينا مكلفا بتنظيم مكتب هذه الجهة إلى جانب أمينها العام إدريس العلوي الذي انتخب في المكتب السياسي للحزب في مؤتمره الثاني سنة 1948 : وكان إدريس العلوي قائدا ديناميكيا للغاية وإطارا ذا قدرات عالية ومستقبل واعد .

رغم نشاطه وتحمسه الكبير ، كان بن عمر يبدو قليل الظهور في الأنشطة الرسمية الكبرى للحزب خلال هذا النصف الثاني من

سنة 1948 ، لم يكن دوره يبدو ذا أهمية كبيرة . كان يظهر على مستوى الأنشطة التي يمكن وصفها بالثانوية رغم أنها كانت حاسمة . مع ذلك تبرز مسألة ثابتة : كان بن عمر يكتب نسبيا بانتظام : كانت كتابته تبدو كأنها تعكس حياة الحزب ومختلف انشغالات الساعة . وهكذا كان يكتب للمطالبة بإطلاق سراح رفاقه (محمد بن مبارك من تادلة ، ودي مارتينو من البيضاء والمعتقلين بأسفي والمتابعين أمام المحاكم بتهمة توزيع منشورات : «إن عهد فيشي ليس بعيدا ، فاليوم مثل البارحة يعتقل ويسجن عدد كبير من الشرفاء لأنهم شيوعيون . . في أسفي عدد كبير من رفاقنا المناضلين المخلصين لحزبهم ، مرميون في السجن لأنهم يرفضون أن يتنازلوا عن ولائهم مقابل مال يدفعه مأمورو إدارة رجعية . وهذه ظاهرة لا تعرفها أسفي وحدها بل جميع أنحاء المغرب حيث يدافع الشيوعيون في كل مكان ودون توقف عن المطالبات المشروعة للعمال والفلاحين والخماسة (90) ، وعن التطلعات الوطنية لبلادنا (91) . في مكان آخر ، كان بن عمر يكتب محذرا للمطالبة بالإفراج عن رفيقه عباس بن محمد المرمي في السجن لأنه شيوعي :

«يجب إطلاق سراحه فورا حتى تتمكن عائلته من حصاد حقها . . . وإلى ذلك ، فإن المصلحة الخاصة لهذه العائلة ليست وحدها المهددة لأن مثل هذه التعسفات والمضايقات التي تزداد في حق الفلاحين خلال موسم الحصاد من شأنها أن تؤثر على نجاح

المحصل من أجل المصلحة العامة ، ينبغي أن يتوقف ذلك (92) .
 إنها نصوص ذات حساسية شخصية ولكن هناك أيضا
 كتابات لغتها خشبية ، أو رسائل رسمية للمنظمة : في يوليو
 1948 وقع بن عمر باسم المكتب الجهوي للحزب الشيوعي المغربي إلى
 جانب «كاسطون دلماس» احتجاجا على الاعتقال التعسفي لاثنين
 من رفاقهم «الفلاحين» المسجونين لأنهم شيوعيون (93) . وكذا
 احتجاجات رسمية كتلك التي وقعها علانية وبصورة مشتركة
 امحمد بن عمر و«كاسطون دلماس» باسم مكتب ناحية البيضاء «ضد
 تفتيش المكتب الرئيسي للحزب» و«للمطالبة بإلغاء متابعات قضائية
 ضد كاتب الحزب وإطلاق سراح المديوري» ومقالات قصيرة حول
 التسيير اليومي كتلك المقالة التي التمس فيها بن عمر مساندة
 «القراء الوطنيين والديمقراطيين» لمواجهة ارتفاع تكاليف طبع جريدة
 إسبوار (94) .

ولكن ثمة كذلك كتابات مشبعة باستمرار وبقوة بهذه
 «النزعة الديمقراطية» التي حددها مؤرخو الحزب الشيوعي المغربي
 كعنصر أساسي في منهجه والتي تظهر واضحة بما فيه الكفاية
 لإثبات أن الكفاح السياسي والنقابي للشيوعيين المغاربة لتلك
 المرحلة لم يكن يرحب به من قبل جهاز الوطنيين المغاربة . فالنضال
 الشيوعي كان يظهر أنه يصطدم في الوقت ذاته بمعادة الإقامة العامة
 ومعادة الوطنيين .

لم تكن كتابات بن عمر تكشف فقط بشكل ملموس عن صورة مناضل يدافع عن الحريات ، وينتفض ضد الظلم الاستعماري ، بل كانت تزيج النقاب عن مقاربة أكثر حساسية لانشغالاته البدوية الأولى . ففي يونيو 1948 نشر بن عمر مقالا في «إسبوار» عن العمل في قطاع زراعة المستنقعات : «كانت زراعة المستنقعات ذات مردودية كبيرة ومع ذلك كانت وضعية الفئات الأخرى من العمال الفلاحين .

هكذا يتقاضى العمال في نواحي الدار البيضاء التي توجد بها مساحات واسعة جدا لزراعة المستنقعات أجرا يوميا يتراوح ما بين 70 و90 فرنكا . وللتمويه على هذه الأجور الزهيدة ، لا يمكن حتى الدفع بحجة «الامتيازات» العينية الشهيرة ، ما دام عمال مزارع المستنقعات لا يستفيدون منها في أغلب الأوقات .

النساء من جهتهن ، لا يحصلن سوى على أربعين فرنكا يوميا ، وهن عاملات كثيرات في زراعة المستنقعات . أما الأطفال ، الذين لا يقع التردد في تشغيلهم رغم سنهم فتؤدى لهم مئة فرنك في الأسبوع .

إنه أجرة مجاعة ، فالجميع يعلم أنه لا يمكن العيش ب 80 فرنكا في اليوم ما دام ثمن كسرة خبز بسيطة هو 25 فرنكا على الأقل . لكنها أيضا ظروف عمل صعبة جدا .

يبدأ نهار العامل المغربي ابتداء من الساعة الخامسة صباحا

لينتهي في الثامنة عند حلول الليل ، مع توقف عن العمل لمدة ساعة تقريبا في الزوال لتناول الغداء ، ينضاف إلى ذلك نظام الغرامات الذي يتوج هؤلاء الرجال المرهقين مسبقا بالأجور الزهيدة . ولا ينسى بن عمر أن يستنتج خلاصات تطبيقية وعملية : «إن العاملين في زراعة المستنقعات يريدون وضع حد لهذه الوضعية . إنهم عازمون على النضال من أجل مساواة أجورهم مع أجور عمال قطاع البناء ومن أجل إلغاء نظام الغرامات واحترام مواقيت منتظمة للعمل والاعتراف بالحق النقابي» . وبطبيعة الحال ، فإن حزب بن عمر الذي لم يتوقف أبدا عن التنديد بقوة بالمصير البئيس للعمال الفلاحيين يقدم لهم دعمه الكامل (95) .

إنها صحافة مناضلة ، أو نضال يعبر عن نفسه من خلال أخبار صحفية . ويلاحظ لدى الكاتب انشغاله بما هو ملموس ، وقربه من القضايا القروية بالمقارنة مع النصوص الأولى ، كان امحمد بن عمر يبدو متمكنا أكثر من التحليل فيما يتعلق بنوعية العمل أو بإعادة إنتاج قوى العمل أو بفائض القيمة .. إلخ ..

وإذا كان يكتب ويقوم على الخصوص بتحمل مسؤولية أنشطة تنظيمية ومتابعة قضايا جهته - وهي المهام اليومية لمسؤول جهوي - فإنه كان يظهر أكثر فأكثر كأحد الوجوه الشيوعية الرئيسية بمنطقة الدار البيضاء وكان يبدو أنه يظهر نسبيا خلال الأنشطة الرسمية للحزب في مجموع الأنشطة المركزية لهذا الأخير ، لم يكن

دوره مهما بحيث لا نغثر له على أثر حسب تقارير الاجتماعات الكبرى للحزب ، كما هو الحال ، بشكل غريب ، خلال الندوة الجهوية للدار البيضاء في 11 و12 دجنبر 1948 (96) ، أو خلال اجتماع هيئات أخرى كاجتماع اللجنة المركزية في 21 و22 غشت 1948 (97) ، أو في نونبر 1948 (98) ، وكذا في الندوة الجهوية القانونية بهدف تنظيم المؤتمر الثاني للحزب (99) . ما من شك أنه نظرا لكونه أحد ركائز التنظيم المادي لهذه الندوات ، فإنه لم يكن يملك الوقت ليظهر من خلال إلقاء كلمة متميزة أو كتابة نص متميز .

في 30 أبريل 1949 ، ذكرت «إسبوار» اسم محمد بن عمر بين أعضاء اللجنة المركزية الجديدة المنتخبة في 1949 إلى جانب جرمان عياش ، بن مهدي محمد ، بن محمد عبد الله ، وكاسطون دلماس . . . (100) .

وتبرز أخبار الأحزاب السياسية المغربية خلال هذه الفترة الحاسمة من الحماية ، في وقت كان يشتد فيه الكفاح الوطني ، على الخصوص العلاقات النزاعية بين الشيوعيين والوطنيين المنتمين لحزب الاستقلال ، وهكذا كان الشيوعيون يساندون دون تحفظ إضرابات 1948 .

كان بن عمر يبدو في قلب الأحداث متجنذا باستمرار : «كل التقدميين الديمقراطيين» كانوا مدعويين من طرف الحزب الشيوعي «إلى تكثيف جهودهم» (101) . وعليه ، كان حزبه يقترح على كل من

حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال اتخاذ مبادرة مشتركة .
 حزب الشورى والاستقلال رد بالإيجاب (102) ، بينما انفرد
 حزب الاستقلال بموقف متحفظ إلى أبعد الحدود ، فالتغيير في نظره
 كان ينبغي التعبير عنه من فوق أي من قبل الخاصة (النخبة) وليس
 من قبل العامة (الجماهير الشعبية العاملة أو غير العاملة) التي كان
 ينتقدها . وقد هاجم الشيوعيون بقوة هذا الموقف وبسرعة انتبه
 الاستقلاليون إلى الضرر الذي جنوه على أنفسهم باتخاذهم لهذا
 الموقف داخل الحركة العمالية المغربية (103) . مع ذلك ، كانت هناك
 نقط تقارب واحتمالات تحالف قد بدأت في الظهور ، وقد أدت
 المطالبة بالاستقلال التي رفعها الشيوعيون بدورهم في غشت 1946 ،
 واليد الممدودة إثر ذلك ، إلى الحركة الوطنية ، والتحول التي تمت
 داخل الاتحاد العام للنقابات المتحدة المنضوية تحت لوائه إلى الاندماج
 في الاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب . صحيح أن موقف الحزب
 من المركزية النقابية عرف بعض التقلبات . تمت مؤاخذه بالأخص
 على مراقبته من قبل أشخاص غير مسلمين من يهود أو مسيحيين .
 وقد هاجمت إلى ذلك «لاكسيون سانديكال» «لوبيون دي بوبول»
 جريدة حزب الاستقلال ، مؤاخذه إياها على القيام بمساعدة غير
 مقصودة للجهاز الاستعماري وعلى تجاهل مقصود للمواقف الوطنية
 والوحدوية للاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب (104) .
 وكان قد تم التساؤل حول ما إذا كان حزب الاستقلال قد تأثر

أم لا بالمواجهة التي عرفتها تونس على الصعيد النقابي داخل الاتحاد العام للعمال التونسيين بين التوجه الوطني والتوجه الشيوعي (105) . كان يبدو واضحا أن حزب الاستقلال لم يكن بإمكانه الاستمرار في ترك الحزب الشيوعي يمارس هيمنة داخل منظمة بمثل هذا الوزن . فقد جعلت إضرابات 1948 حزب الاستقلال يحس بأن الحركة النقابية كانت تفلت من يده ، فطلب من منخرطيه الالتحاق جملة بالاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب ، وشرع قاداته في اتصالات مع الشيوعيين انطلاقا من 1948 بغاية تنسيق عملهم على الصعيد النقابي . لهذا ورغم اختفائها وراء مظهر موقف متحفظ ، فإن مصلحة ثابتة حلت محل النقد اللاذع سابقا . حزب الاستقلال بدا وكأنه يهيء لانفتاح على الشيوعيين . وكان بإمكان «إسبوار» إذن أن تستنتج من ذلك أنه «بفضل التفسيرات المتأنية لحزبنا أعطت الحملات ضد الاتحاد السوفياتي ثمارها واضطرت للتوقف ، لم يعد أحدا يتجراً في الوقت الحالي على الافتراء على حزبنا كما كانوا يفعلون في السابق» (106) ، بل حصل تقارب بين ممارسات وبرامج الطرفين ، إذ يمكن القول أن مواقف الشيوعيين تقدمت كثيرا بخصوص القضية الوطنية بينما تقدمت مواقف الوطنيين بشكل محسوس فيما يتعلق بالقضية الاجتماعية .

مع ذلك ، كان التعبير يتواصل عن الخلافات بين القوتين السياسيتين حول العديد من النقاط . وهكذا كان الحزب الشيوعي

أم لا بالمواجهة التي عرفتھا تونس على الصعيد النقابي داخل الاتحاد العام للعمال التونسيين بين التوجه الوطني والتوجه الشيوعي (105) . كان يبدو واضحا أن حزب الاستقلال لم يكن بإمكانه الاستمرار في ترك الحزب الشيوعي يمارس هيمنة داخل منظمة بمثل هذا الوزن . فقد جعلت إضرابات 1948 حزب الاستقلال يحس بأن الحركة النقابية كانت تفلت من يده ، فطلب من منخرطيه الالتحاق جملة بالاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب ، وشرع قادته في اتصالات مع الشيوعيين انطلاقا من 1948 بغاية تنسيق عملهم على الصعيد النقابي . لهذا ورغم اختفائها وراء مظهر موقف متحفظ ، فإن مصلحة ثابتة حلت محل النقد اللاذع سابقا . حزب الاستقلال بدا وكأنه يهيء لانفتاح على الشيوعيين . وكان بإمكان «إسبوار» إذن أن تستنتج من ذلك أنه «بفضل التفسيرات المتأنية لحزبنا أعطت الحملات ضد الاتحاد السوفياتي ثمارها واضطرت للتوقف ، لم يعد أحدا يتجراً في الوقت الحالي على الافتراء على حزبنا كما كانوا يفعلون في السابق» (106) ، بل حصل تقارب بين ممارسات وبرامج الطرفين ، إذ يمكن القول أن مواقف الشيوعيين تقدمت كثيرا بخصوص القضية الوطنية بينما تقدمت مواقف الوطنيين بشكل محسوس فيما يتعلق بالقضية الاجتماعية .

مع ذلك ، كان التعبير يتواصل عن الخلافات بين القوتين السياسيتين حول العديد من النقط . وهكذا كان الحزب الشيوعي

يعبر عن رفضه لانضمام المغرب إلى الحلف الأطلسي وللموقف الغامض لحزب الاستقلال بهذا الخصوص . وكانت الخلافات تبدو مع ذلك وكأنها تخف منذ المرحلة السابقة ل 1949 . كان الحزبان ينزعان إلى تعاون عملي ويومي . وكانت وحدة العمل في جدول الأعمال داخل الاتحاد العام لل نقابات المتحدة للمغرب أكثر من أي وقت مضى . وقد تأكدت عمليا على المستوى المحلي بصورة أكثر مقارنة مع المستوى الوطني . اللقاءات بين كبار المسؤولين كانت تصاحبها اتصالات بين مناضلي القواعد المتبادلة . كان الشيوعيون يفضلون الاتصالات والحوار مع قواعد حزب الاستقلال . لكن رغم مضاعفة المبادرات الأكثر تنوعا منذ 1949 ، فإن الجبهة الوطنية التي كان يأمل فيها الحزب الشيوعي لم تتحقق .

وسط هذا المد من الأحداث ، كان امحمد بن عمر قد قدم إدانته ومنذ مدة طويلة للاستعمار . كان يشارك في أهم الأنشطة التي كان يقوم بها الحزب في هذا الاتجاه . كان العضو الوحيد في اللجنة المركزية الذي شارك في وفد الحزب المكون من إدريس العلوي ، هنري بوني ، عمران المالح ، والذي التقى في نهاية شهر ماي وبداية يونيو 1949 بحزب الاستقلال ممثلا ب «سي أحمد بلافريج» الأمين العام والمهدي بن بركة وعبد الجليل القباج وعبد الكريم بنجلون ، في أعقاب هذا اللقاء تأسفت افتتاحية إدمون عمران المالح لرفض حزب الاستقلال اقتراحات شيوعية للقيام بأعمال مشتركة مسجلا أن

الحزب الوطني كان مثقفا إلى حد كبير مع تحليل الحزب الشيوعي بشأن خطورة الوضعية السياسية (107) .

كان من الواضح أن حزب الاستقلال لم يكن يرغب في تعاون وثيق أكثر من اللازم مع الحزب الشيوعي ، معتبرا أن ذلك كان يهدد بفقدانه للدعم الخارجي وخاصة دعم الولايات المتحدة الأمريكية ، لهذا اجتهد ليقصر تعاونه معه على القطاع النقابي وحده . كان حزب الاستقلال يعي أكثر من أي كان أن الشيوعيين يسيطرون على النقابة ، وفي الوقت ذاته كان منشغلا بتوسيع قاعدته والنجاح في إقامة جسر اتصال مع الحركة العمالية لكن مع الوقوف عند هذا الحد فقط .

في يونيو ويوليوز 1949 ، أصبحت لمحمد بن عمر انشغالات مرتبطة بالمدينة أكثر : كان يترك القضايا القروية مؤقتا للتشهير عبر «إسوار» بفضيحة حرية أئمة الكراء في الأحياء الشعبية (108) .

فتحت عنوان «1500 فرنك ثمن سجن في حي للقصدير» كان بن عمر يكتب : إن الظهير الأخير حول الزيادة في أئمة الكراء لا يطبق مبدئيا في الأحياء الأوروبية فقط ولكن له انعكاسات كبيرة على المدن القديمة وأحياء القصدير .

نص هذا الظهير يبعث على الاعتقاد فعلا بأن أئمة الكراء في المدن القديمة لن تعرف ارتفاعا وننسى أن هناك حرية تامة في تحديد الأئمة في هذه الأحياء وأنه كلما تم إقرار زيادة رسمية

بالنسبة للأحياء الأوروبية إلا وطبقت أوتوماتيكيا في المدن القديمة وأحياء القصدير . كمثال على ذلك حالة هذا العامل في مؤسسة كارنو : «أنا أقطن منذ سنتين في درب الطلبة بالدار البيضاء رقم المنزل 30 كنت أؤدي في بداية السنة الماضية 350 فرنكا في الشهر ثمننا لكراء شقة واحدة وقد ارتفع هذا الثمن مرتين خلال هذه السنة ، بحيث بلغ خلال المرة الأخيرة 1200 فرنك شهريا ، وليس هذا فحسب فم منذ أسبوع ، أبلغني المالك بزيادة جديدة قد ترفع ثمن الكراء إلى 1500 فرنك في الشهر وأوضح لي أنه في حال عدم قبولي فإنه قد يطردي فكما تعرفون ، العدالة في هذا البلد موجودة لخدمة أصحاب النفوذ .

يكفي أن يلوح المالك ببضع أوراق من صنف ألف فرنك ليطرد المكتري من منزله هذه هي العواقب التي غالبا ما تخلفها حرية أئمة الكراء في المدن العتيقة .

نكتفي بهذا المثال من بين أمثلة عديدة لنبين أنه عكس ما يوحي به الظهير ، فإن أئمة الكراء المغربية تعرف ارتفاعا كبيرا . المالكون يستندون إلى حرية أئمة الكراء ليفرضوا على المكترين أئمتهم كما يحلو لهم ومن الواجب على السلطات البلدية وسلطات الإقامة العامة أن تضع حدا لهذه المهزلة . إن النضال ضد ارتفاع أئمة الكراء واجب على كل عامل (109) .

في شتبر 1949 ، وخلال عملية مهمة للدعاية والتحفيز قادها الحزب في الوسط القروي بناحية برشيد ، عاد امحمد بن عمر إلى انشغالاته القروية . في أعقاب هذه العملية ، اعتقل هو وإدريس العلوي بمكتب المراقب المدني ببرشيد إلى حيث كانا قد توجهها للاحتجاج على اعتقال فلاحين أعضاء في الحزب أو متعاطفين معه (110) ، وقد نقلت «إسبوار» خبر الحكم على مناضلي الحزب الهاشمي محمد وأحمد بن الطاهر وأحمد بن الطيبي بثلاثة أشهر سجنا وعلى من كان معهم بشهر واحد . وقد تمت محاكمة الفلاحين في جلسات مغلقة ودون دفاع .

وتشير تقارير هذه الفترة إلى أن بن عمر كان مصابا بسل خطير وكان مجبرا على متابعة علاج منتظم نتيجة عملية استرواح صدرى .

صادفت المحاكمة يوم السوق في برشيد . وكان الحزب قد قام نتيجة ذلك بتعبئة واسعة لمناضليه وبعملية تحفيز في الوسط القروي . وهو ما ترتب عنه طوال هذه المحاكمة مظاهرة كبيرة لفلاحي المنطقة . في الساحة الرئيسية لمدينة برشيد :

كانت التعبئة في ذروتها وقد احتج الحزب لدى الإقامة العامة والحكومة الفرنسية . كما أن لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان بقيادة بوفيو نائب الرئيس الفيدرالي لعصبة حقوق الإنسان «احتجت بشدة» حسب لغة بيانها . ومن مختلف أنحاء المدينة جاءت وفود

تطالب امحمد بن عمر رغم حالته الصحية المتدهورة وإدريس العلوي سلطات برشيد بالاستفادة من وضعية المعتقلين السياسيين ودخلا في إضراب عن الطعام وفي أعقاب حركة المقاومة هاته أفرجوا عن 10 إلى 16 فلاحا معتقلا .

كان امحمد بن عمر يبدو آنذاك مناضلا متمرسا ، في كامل نضجه ، نشيطا وعنصرا محوريا في مختلف مساعي الحزب الشيوعي بمنطقة الدار البيضاء التي كانت مركز توزيع حقيقيا للنشاط الشيوعي . هذه الصورة تؤكدها ذكريات إبراهيم السرفاتي التي يحتفظ بها اليوم من لقاءه مع بن عمر عند عودته من فترة دراسة بفرنسا في النصف الثاني من سنة 1949 ، حيث ترك لديه انطبعا جيدا ، ورغم أنه لم يظهر له في مستوى مناضلين مثل إدريس العلوي ، فقد كان يبدو له رجلا جديا ، مخلصا ، نشيطا وفي ذات الوقت متواضعا وله علاقات إنسانية جيدة .

في هذه الفترة كان بن عمر قد تجاوز كثيرا العقد الثالث من عمره .

منذ آخر لقاء بينهما كان علي يعتة قد فقد كل اتصال مع بن عمر لمدة سنة . اللقاء الجديد الذي جمعه به تم في 1949 بالرباط . كان امحمد بن عمر قد أصبح مسؤولا حزبيا دائما بهذه المدينة . انتقله إلى الرباط لا يمكن أن يفهم كمجرد تعيين جديد . فقد كان شيوعيون فرنسيون معارضون لشعار الاستقلال الوطني يشكلون التوجه الغالب في هذه المدينة ، فأرسل إليها بن عمر لتعزيز صفوف المناضلين الشيوعيين ، المغاربة وغيرهم ، المدافعين عن مغرب مستقل . كانت مهمته تتمثل نوعا ما في المساهمة في مهمة مغربة المنظمة في العاصمة (112) . هكذا يبدو الباعث على ذهاب بن عمر إلى الرباط باعثا سياسيا بالدرجة الأولى .

كان الحزب الشيوعي المغربي وإلى غاية 1948 ، يبدي تفاؤلا كبيرا بخصوص قدراته على التجذر وتوسيع نفوذه وصواب خطه السياسي ، إلا أن اعترافا بالفشل بدأ يحل محل النزعة الانتصارية لفترة 1946-1948 ولم تعد حرب العمال تغذي نفسه بأية أوهام حول تطلعاته ، إلى أن يصبح أول الأحزاب المغربية وأكثرها وطنية . في هذا الإطار سيجري تقديم تقارير للنقد الذاتي خلال الاجتماعات الثلاثة للجنة المركزية المنعقدة في 1948 ، على أن وثائق هذه المرحلة تبين أن المنظمة الشيوعية لم تكن تنظر إلى مشاكلها إلا من الزاوية التنظيمية وحدها . وفي 1948 شرع الحزب في إعادة دراسة وضعيته

وأفاه من زاوية مختلفة ليتبين له عدم أخذه الكافي بعين الاعتبار للخصوصيات الوطنية وللوسط الذي كان يمارس فيه نشاطه . فاجتهد للحد من أهمية الأطر الأوروبيين دون إبعادهم نهائيا ، وذلك دون شك نتيجة المبادئ المعادية للعنصرية المتفشية في صفوفه . ولكن أيضا لأن عملية تغيير الأعضاء كانت تتم في ظروف مرضية نسبيا .

ومن تبقى من الأوروبيين كان يتراجع إلى الورا أو يحتل مناصب ثانوية وقد تكرر هذا المسلسل ، في دورة فبراير 1950 للجنة المركزية التي تم خلالها ترخيص الحزب لهنري لافارج ليتخلى عن مهامه كأمين للحزب بما مكنه من التفرغ وبشكل تام للمهام النقابية . أما «مازيلا» فقد أسندت له أمانة المال ، وأصبح «ج» ، دلماس» أمينا مكلفا بتنظيم الحزب . قبل ذلك ، وخلال الندوة القانونية بالدار البيضاء سنة 1949 كان ج . دلماس قد سبق واقترح على الحزب الانكباب على توجهه السابق والقيام بإعادة نظر جدية في سياسته الوطنية ، إلا أن المناضلين البيضاويين أدانوا التوجه الإصلاحى لنشاط هذه الجهة (113) . وقد دعت الندوة الرفاق الأوروبيين إلى القيام باستئصال «مخلفات» الاستعمار والنزعة الأبوية . هذه المخلفات قد تكون في نظرها عائقا أمام تطور الحزب في المنطقة . لهذا وضع الشيوعيون في مقدمة عملهم «الصراع الايديولوجي من أجل معرفة وتطبيق الاتجاه السياسى الصحيح ذى البعد الوطنى للحزب» (114) .

على الصعيد الدولي ، التزم الحزب بعدم الاكتفاء بالتنديد بالامبريالية الأمريكية ولكنه هاجم كذلك النظام الاستعماري . وعلى الصعيد النقابي ، تم التأكيد على حاجة الحركة العمالية إلى أن تربط أكثر فأكثر الصراعات المطلوبة بالكفاح الوطني ضد التوجهات الإصلاحية ، الاقتصادية والاستعمارية . كما أن الحزب عبر عن رفضه للسياسة الانتخابية والنزعة الديمقراطية ، وامتنع عن استخدام انتخابات مجلس الحكومة كوسيلة للعمل السياسي .

أصبح الحزب الشيوعي أكثر عزما وراдикаلية ، ووظف نشاطا كبيرا في إعادة اتهامه لنظام الحماية ، أعطى الأفضلية لانخراطات المغاربة في الحزب دون أن ينزع مع ذلك ، إلى أن يصبح حزبا جماهيريا كبيرا ، إلا أن إضعافه داخليا عن طريق الاعتقالات الكثيرة داخل صفوفه وعن طريق الصراع مع حزب الاستقلال داخل الاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب (115) ، جعل قدرات الحزب على المبادرة وإمكانياته لتوسيع تواجده محدودة بشكل جدي .

إن سياق تصحيح الخط الحزبي يلقي الضوء بصورة أفضل على ذهاب امحمد بن عمر إلى الرباط . كان الأمر يتعلق في النزاعات الدائرة في الرباط بين الشيوعيين المغاربة المؤيدين للاستقلال وعدد كبير من الأوروبيين بتعزيز التيار الأول . لكنه قد يكون أيضا تعرض لضغوط الشرطة مرغمة إياه على تغيير مكان نشاطه ، لهذا وجد ملجأ لدى لوسيت لوبي التي كان منزلها هو المقر المحلي للحزب في العاصمة الإدارية للبلاد ، الموجود في قلب المدينة

العصرية رقم 38 ، شارع الجمهورية وهو شارع علال بن عبد الله حاليا ، وقد استقر فيه إلى غاية ذهابه إلى الفيتنام .

هنا يبرز أمر ثانوي ربما يكون قليل الأهمية ، وهو أن بن عمر غالبا ما يحصل غالب الظن على مساعدة مادية متواضعة دون أن يتلقى تعويضا منتظما . إذ يحدث فعلا في الكثير من الأحيان أن يكون هناك مداوم حزبي دون أن يتم مع ذلك منحه تعويضا منتظما . تبدو هذه الفترة بالنسبة لابن عمر فترة تنقلات مستمرة وتقلبات ومهام مستعجلة ، ولكنها فترة تحولات على أكثر من صعيد . مع ذلك ، وبالنظر إلى مساره الشخصي العام ، فإن هذه الفترة لم تكن سوى فترة انتقالية .

في منتصف نونبر 1949 قدم إبراهيم السرفاتي ، الذي ذهب للعمل في ورش الأبحاث المعدنية بالأطلس ، استقالته لأنه كان يحس بالعزلة هناك . وباتفاق مع قيادة الحزب ، نجح في الالتحاق مجددا بالعمل الحزبي في الدار البيضاء في نهاية فبراير 1950 وكلف آنذاك بتحمل المسؤولية السابقة لمحمد بن عمر في المكتب الجهوي للحزب الشيوعي المغربي بالدر البيضاء .

عبد الله العياشي أحد الزعماء الحاليين للحزب الذي يعتبر امتدادا للحزب الشيوعي المغربي وهو حزب التقدم والاشتراكية ، تعرف فعلا على بن عمر في 1949 بالرباط ، حيث كان يشتغل معلما في مدرسة جسوس الحرة ، وكان قد اتصل به قبل أن يصبح عضوا في الحزب الشيوعي المغربي ، كان العياشي في السابق مناضلا في

صفوف حزب الاستقلال ويسير إحدى خلاياه واضطر إلى الانسحاب منه نتيجة خلافات عديدة ثم طرد بعد ذلك من مدرسة بلافريج .

كان بن عمر أول مناضل شيوعي مسؤول يتعرف عليه ، حيث يمثل اللجنة المركزية بمنطقة الرباط ويعيش في ظروف صعبة سواء على المستوى الأمني أو على مستوى موارد العيش فبدأ يتردد عليه في إطار خلية كان قد ساهم في إنشائها .

«ذات مساء طلبت منه الحصول على بطاقة الحزب . ولم يكن على ما يبدو ينتظر مني أن أقوم بهذا المسعى . وكنا نلتقي كثيرا في هذا المنزل الذي يسكنه ، لم يثر هذه المسألة خلال مدة طويلة . ثم قبيل ذهابه إلى الفيتنام أعطاني البطاقة وعينت في خلية تنظيمية بالمدينة ، وقع ذلك ربما في أكتوبر 1950 » .

يتذكر عبد الله العياشي الدور النشط الذي لعبه مع بن عمر مهندس زراعي من المارتينيك ، جاء إلى الرباط للقيام بتجارب على الشمندر السكري .

وكان يقدم لنا عروضاً كمدخل إلى الماركسية ، كما كانت هناك إسهامات بيداغوجية ونظرية لجرمان عياش وعبد العزيز بلال (115) .

أمام هذه الشخصيات وشخصيات أخرى أيضا ، كان امحمد بن عمر بعيدا كل البعد عن الظهور بمظهر تافه ، فالعياشي يصفه كشخصية جادة ، لامعة وذكية . لم يكن بالتأكيد رجلا ذا ثقافة

جامعية ، ولم يكن من طراز المثقف الذي يهيء بناء نظريا مجردا أو حتى من النوع الذي يقوم بتحليل على مستوى المفاهيم . كانت ثقافته تبدو بالأحرى عملية تم اكتسابها من الساحة . كان ذا تعليم ثانوي متين وعصامي إلى حد ما ، كان يستعمل تعليمه في نشاطه السياسي ، ويتذكر العياشي أنه عندما تعرف عليه أسر لأصدقائه الحميمين : «تعرفت مؤخرا على شيوعي من ذلك النوع المثالي للعامل المثقف» . لغته العربية كانت جيدة وفرنسيته كانت أجود . كان على اطلاع بما تعلمه المدرسة الأهلية الفرنسية-المغربية في تلك الفترة . لم يكن ثثارا لكنه كان يعرف كيف يعرض مشكلا سياسيا . كان من ذلك الطراز من المناضلين الذين ولدوا زعماء . وفي نفس الوقت ، لم يكن من النوع الذي يجعل مناضلي القاعدة يقومون بهام الإطار المسؤول كما يشير العياشي إلى هدوئه الكبير «كثيرا ما كنت أستشيط غضبا فأسمعه وهو يقول لي برصانة : يا السي عبد الله اهدأ! كان صبورا ، دؤوبا وأخويا وكانت له في اعتقادي خصال إنسان ذي قلب كبير» شارك العياشي مع بن عمر في العديد من الأنشطة الدعائية في إطار الكفاح من أجل الاستقلال فكثيرا ما كانا يخرجان معا بالليل لكتابة أوامر حزبية أو شعارات على الحيطان ولتوزيع المناشير لقد رأيت-يقول العياشي- إلى أي حد كان واثقا من نفسه وشجاعا ، بعد اعتقال علي يعنة في 1949-1950 لم يكن العياشي بعد عضوا في الحزب . كان تحت المراقبة . حدث ذلك في أواخر شهر رمضان حيث أخبره بن عمر بعملية وشيكة كان مشاركا

فيها . ثم جاء يبحث عنه ذات ليلة . في البداية توجهها إلى بورصة العمل ، حيث تم طبع بيان المكتب السياسي للحزب حول اعتقال علي يعتة . توجه ابن عمر ليلا رفقة أحد الشيوعيين الفرنسيين وأحد عمال السكك الحديدية اسمه فرنان ، إلى مدينة فاس ، حيث تم توزيع المنشور ثم عادوا وهم يوزعون البيان متوقفين عند كل التجمعات السكانية الموجودة في طريقهم كمكناس ، الخميسات ، تيفلت . . «أذكر أننا زرنا في تيفلت بن حمو وهو أحد مسؤولي حزب الاستقلال . كنت أظن أننا كشيوعيين لم نكن نستطيع أن نخاطب شخصا من حزب الاستقلال لكن بن عمر لم يكثر لذلك . وأصر على أن يسلمه المناشير وقد وزعها بن حمو ، مررنا بالعديد من القرى بالليل لم يكن بها أحد ما زال إلى اليوم يتردد في أذني نباح الكلاب طوال الطريق إلى حين وصولنا إلى مدينة سلا . وقد تكررت مثل هذه العمليات عدة مرات .

التقى العياشي مجددا بابن عمر بضعة أيام قبل سفر هذا الأخير إلى آسيا . كان بن عمر قد أخبره بأن الهدف من وراء مهمته في الفتنام هو تأطير المغاربة الفارين من الجيش الاستعماري الفرنسي ، وإنشاء فرقة عسكرية مغربية مقاتلة لكنه لم يكن يعرف الدور الحقيقي الذي كان ينتظره في الفيتنام والذي يبدو بلا جدال اليوم دورا كبيرا .

في الحقيقة ظلت المهمة سرية ، فالعديد من الأطر سيعرفون بشكل مفاجئ التجربة الفتنامية لابن عمر سنوات عديدة بعد عودته

بل مدة طويلة عقب وفاته . بعض القادة الكبار فقط هم الذين كانوا على علم بالمهمة التي أوكلت إليه . كان الأمر يتعلق بالاستجابة لطلب الحزب الشيوعي الفيتنامي الذي كان يرغب في الحصول على إطار مغربي بإمكانه القيام بعمل سياسي في صفوف السجناء والجنود المغاربة في الفيتنام . وكان الشيوعيون الفيتناميون قد أخبروا رفاقهم المغاربة بأن العديد من الفارين قد التحقوا بصفوفهم فكانوا يقترحون تأطيرهم وإعطاءهم تكوينا سياسيا من طرف رفيق مغربي .

يشير علي عيطة بهذا الخصوص إلى تاريخ دقيق «حصل ذلك على ما أذكر في شتنبر 1950 فقد زارني المحامي بوني في السجن ليعرض علي المسألة» ويعتبر بوني على الأرجح أول شيوعي فرنسي بالمغرب . هكذا كانت تسجله وثائق ومصالح الشرطة منذ 1932 . كان مكلفا بالدفاع أمام العدالة عن أعضاء الحزب خصوصا في مكناس . وهكذا كان مثلا محامي بوحמידة (117) ، في الدار البيضاء ، كما كان أيضا نائب كاتب نقابة جرادة التي كان كاتبها هو الوالي محمد إلى جانب لانو ، هذا الأخير الذي سيطرده من المغرب إلى جانب فوشرو .

كل المؤشرات تدل على أن الطلب الفيتنامي تم إرساله عبر قناة الفرع الاستعماري للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي الذي كانت له علاقة وثيقة ومستمرة مع قيادة الحزب الشيوعي المغربي .

الشيوعيون الفرنسيون كانوا مع ذلك أعضاء في الحكومة

أنداك إلى غاية 1947 (118) . ويمكن أن نميز بين عدة مراحل في تطور موقفهم من الوضع في الهند الصينية .

ما بين 1944 و1947 عرفت الوضعية عدة تغييرات ، ففي مرحلة أولى كان الشيوعيون يؤيدون شن حرب على الفاشية في الشرق الأقصى ، وكان موقفهم مساندة الفيتنام في أعلى مراكز السلطة لمشروع الاتحاد الفرنسي . كان هوشي منه نفسه قد وقع في 6 مارس 1946 نصا يؤكد أن الجمهورية الفرنسية تعترف بالفيتناميين كدولة حرة لها برلمانها وماليتها وجيشها داخل الاتحاد الفرنسي .

قد يكون من الممكن اعتبار التصور الشيوعي للاتحاد الفرنسي والنابع من الاستراتيجية الشاملة للحزب المعبر عنها في حوار أجراه "طوريز" مع التايمز في نونبر 1946 ، تصورا منسجما . هذا التصور لم يكن يظهر أنه يأخذ بعين الاعتبار انعكاسات الحرب الباردة التي كانت في طور الانتشار . فالطابع الشيوعي للحزب هو الذي كان يشغل بال السلطة ، إلا أن عدة عوامل ستؤثر على مسار الأحداث ، كالتقاليد الاستعمارية ، ومعاداة الشيوعية ، والتقليل من قدرة الشعب الفيتنامي على المقاومة .

كان الشيوعيون في الحكومة ولم يكن دستور 1949 في نظرهم غير مقبول . كانوا يقومون فعلا بفضح حرب الهند الصينية كحرب استعمارية إلا أن الانسحاب من الحكومة في 1947 بسبب القضية الفيتنامية وحدها ، كان يبدو لهم كخيار سيجعلهم على هامش انشغالات الرأي العام .

من 1945 إلى 1947 لم يكن الحزب الشيوعي الفرنسي يريد وضع حد للتضامن الحكومي حول النزاع الهند الصيني . لكن سير الأحداث سيفرض موقفاً آخر : من جهة توقيع معاهدة الحلف الأطلسي في يوليو 1947 ومن جهة أخرى انتصار الثورة الصينية التي قدمت دعماً للمقاومة الفيتنامية . ثم الحرب الكورية التي انتهت إلى التدويل .

الاعتراف بالجمهورية الديمقراطية الفيتنامية تمّ في يناير 1950 من قبل الصين أولاً ثم من قبل الاتحاد السوفياتي . وقد عبرت المعارضة الشيوعية عن مواقفها من خلال مقالات تهاجم الحكومة ، لكنها غيرت من نبرتها في 1949 . كان الشيوعيون الفرنسيون يؤيدون الاستقلال دون استبعاد الاتحاد الفرنسي بينما لم يعد الفيتناميون يعتبرون هذا الأخير مرجعاً لهم . وقد أرخ شهر فبراير من عام 1949 لتسارع مقاومة الحزب الشيوعي داخل الدولة المستعمرة ، حيث أعطى موريس طورين إشارة الانطلاق لمعارضة أكثر راديكالية : «علينا اليوم أن نتحرك أكثر من السابق» فنظمت مظاهرات كبيرة في الشوارع ، وتكثفت حركة تعبئة المنظمات النسائية ومنظمات الشباب في شكل وفود وعرائض ، وسرعان ما اعتبرت هذه الأشكال من الاحتجاج غير كافية في ماي 1949 . دعت افتتاحية جريدة الحزب إلى تدشين حملة ضد «الحرب القذرة» . وفي نوفمبر 1949 تم شن حملة من طرف عمال موانئ مارسيليا ضد نظام الشغل بالمروددية وضد شحن أليات حربية في اتجاه الهند الصينية ، كما أثارت قضية

هنري مارتين من جهتها اضطرابات واسعة (119) .
 في المحصلة ، أبانت «الحركة من أجل السلام» وفقا للتطور
 الذي سارت عليه من 1949 إلى 1954 أن الانشغالات الأساسية
 للمناضلين الفرنسيين كانت تتركز على المشاكل الأوروبية وعلى
 العلاقات بين الشرق والغرب وبشكل مؤيد للاتحاد السوفياتي . يبدو
 أن الهدف الرئيسي كان هو إضعاف الامبريالية الأمريكية من خلال
 منع إعادة تسليح ألمانيا وبصورة عامة ، كانت الحرب الهند الصينية
 تبدو كأنها أصبحت ذات أهمية ثانوية .

لهذا ، عندما تبنى الحزب الشيوعي الفرنسي في 1952
 مواقف أكثر تشددا تجاه الحكومة ، لم يكن يتوفر على قاعدة لنشر
 أفكاره حول حرب الهند الصينية . فلم تكن هناك بالتالي حملة
 جماهيرية حقيقية ضد الحرب حملته المعادية للاستعمار لا يبدو أنها
 كانت أكثر الحملات أهمية ، وما من شك في أن عدم وجود تقليد
 معاد للاستعمار لم يعمل لصالح تطور عمليات التضامن مع الشعب
 الفيتنامي . فقد جرت الأمور كما لو أن الحزب الشيوعي الفرنسي قد
 رفض القيام بأية تعبئة مهمة . كان الوضع مختلفا كثيرا عن المناخ
 العام الذي أفرزته حركة الشيوعيين الفرنسيين في 1925 ضد حرب
 الريف . لم يكن يعني الشعب الفرنسي أن يؤثر على نهاية النزاع ،
 فكان لا بد لعمل المقاتلين الفيتناميين أن يكون حاسما .

قام بونني إذن بعرض مشكل الطلب الفيتنامي وتباحث مع
 علي يعنة حول إرسال رفيق المهمة طويلة الأمد في الفيتنام (120) ،

فاختار امحمد بن عمر لأنه كان في السابق جنديا في الجيش الفرنسي وأبان عن قدرات عسكرية . فقد كان معروفا من بين الرماة المهرة وكان لمشاركته كجندي في الحرب العالمية الثانية تأثير في اختياره . إضافة إلى ذلك ، كان الأمر يتعلق بمناضل متمرس ، من جهة أخرى كان طلب هوشي منه يلح على ضرورة الفعالية في العمل الدعائي . وكان امحمد بن عمر قد أبان أيضا في الماضي عن خصال عسكرية .

ماذا كان يعني بالنسبة لشيوعي مغربي ، مناضل متمرس الذهاب إلى الفتنام آنذاك في نهاية الأربعينات؟ ما هي الصور التي كانت تصل إلى المغرب عن الفتنام ومقاومة الفتنامين؟

في «إسبوار» جريدة الحزب الشيوعي المغربي كان هناك العديد من المقالات التي تتناول الماركسية في آسيا . فلم يكن الفتناميون ولا الصينيون الذين نجحوا في هذا التلاقي بين الشيوعية والوطنية ليتركوا الشيوعيين المغاربة غير مكترئين . فقد كان الاستشهاد يتم عن طيب خاطر في مختلف الكتابات ، بأسماء مورييس طوريز وأندري مارتني وحتى باسم جان جوريس .

وستظهر مرجعيات جديدة ، آسيوية هذه المرة . إن الترحيب الذي خصت به المنظمة الشيوعية المغربية فضال الصينيين ثم الفتنامين يصدر إلى حد ما عن تحول المحور الأساسي للثقافة الماركسية بعد 1949 إلى المنطقة الآسيوية ، في الوقت الذي كان المحور

متمركزا في السابق في المجال الثقافي الفرنسي . لقد أصبح من الآن فصاعدا ، الارتكاز إلى ماوتسي تونغ وليو تشاو وهوشي منه ، وقد خصصت جريدة الحزب مقالات عديدة للوضع في آسيا ونشرت نصوصا نظرية لقادة صينيين حول المسألة الوطنية (121) ، ونسجل في هذا النص المنشور في «إسبوار» إحالاته بالذات إلى الانتصارات العظيمة للصين على عهد ماوتسي تونغ وكأنها «ثمرات لوحدة القوى الوطنية الصينية» (122) وهو نص يبين إلى جانب إحالات أخرى الأهمية المعطاة للنموذج الصيني في الثقافة السياسية الشابة للشيوخيين المغاربة آنذاك .

كانت الصين والفتنام تشكلا نموذجين مثاليين بالنسبة للمغاربة خصوصا أنهما كانتا تساهمان في التقريب بين مختلف مكونات الحركة الوطنية . وهكذا جدد الحزب الشيوعي المغربي دعوته إلى حزب الاستقلال من أجل تشكيل جبهة وطنية تستند من الآن فصاعدا على أمثلة حية ولمموسة . وبدا أن باقي القوى السياسية ، خصوصا حزب الاستقلال ، اتخذت موقفا مؤيدا لذلك في أعقاب استيلاء الشيوعيين على السلطة في الصين سنة 1949 .

إلا أن علاقات أكثر مباشرة تظهر بين قادة الثورة الفتنامية والزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي المقيم منذ فترة بالقاهرة آنذاك ، كما تشهد على ذلك المراسلة التالية بينه وبين فام نكوك تشا :

«إلى صاحب السمو الأمير عبد الكريم .
كلفني الرئيس هوشي منه وحكومة الجمهورية الديمقراطية
الفتنامية بإبلاغك تحياتهما الحارة وأطيب التمنيات بمناسبة عودتكم
إلى الأرض العربية . لقد تابع شعب الفتنام بحماس وإعجاب
مقاومتكم للامبريالية الفرنسية منذ 1922 . وكان يدي تقديرًا كبيرًا
لشجاعتكم ولروح تضحياتكم ، وهو لا يشك في أن عودتكم ستدق
ساعة التحرير بالنسبة لإخواننا المسلمين في إفريقيا الشمالية .
صاحب السمو ،

إن حكومتنا وشعبنا عازمان على مواصلة الكفاح المسلح إلى
غاية النصر من أجل تحرير الفتنام على الرغم من التفوق العسكري
للععدو . هذا العدو الذي لا يمكننا منافسته لا في العدد ولا في
العتاد . مع ذلك ، فإن جل مناطق البلاد توجد تحت سيطرتنا والمدن
الرئيسية فقط هي التي تقع تحت السيطرة الفرنسية .
إننا نؤمن بانتصارنا في النهاية ، لأن شعبنا أنشأ جبهة
متضامنة ، موحدة وراء حكومة هوشي منه ، إن مقاومتنا هي نفسها
مقاومتكم ونضالكم لا يختلف في شيء عن نضالنا ، لهذا ، فإن من
شأن تضامن حركات التحرير الوطني في إطار الامبراطورية الفرنسية
السابقة أن يضع حدا نهائيا للامبريالية الفرنسية .
صاحب السمو ،

إن حكومة هوشي منه تلتزم منكم أن تتفضلوا بممارسة

سلطتكم الروحية الواسعة لدعوة جند إفريقيا الشمالية إلى رفض الذهاب إلى الفتنام ، ولتتمس منكم إلى جانب ذلك أن يقاطع عمال الموانئ السفن الفرنسية .

مع أطيح متمنيات الشعب الفتنامي بتحرير إفريقيا الشمالية ، وبالنصر لشعبكم العظيم في حربه المقدسة ضد الامبريالية الفرنسية .

وتفضلوا ، صاحب السمو بقبول تحياتنا وتقديرنا الكامل»
فان نكوك تشا (123) .

كل شيء يشير إلى وجود مراسلة مستمرة بين القادة الفتنامين وعبد الكريم الخطابي .

وفي هذا السياق ، طلب عبدالكريم من أشقائه المغاربة التضامن مع نضال شعوب الهند الصينية ، كما يشهد على ذلك هذا النداء الذي وجهه إلى المغاربة من العاصمة المصرية :

«في مثل هذا اليوم من السنة الماضية ، قاد الاستعمارون الفرنسيون جيشا مكونا من أبناء المغرب العربي لمحاربة حركة التحرير في الهند الصينية . وقد اعتبرت آنذاك أن الواجب القومي كان يلبي عليّ توجيه نداء أوضح من خلاله النتيجة المشؤومة لعملهم وأذكرهم بأنه لا ديننا كمسلمين ولا عاداتنا كعرب تسمح لنا بأن ننصر الباطل على الحق ، أو أن ندعم مبادئ الظلم على مبادئ العدل .

واليوم وقد استفاقت الشعوب من سباتها وانتصبت للدفاع

عن حقوقها ، ها هي حومة فرنسا مصرة ولا تزال على موقفها المناهض لحركة التحرر . ها هي فرنسا تجند كما بالأمس ، جيشا مكونا من أبناء المغرب العربي وتعبئه لمحاربة شعب يقاوم من أجل حريته ، لذلك من الضروري أن أوجه نداء إلى أبناء إفريقيا الشمالية ، وفاء لقضية الحرية ، نداء جديدا أذكركم فيه مرة أخرى بأن الاستعمار الفرنسي الذي أفقر شعبنا ، والذي يستغل هذا الفقر لإجبار إخواننا على المشاركة في جيشه ، لا يستحق من جانبنا كأشخاص وجماعات إلا الاحتقار والحقذ .

إن واجبكم أيها الإخوة هو أن توفروا دمكم وأرواحكم ، وأن تحفظوها إلى غاية اليوم الذي لن يكون فيه مخرج آخر سوى أن نهب دماءنا للدفاع عن حريتنا ولاسترجاع سيادتنا . إن انتصار الاستعمار ، ولو في أقصى العالم ، هو هزيمة لنا وفشل لقضيتنا وانتصار الحرية في أية بقعة من بقاع العالم ، هو انتصار لنا وعلامة على قرب استقلالنا . فكونوا إذن مع بلدكم ولا تكونوا عليه . وإذا أجبرتم علي التواجد في صفوف العدو ، فاختاروا الموقف الذي يحفظ لكم قدر الإمكان كرامتكم وشرفكم ، اختاروا جانب أولئك الذين يدافعون عن الحرية ويقدمون تضحيات للحصول على الاستقلال ، إلى أن تتخلصوا أنتم أنفسكم مما تعانونه من جراء الاستعمار وبهذا ترضون الله ووطنكم وتقدمون الدليل على وفائكم لماضيكم المجيد وللمستقبل الأمجد الذي ينتظركم . . .

أخوكم عبد الكريم الخطابي» (124) .

ويبدو أنهم لم يقفوا عند تبادل النوايا الطيبة وعبارات المجاملة ، بل إن بعض الوثائق المنشورة تشير إلى مهمة استخبارات قام بها أنصار عبد الكريم لفائدة الفيت منه (125) .

كان طريق رحلة امحمد بن عمر مرسوما بدقة : من فرنسا إلى بولندا بعدها الاتحاد السوفياتي ثم الصين فالفتنام . . . وكان الحزب الشيوعي الفرنسي قد التزم بتسهيل عبور الهارب إلى الاتحاد السوفياتي .

في 1950 ، غادر المغرب بن عمر سرا في اتجاه فرنسا وعند وصوله إلى باريس استضافه زوجان من الشيوعيين الفرنسيين وقد كانا قبل مجيئه إليهما يتصوران المغاربة كأشخاص بدائيين : كانا يشرحان له أمام مائدة الطعام كيف يستعمل السكين والشوكة . وكان بن عمر يشارك بمكر في هذه اللعبة . وكثيرا ما سيحكي لاحقا هذا المشهد وهو يفرق في الضحك . أبحر إلى «أنفرس» في بلجيكا على متن باخرة بولندية حيث بقي طوال سفره في مقصورة القبطان يأكل الشكلاطة حتى لا يظطر إلى الذهاب للمرحاض سوى أقل ما يمكن من المرات لثلا يكشف أمره . وعند وصوله إلى بولندا وضعت المصالح الأمنية تحت المراقبة مدة 24 ساعة وقضى بعض الوقت في مستشفى اللجنة المركزية . كان يصف التدابير الأمنية الهائلة التي وضعتها السلطات البولندية عند كل طابق ، حيث كان يجب الإدلاء برخصة المرور في جميع الأماكن ، كانت البناية مطوقة تماما ويستحيل تقريبا التسرب إليها ولم يكن من الممكن دخولها . وقد حكى بن عمر عدة

مرات هذه القصة وهو يعبر عن إعجابه وكانت كاميليا تنصت إليه دائما بكثير من الاندهاش .

في 21 نونبر 1990 بمناسبة ندوة حول «دوكول خلال هذا القرن» استمعت إلى تدخل لفيليب دوفيلبي حول الهند الصينية . وخلال فترة استراحة ، أخبرني عندما كان يعمل في الوزارة الأولى سنة 1950 كملحق صحافي توصل ببرقية من سفارة فرنسا في موسكو . نص البرقية كان مقتضبا ، في حوالي عشرين سطرا ، كما أوضح لي . وهي موجودة اليوم في أحد أرشيفات وزارة الخارجية . كان السفير أو القائم بالأعمال يقول فيها ، إن أحد زملائه وهو دبلوماسي انجليزي في العاصمة السوفياتية ، كان قد قام بسفر عبر القطر من وارسو إلى موسكو ، تعرف خلاله على شاب مغربي . وقد صرح له هذا الأخير أنه متوجه إلى موسكو من أجل الالتحاق بالمناطق المحررة من الفتنام ليحارب فيها الاستعمار الفرنسي وليتلقن أصول الحرب الثورية . «وقد قلت مع نفسي ، كما أسرّ لي دوفيلبي بهذه الأخبار لاحقا برسالة (126) ، لكنه لم يكن يتذكر بالضبط تاريخ البرقية التي كان قد توصل بها .

من موسكو التحق بن عمر بالصين عبر القطر ، وبعد ذلك بفترة قصيرة سيظهر في الفتنام .

هل كان بن عمر سيشد الانتباه إذن لو لم يشارك في حرب
الفتنام؟ دون تجربته الفتنامية ، فإن مشواره ، رغم كونه مليئا
بالنضالات ، ربما سيكون قليل الاختلاف عن مسار الكثيرين الذين
ظلوا مناضلين «محليين» «أبناء البلد» ذوي مسار عادي تقريبا ،
فمشاركته في حرب تحرير الفتنام تمنح بعدا آخر لنضالاته السابقة
واللاحقة . إن دلالة هذه المرحلة من حياته تبدو حاسمة .

بالرغم من العديد من المحاولات ، ظل التزام المصادر الفتنامية
الصمت حول بن عمر هو سيد المواقف . . . إلا أنه ظلت لدي
الشهادات الحية لجنود مغاربة عاشوا حرب الهند الصينية وحملوا
معهم أخبار عبورهم لما يسمى ببلاد «الأنام» كما لو كانت حملا
ثقيلًا ومغامرة لا يمكن روايتها : إنها إذن ذاكرة رجال موشومة إلى
الأبد . رجال يلقون في أغلب الأحيان نظرات ميتة بعيون حية ، كما
لو أنهم عاشوا أقصى المغامرات . حكايات محن وهموم وكيونانات
متعددة ولكنها أيضا كتابات مطبوعة مسبقا بطابع الزمن وحدود
الذكرى . . لاشيء بعد هذا السفر ، سيمكنه رغم كل شيء ، أن
يفاجئكم أو أن يشير حيرتهم .

فيما يلي الشهادة الوثائقية الدقيقة ، المهنية ولكن الإنسانية

السخية والودية لجورج بوداريل ، ثم الاعترافات المترددة في البداية ولكن المرحبة فيما بعد لكاميليا : لقد قبلت في النهاية أن تسلمني ذاكرتها ، وما كان قد تبقى لها من وثائق وبعض الصور ، لكن كان هناك أيضا ما سكنت عنه وما سكت عنه بدوري ، وهكذا لم أستطع أبدا أن أسألها متى وكيف أحبت هذا الرجل ، وفيما يلي الأخبار التي جمعها جاك دوايون في كتابه «الجنود البيض للعلم هو» (127) ، وكذا التصريحات السرية التي أدلى بها فيتناميون لسياسيين مغاربة عابرين ، لكن ما هي درجة المجاملة وحجم الحقيقة في العلاقات الرسمية بين الأحزاب الشيوعية؟ فيما يلي كذلك العالم الفريد من نوعه لذاكرة الجنود الفرنسيين ، في هذه الذاكرة يعامل ابن شمال إفريقيا بعنصرية كبيرة . ففي غالب الأحيان ، يتم خجبه أو وصفه بكلمات سلبية ، ويعتبر عصيانه مسؤولا عن هذه أو تلك من الإخفاقات التي عرفها الجيش الاستعماري (128) .

إن جمع الأخبار يبدو مُضنيا خصوصا من خلال انتشار الكتب المتعلقة بحرب الهند الصينية ، أو التي تدور حول هؤلاء الأفارقة الشماليين الذين هم جزء لا يتجزأ من التواجد الفرنسي في تلك المنطقة سواء في ساحة المعركة أو في معسكرات السجناء أو الفارين (129) .

1- اسمي على بن عبد الكريم العدناوي ، من مواليد 1927
مراكش رقم تسجيلي 2101 ، جندي مدفعية (130) ، في يونيو 1946

غادرت مراكش في اتجاه القنيطرة ، ومنها التحق فيلقنا بمدينة مارسيليا سنة 1947 ، ثم أخذنا وجهة الهند الصينية . قبل ذلك لم أكن قد غادرت مطلقا منطقة توبقال الجبلية . وخلال عبورنا لمارسيليا تعرفت على جندي مغربي من سيدي بنور ، كان الجنود الفرنسيون يلقبونه «بلانشيط» . كان عضوا في فيلقنا التابع للهندسة المدنية ، كان رجلا شجاعا . إذ أذكر أن الضابط كلفه بمهمة انتزاع علم «هند صيني» بمنطقة «تونكوي» ، وبعد أن أدى مهمته تمت ترقيته إلى عريف أول . وقد كان رئيس أمناء المخزن في وقت لاحق ، واثرا خلاف مع رئيسه الفرنسي ، قد يكون «بلانشيط» استولى على بندقية ومئات الذخائر الحربية وقد يكون التحق بصفوف جيش التحرير الوطني للهند الصينية .

2- اسمي الطاهر بن سعيد (131) ، كنت في الفريق الواحد والثلاثين للهندسة بالحملة العسكرية الفرنسية بالهند الصينية . التحقت بها كجندي بسيط وعدت منها بدرجة رقيب أول .

كنت عضوا في الفيلق الأول للمجندين ، وكان معنا قناصون وفرسان وگوم . قضينا ستة عشر يوما لبلوغ الفيتنام . مررنا بـ «بور سعيد» واحتجنا إلى يوم واحد لعبور «قناة السويس» ، ارتحنا لمدة نهار بـ «جيبوتي» خلال رسونا للتزود بالمؤونة . وقد نزل ضباط الصف وحدهم إلى اليابسة مرفوقين بمجموعات حراس مكونة من خمسة رجال . غادرنا «جيبوتي» في نفس المساء . عبرنا البحر الأحمر ثم

توقفت السفينة بعد ثلاثة أيام من الإبحار في ميناء هندي لم أعد أذكر اسمه . بعد سبعة أو ثمانية أيام من السفر وصلنا إلى "سنغافورة" بلد «سوكارنو» . مكثنا فيها بعض الوقت ثم انطلقنا ذات عشية جميلة في الساعة الرابعة أو الخامسة .

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام ، أصبحنا نشاهد مدينة «سايبون» . وقد تمّ نقلنا في قوارب مسطحة ، واستغرقت عملية النزول وقتا طويلا ، حيث إن آخر شخص أنزل بعد مرور ثلاثة أيام ، وقد عينت الفيالق في مناطق مختلفة سواء كانت تنتمي للفرسان أو للقناصة أو للغوم . كنت عضوا في فوج الهندسة وبالضبط في السرية المكلفة بالنقل والتمويل والعتاد . وقد نقلنا في سفينة إلى «هافيونغ» بمنطقة «تونكين» ، وتمركزت سريتي في قرية آيجون (132) التي كان قد أقيم بها مركز قيادة . أما باقي القوات فتم توزيعها على مناطق أخرى ، بقينا هناك مدة عامين . وعند حصولي على إجازتي العادية لمدة ثلاثة أشهر ، عدت إلى المغرب انطلاقا من الهند الصينية ثم فرنسا مرورا بوهران التي كانت أكبر سرية عبور آنذاك ثم وجدة فالدار البيضاء . توصلت بأمر للالتحاق بفوجي ، وهو الفوج الواحد والشلاثون ، بميناء ليوطي ، كان ذلك سنة 1951 . في ذلك الموقع كانت لي مسبقا 14 عاما و 7 أشهر من الخدمة في الجندي ، فاقترحوها عليّ إما العودة إلى الهند الصينية أو إلغاء العقد ، فاخترت التجنيد لمدة سنة .

عدت إلى الفتنام في 1951 في يوليو أو غشت على ما أعتقد . التحقت بالفوج الواحد والثلاثين في نفس الموقع السابق (هل هو آيجون؟) بقيت هناك كرئيس مكلف بالعتاد والمرأب إلى غاية 1952 . كنت مريضا بالإسهال ، حيث قضيت فترة نقاهة مدتها حوالي ثلاثة أشهر بمركز داتشاي ، المخصص عادة للجنود المتماثلين للشفاء والقريب من «بيدايون» (133) ثم التحقت بفوجي واستأنفت مهامتي كمساعد . أدبت وظيفتي إلى غاية 1953 ، حيث أحسست مرة أخرى أنني مريض جدا . عرضت على الطبيب الذي شخص من جديد مرض الإسهال فنقلت مرة أخرى للعلاج «بهافيونغ» حينذاك اقترح مجلس المستشفى ترحيلي إلى بلدي .

في 1951 ، بدأت أسمع الحديث عن الجنرال الحمري . وقد وصلني أنه كان قد انتقل من معسكر إلى معسكر آخر رفقة كتيبة جنود بكاملها حاملا معه الأسلحة والأمتعة ، وقد اصطحب معه 36 جنديا من القناصة . كان يقوم بشن هجومات مسلحة على القوات الفرنسية ويخبر المغاربة بواسطة مناشير مكتوبة بالفرنسية والعربية . وكانت هذه الكتابات تركز دائما على نقطة واحدة : «عودوا إلى بلدكم ، إن هؤلاء الفيتناميين يقاتلون كما هو الحال عندنا في المغرب من أجل استقلالهم» ، كان يحكي أنه كان في الأصل جنديا من درجة رقيب وأنه لسبب ما دخل في نزاع مع رؤسائه . وقد كان رؤساؤه قلقين نتيجة هذه السابقة وكانوا يخافون أن تقتدي به . عند

نهاية الحرب ، كانت القوات الاستعمارية مؤطرة باستمرار من طرف ضباط أو ضباط صف في أكثر من مرة وبمساعدة السنغاليين يراقبونا عن قرب ، كان واضحا أنهم لم تعد لهم ثقة فينا ويبدولي أن المغاربة هم الذين كانوا في أغلب الأحيان يقرون . كما كان الفارون من الجزائريين كثيرين جدا . كنت في طريق العودة ، في بور سعيد ، عندما علمت أن معركة «ديان بيان فو» قد انتهت في 7 ماي 1954 .

3- اسمي أمزيل موحا (134) كنت مساعدا أول في الجيش المغربي ، ثم ملحقا بالدرك الملكي وجنديا سابقا في الجيش الفرنسي وأنا متقاعد حاليا ومقيم بمدينة تمارة قرب الرباط . شاركت في الحرب الأولى للهند الصينية ، وعرفت حقا امحمد بن عمر لحرش ، عرفته باسم معروف ، كان يقوم بوظيفة مترجم بين الأسرى الفرنسيين والمغاربة من جهة والفيتناميين من جهة أخرى . كان يتكلم العربية والفرنسية والفيتنامية . ويدافع عن السجناء المغاربة . وقد علمت فيما بعد أنه كان قد اتصل بالفيتناميين قبل الحرب بمدة . تعاملت معه شخصيا عندما تم أسري . لم يكن طويل القامة وكانت له أنذاك لحية قصيرة عرفته سنة 1952 وقد بدالي كما لو أن عمله كان قبل كل شيء وأن يقترح عليهم أحيانا كيفية الجواب : «عليكم أن تقولوا أنهم جاؤوا بكم إلى هنا بالقوة» . كان مغربيا ، والغريب أنني أعتقد دائما بسبب لهجته أنه كان من منطقة سوس . أعتقد أنه كان يشارك في بعض العمليات العسكرية . كان يكتب مناشير باللغة العربية

موجهة للجنود المغاربة المشاركين في الحملة العسكرية الفرنسية ، كنا نعثر عليها منشورة في طريقنا ، كان يحاول إقناعنا بأنه لم تكن لدينا أية مصلحة في الدفاع عن العلم الفرنسي ، وكان يحذر الأسرى المفرج عنهم قائلا «في المرة القادمة ستقتلون» .

4- اسمي محمد بن عبدالله (135) ولدت سنة 1932 بالحوزية في ناحية الرباط وسط قبائل أولاد ميمون في عكراش التحقت بالجيش الفرنسي سنة 1951 في شهر أبريل إذا لم تخني الذاكرة كجندي لمدة أربع سنوات بالدار البيضاء في الفيلق السادس للقناصة المغاربة . سافرنا إلى الفيتنام في 1952 في بداية السنة على الأرجح مبحرين من مدينة وهران على متن سفينة باستور مروراً عبر قناة السويس ، استغرق السفر 19 يوماً . ووصلنا إلى «هافيونغ» بعد أن عبرنا ممر رأس سان جاك . من «هافيونغ» إلى «هانوي» أخذت مني المسافة عبر القطار يوماً كاملاً . قضينا الليلة في «هانوي» وفي الغد ، عند بداية العصر تم تعييننا في مناطق مختلفة ، وبعد تزويدنا بالسلاح التحقنا بعناصر الفيلق الرابع للقناصة المغاربة القادم من منطقة تازة بالمغرب .

منذ أول ليلة حرب لنا وقعت معارك عنيفة ، كان هناك العديد من القتلى في صفوفنا . وأتذكر أن الفرنسيين كانوا قد اضطروا إلى الاستعانة بطيرانهم الذي قصف بعنف المنطقة التي كانت تمتد أمامنا . ففتح لنا الطريق ، بقيت على هذا الوضع ستة

أشهر كانت كلها مناوشات وهجمات لا تتوقف .. فيما بعد ، تجولت في مجموع الهند الصينية في تونكين ، سايفون ، هانوي .. كنا نتقدم ببطء من بلدة إلى أخرى ...

أتذكر أنني سمعت عن «الحمري» وكيف كان يهاجم المواقع الفرنسية ، منذ أول ليلة لي في موقعي العسكري ، وحوالي 1952 كانت له مسبقا سمعة كبيرة . كان الفيتناميون يعرفونه من خلال شهرته ويتحدثون عنه بإعجاب ، وكانوا يبدؤون الحديث معنا بالكلام عن «لوك» . كان يبدو أنه كان يتنقل دون خوف في كل مكان وفي جميع الجهات ، وكانت سمعته تتعقبه .

في 1953 كنت بجوار مخزن للبنزين قرب مدينة «سايفون» وأتذكر أننا كنا نحتفل تلك الأيام بعيد الأضحى عندما تعرض المخزن للقصف ، كنت حاضرا وكان ظل الحمري حاضرا بثقله خلال هذه العملية ولم نكن نتكلم إلا عنه . أتذكر كذلك صورة أسير مغربي اعتقله الفيتناميون وأفرج عنه فيما بعد في ظروف لم أعد أذكرها . كان قد جاء ليعد تقريره عن الحمري ، كان يحكي أنه كان عضوا في الجيش الفرنسي . وفي يوم ما غادره ومعه جنود وأسلحة . بطبيعة الحال ، كنا نتعاطف معه وقد ذهب العديد من المغاربة للالتحاق به ، كان غالبا ما يشكل الموضوع الرئيسي لأحداث الجنود المغاربة . وشيئا فشيئا ، فقد الفرنسيون الثقة في الوحدات المغربية ، وأذكر أنني سمعت عدة مرات كلاما مشككا على لسان الضباط

الفرنسيين .

تم تعييني بناحية «سايفون» ، ثم بعثت إلى «ديان بيان فو» .
كان الحمري يوجد بدوره هناك ، لكن في المعسكر الآخر .
وبعد نفي محمد الخامس ، تعددت مناشير الحمري وقد
جمعت إحداها : كانت مليئة بكلمات غير واضحة أحيانا مكتوبة
بالعربية ، وقد احتفظت بها (136) .

في بحثي عن أخبار ومعطيات وعناصر جديدة حول التجربة
الفيتنامية لابن عمر ، كنت أجمع بينهم روايات قدماء الجنود المغاربة
بالفنتام ، وخلال ذلك كنت ألتقي باستمرار بشخص لم تكن معاله
كبطل تتوقف عن التأكيد في آسيا .

استمعت عدة مرات لتسجيلات العشرات من الاستجابات
التي كانت جلها قد أجريت بصعوبة في أعقاب تأجيلات عديدة
عمليات إقناع متنوعة وطلبات متأنية للتدقيق والتوضيح . من بين
الذين حاورتهم ، هناك جنود يعون بالكاد دلالة مشاركتهم في حربهم
الهند الصينية . ولم يعودوا منها في النهاية سوى بقليل من
الذكرات التي يمكن تبليغها للآخرين ، وهناك على العكس أناس
مصابون في العمق وبصورة لا تعوض . ويحملون في دواخلهم المقام
الحربي بالفنتام كجرح لا يلتئم ومقابل الشهادات الدقيقة للبعض ،
وهي شهادات شبه تقنية يتم التعبير عنها بالنبرة الرسمية للتقارير ،
هناك حكاية الآخرين ، حكاية شاعرية ، متنافرة ومتقطعة بكثير من

الصمت أو مغطاة بأجزاء كبيرة من النسيان .
 البعض منهم تعامل مع شخصيات أخرى غير بن عمر ،
 لكنهم سمعوا عنه وآخرون لم يعرفوه أبدا بل يخلطون بينه وبين
 شخص آخر .

يبدو جليا في حكاياتهم أن ملامح معروف تختلط بلامح
 العديد من الأشخاص الآخرين الذين كان لهم وجود حقيقي أو
 خيالي : فالبعض منهم يرى أن الأمر كان يتعلق بجندي مغربي من
 الحملة العسكرية التحق في أحد الأيام بصقوف «الفيت منه» إلا أن
 أسماء أخرى تظهر الجيلالي ، وأصله من شرق المغرب ، أو الحاج
 صالح . . . وكثيرا ما يتردد أيضا اسم الحمري (137) ، وهناك حكاية
 غالبا ما يرويها أكثر مما ينبغي الشهود الذين ما زالوا على قيد الحياة .
 قد يكون المنشق جنديا بسيطا أو على الأكثر ضابط صف قد
 يكون أخفى كيس قهوة ، دون شك ، كما يقول كل المستجوبين ، من
 أجل الحفاظ على علاقته بإحدى النساء ، فبصورة عامة ، حسب ما
 يقولون ، فإنه في ظل ظروف الفيتنام آنذاك ، لم يكن من الممكن
 الحفاظ على امرأة سوى بهذه الطريقة ، أي مقابل تعويض مادي . من
 أجل امرأة إذن قد يكون الحمري سرق بضعة كلغرامات من البن ،
 وربما حكم عليه بثمانية أيام سجن . وقد يكون فر بعد هذا العقاب
 الذي اعتبره مجحفا في حقه .

قد يظهر هذا كدعاية مضادة نشرتها المصالح الفرنسية الخاصة

من أجل الحفاظ على معنوية القوات الاستعمارية ، وإلا كانت هذه المصالح ستجد فعلا صعوبة في تفسير تواجد مدني غربي ومناضل سياسي فوق ذلك يعمل في صفوف «الفيت منه» .

كانت مخاطر انتقال العدوى إلى العناصر المغربية والجزائرية والتونسية وغيرها في الحملة العسكرية ، تبدو لهم ربما كبيرة (138) .

نظرا للعدد الكبير للملتحقين ب«الفيت منه» قبل أو بعد أسرههم ، ونظرا كذلك للعدد المرتفع للمنشقين ، فإن عدة مسارات وأشخاص ، مختلفين في الأصل ، قد تطابقت وتقاطعت واختلطت وإذا كان اسم بن عمر يرتبط ، بالنسبة لبعض الشهود بهجومات مسلحة وبفعالياتها الكبيرة ، فإنه بالنسبة لآخرين ، قد يكون اشتهر قبل كل شيء بعمله الدعائي . وهكذا انتهى الأمر بلامح شخصيات عديدة إلى الاختلاط في الذاكرة المتذبذبة لقدماء المحاربين .

لكن كان البعض منهم قد قام مسبقا بتحقيقاته في عين المكان «حكى لي جندي من درجة مساعد أن الحمري كان مدينا» يطلب مني هذا العائد من جحيم الهند الصينية ، أن أعمل على التمييز جيدا بين العسكري الملتحق بصفوف «الفيت منه» أي الحمري ، والمدني المسمى معروف الذي كان أحد مساعدي هوشي منه ، فهذا الأخير هو كاتب المناشير ، بل هناك من يتحدث عن شخص ثالث (139) .

غير أن ما لا يمكن إنكاره (إذا كانت قد وقعت عمليات فرار عديدة ، وضمن المساعدين اللاحقين لابن عمر) ، هو أن هذا الأخير كان زعيمهم ، يتنقل مستعيرا هويات عديدة ، فينعت أولا باسم مارسيل ، وقد استودعتني كاميليا التي ستصبح لاحقا زوجته صورة لعائلة جياب GIAB! كانت موجهة في شكل بطاقة بريدية : «إلى الرفاق «مارسيل» «كاميليا» مع إخلاصنا» ، وهي بطاقة موقعة على الظهر باسم «بيشها» ، مجلة الناقد الماركسي الفيتنامي الكبير "دانغ طاي ماي" الذي توفي منذئذ عن سن الثمانين ، «بيشها» هي زوجة جياب الثانية ، أنجبت له خمسة أبناء ، وهي صديقة كاميليا منذ المدرسة الثانوية رغم أنها كانت تتقدمها في الدراسة بسنة . كانت البطاقة البريدية تحمل تاريخ 27 نونبر 1956 .

أما الرئيس هوشي منه فأطلق على امحمد بن عمر لحرش اسم « أنه ما » ANH MA وهو ما يعني حرفيا «الأخ الفرس» . لكن بن عمر معروف أكثر خصوصا وسط مغاربي الهند الصينية باسم معروف ولا يستبعد أن يكون هوشي منه نفسه هو الذي نعت بن عمر بهذا الإسم احتفاظا بذكرى معروف بن قدور ، ابن منطقة الأصنام بالجزائر ، والمهاجر إلى فرنسا في بداية العشرينات المكلف في النقابة العامة المتحدة للعمل . يجعل اليد العاملة المنتمية إلى شمال افريقيا تنتقب . معروف هذا كان عضوا في الفرع الاستعماري للحزب الشيوعي الفرنسي ومن المحتمل جدا

أن يكون هوشي منه قد عرفه عندما كان مناضلا في الحزب الشيوعي الفرنسي ما بين 1920 و1930 ، بل ولاحقا عندما كان في الأمية الاشتراكية من 1923 إلى 1924 ، بل وفي وقت لاحق كذلك (140) .

معروف الأول هذا لعب دورا أساسيا في إضرابات مدينة سانت إتيان ، في مارس 1924 ، عندما كان الحزب الشيوعي الفرنسي قد شرع في الاهتمام بنزاعات الشغل التي يتورط فيها الاستعماريون ويبدو معروف وهو يتحرك منذ 1923 بمنطقة «لالوار» حيث أنشأ جمعية إسلامية وفي أبريل 1926 استدعي من قبل دوريو إلى باريس لإشراكه في عمل اللجنة الاستعمارية وإقامة بنية استعمارية في شتنبر 1926 ، اختلف معروف بن قدور مع قيادة الحزب حول برنامج جمعية نجم الشمال الإفريقي . وكان مطلب الاستقلال مسجلا مسبقا في برنامجها ، وقد كان معروف من مؤسسي نجم الشمال الإفريقي وسيصبح عضوا في لجنيتها الإدارية في يناير 1929 . كانت مهام معروف تبدو ذات طابع نقابي بالأساس ، وفي 1929 تم اعتقاله ونفيه إلى الجنوب خلال زيارة إلى الجزائر وبعد الإفراج عنه ، عاد إلى فرنسا في ماي 1930 ليشتغل مجددا بالعمل الاستعماري داخل النقابة المتحدة للعمل GTU كمسؤول عن جريدة «الأمل» التي نعتت «بالنزعة العمالية المتعصبة» ، ويظهر أيضا كمعارض لتكتيك الجبهة المشتركة كما رفض أي تقارب مع نجم الشمال الإفريقي أو

الوحدة الإسلامية . وقد فقد عمله كتنقابي مداوم وعمل من أجل تنقيب منطقة سطيف سنة 1937 وأصبح مسؤولا عن العمال المنجمين . ما يثير الانتباه في ملامح شخصية معروف الجزائري هو نقط التقارب بين مساره ومسار بن عمر ، حيث كان مثله نقابيا مهتما لمدة طويلة بالقضايا الفلاحية ، ومناضلا شيوعيا ، لكن كان مؤيدا مع ذلك للاستقلال الوطني ، زيادة على ذلك ، سينتهي معروف الأول كمسؤول عن عمال المناجم .

هوشي منه عرف على الأرجح معروف الأول ، فهل هو الذي قرر ، تحية لهذا الشيوعي المغربي ، أن يعطي اسم هذا الأخير لابن عمر؟ لكن معروف محمد بن قدور ، الجزائري ابن الأصنام ، وبخلاف امحمد بن عمر لحرش المغربي الخريبيكي ، لم يكن قد شارك في حرب الفيتنام .

مجمل القول تبرز الحوارات مع قدماء الجنود المغاربة الذين شاركوا في حرب الهند الصينية حكاية غموضية وثابت في الإدراكات المختلفة بل تبرز تصورا مغربيا للفتنام وللفيتناميين ، نفس القصة تتضاعف بمقدار العدد الكبير للمغاربة المجندين في الحرب الاستعمارية حسب حاجيات الجيش الفرنسي من الرجال ، ووفقا لاستراتيجيته الكثيرة التغير ، فضلا عن ذلك ، انطلاقا من 1947 إلى غاية 1954 .

فوحدات الغوم والفرسان والقناصة التابعة للجيش الاستعمارية التي اجتاحت الهند الصينية تم توجيهها إلى الأعمال الشاقة المتمثلة في الحفاظ على هذا الجزء من العالم داخل الامبراطورية ، لكن الفرنسيين لم ينجحوا في أن يولدوا في هؤلاء الرجال القادمين من المغرب العربي الإحساس بأنهم بقيامهم بذلك إنما كانوا يؤدون واجبا .

من خلال السفر الطويل للقناص ، نعثر على نفس المعالم الجغرافية ، على نفس المراسي : نقط العبور الضرورية هاته التي تمثلها مارسيليا أو طولون ، وهران ، السويس ، جيبوتي أو عدن ، بومباي ذاك المرسى الهندي الغريب ، أو سنغافورة التي توصف بقطعة جنة تم

عبورها بسرعة وحيثما يتم إبعادك عنها ، فإنه يتم تحطيم اللحظات السعيدة التي تعيشها فوقها كما لو وضع ختم نهائي على ترحيلك في اتجاه جحيم حرب بلاد الأنام .

العناصر الأولى لجغرافية الفيتنام تمتد عبر نظرات وفكر الجنود القادمين من بلاد الشمس الغاربة ، وأول فك لرموز البقاع الغريبة لبلاد الأنام يكشف عن التعلق بمواقع جغرافية معينة ابتداء من مناطق رأس سان جاك ، تونكان ، هافيونغ ، هانوي ، أيجون ، سابغون ، والباغودات السبع . إلى غاية تشكيلة البلدات الصغيرة الغائصة عميقا في قلب أدغال شمال الفيتنام أو المجاورة للحدود الصينية . أنت تقرأ خارطة الفيتنام في الكتب ، أما أنا فأحملها في جسدي ، إنها مرسومة في قلبي ولحمي . قال لي بخشونة هذا الجندي وهو من القلائل الذين نجوا من الموت . في معارك الطريق رقم 4 . . . وكاوبانغ ومناطق أخرى ، والذي كنت أظنه غريبا عن مثل هذه الحماسات (141) .

ها هم إذن هؤلاء الرجال وهم يصفون دون كلل بميزات «دوار» فتنامي ويقارنون مدينتهم القديمة مع «المدينة القديمة» الفتنامية ، كنت أطلب منهم معلومات عن بن عمر الذي أصبح لقبه هو معروف ، لكن محاورري كانوا يطلقون العنان للحكي عن سفرهم بهذا البلد النائي ، الغريب ، الجهنمي والساحر ، بمغربين مناظره الطبيعية ونباتاته وأشجاره وأراضيه ومياهه وحيواناته ورجاله .

ترك رجال المغرب العربي أنفسهم تقع في شرك ما بعد الظهيرات الآسيوية حيث كانت تغلق المدينة على نفسها ، وحيث كان الأهالي البؤساء لا يكفون رغم كل شيء عن التجمهر ، عابرين القرى التي كان يبدو فيها الماء والأرض بلا تميز ، كان الكوم والفرسان والرماة يندمجون بيسر في هذا المشهد الطبيعي للمستنقعات والوحد الممتد بلا نهاية ، ولم يعودوا قادرين حتى على إدارة رؤوسهم وسط التنانة والفضلات كانوا يغرقون كل يوم أكثر في ميث الخمارات والمراقص ، والحانات والمواخير وسط ناس البغاء بعددهم الذي لا يحصى ، وأصحاب الحانات وبنات الهوى ورجال البوليس و «الخبرين» كانت النساء يسرعن إلى الانقضاض عليهم ويتمسكن بهم كما لو كن يتمسكن بغنيمة مؤكدة وسط العديد من صغار مهربي النقود ورجال من الألوان والجنسيات الأخرى .

في موضع آخر ، كانت عتامة الأدغال الكثيفة والشقيلة والجبارة تشكل لوحة معاكسة ، كان الجنود القادمون من إفريقيا الشمالية ينبهرون أمام جذوع الأشجار الهائلة التي كانت ترفع إلى كل ذلك العلو الظلال الفسيحة لأوراقها ، كانوا يختفون لكونهم لم يعودوا يرون السماء اللامتناهية ، كانت الظلال الهائلة للأشجار تغطيهم وتغطي معهم «العدو» المتعذر الإمساك به ، الحاضر في كل مكان والذي لم يكن يتوقف عن إشعارك بقساوة من خلال العديد من الغارات والاعتقالات والمناشير والأبواق أو مجرد حفيف بأنه فيما

يتعلق به هو ، فإنه كان موجودا في بلد ثم فجأة تظهر وسط الدغل بقع أرضية بلا نبات ولا أعشاب ، ولا أشجار ، كانت هذه الفرج تنبجس بنخشونة ، فتحات كأنها واحات صحراء منعشة وسط صحراء الغابات الكثيفة .

في مواجهتك العزلة (سؤال الكاتب) والحنين إلى الوطن ، والعياء الجسدي والانهيال المعنوي . كان النبات المجنون يحاصرك ويعزلك أكثر ، آلاف الأشكال العجيبة وآلاف الغرائب الطبيعية تنقص عليك .

كان الرجال القادمون من المغرب العربي يغوصون في أغوار عالم ذهني خاص . ولم يكن اكتشاف أسيا يطابق بالنسبة لهم اكتشاف الغرب . فهذا الأخير كان يتحدد بعبارات الهوية والاختلاف . كان الأمر يتعلق بجزء منهم وبشيء آخر . أما أسيا البعيدة ، العالم الفريد والبعيد عن المتناول ، فكانت تشكل عالما سريا ، كان يظل خفيا ، بلدا يحدث لهم أن يكتشفوه كجغرافية حقد وخداع وفضاظة ، لكنه لم يكن يرسم بالنسبة إليهم ، حدودا واضحة خصوصا بالنسبة إليهم ، هم الأجانب الآخرون ، الأجانب خدام الأجانب الأسياد .

المظاهر الواضحة لتصنيفات من قبيل الصديق/ العدو كانت تذوب هنا ، فالحد البين أكثر من اللازم والذي كان البعض يعترف به بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي ، كان يمحي في هذه

الفضاءات آسيا الكثيفة الحضور ، كانت تفعل فعلها كمفسدة للأجساد والأرواح صابة فيك شراب محبتها وناشرة فضاءات لذتها . إنها آسيا المهيجة ، آسيا الخطيرة .

لكن معروف والمغاربة الآخرين لم يكن لهم ما يجمعهم بهؤلاء الأوروبيين الفارين الملتحقين بـ "الفيت مينه" والذين ربما كان بإمكاننا اعتبارهم طالبين لذة ، أو أفرادا يستسلمون للملامسات الحاذقة لنساء آسيا وللباقتهن في العشق ، كان امحمد بن عمر الملقب بـ «أنه ما» أو معروف قد جاء من المغرب لأداء مهمة ثورية . ولم يكن الفيتيت منه بالنسبة إليه حشدا من الشيوعيين المسنين أو من هوشي مناهات مسنين يداعبون بشهوانية لحبهم الصغيرة ، حشدا خطفه من عالمه ويعظ بعبادة الجسد (142) فقد التحق بهم بأمر من الحزب ، لقد كان في مهمة مأمور بها .

- كتابات سلبية للمؤرخين الفرنسيين

لم تكن الصور التي كان المغاربة يكونونها عن الجنود الفيتيت منه الفيتناميين عدوانية كليا . فقد كانوا يشعرون بأنهم يوجدون ، رغم أنفسهم ، في معسكر الدفاع عن الامبراطورية الاستعمارية على عكس النزاعات العالمية السابقة التي تم إشراكهم فيها . لا سيما وأنهم كانوا يدركون في عيون آسيا انتظارها ، منهم على الخصوص ، تفهما وتواطؤا . كان الأفارقة الشماليون يكتشفون في زاوية درب ، عند سفح تل ، عشية معركة ، أو في عيون سجين ، الماوية كإيمان لا

يلين ، وكركية لعزة النفس الغريبة لآسيا ، كمبدأ في الحياة ، وأمل
لسلالات البؤساء والجماهير الفقيرة ، كإيديولوجية أكيدة للانتقام
المطلق التي من أجلها كان يجب ليس فقط هزم الامبريالي المستعمر
والمستغل ، وإيلامه ، ولكن أيضا تجاوزه والتفوق عليه .

الأدبيات الفرنسية حول حرب الهند الصينية تعكس صورا
معبرة جيدا : فالفاعلون فيها وعناصرها هم من جهة الفرنسيون ، ومن
جهة أخرى ، قوى الشر المجهولة الممثلة بالفييتناميين ، فالفاعلون
المتميزون عن الآخرين ، والأبطال ، هم العسكريون الفرنسيون ، هم
الضباط هم الجنود المدنيون وبعض الفييتناميين أو الصينيون .

أما المغاربة والأفارقة الشماليون بصورة عامة ، فليسوا سوى
عناصر احتياطية وجنود منذورين للموت أو أعوان خدمة (كالسائقين
أو الحراس . . .) عدة من الجثث المحتملة ، جهاز ما داخل الآلة
الامبريالية الفرنسية الهائلة .

يتم تقييمهم تبعا لقدرتهم على القتال مثل أدوات أو
معدات ، على أي حال ، فإن الموقع يخسر في كل مرة تكون الطليعة
العسكرية الفرنسية غائبة أو عندما يموت الضابط الفرنسي أو تحصده
رصاصة أو قذيفة .

المغاربة والمغاربة مصدر مشاعر متناقضة لدى المدونين
الفرنسيين لأخبار حرب الهند الصينية مثل لوسيات بودار : إنهن
طيبون أو أشرار حسب أمزجة كاتب ذي أنا متضخمة وسثم وذو

فكر مترفع ، حسب النتائج وحسب حجم الانتصار أو الكارثة ، وحسب درجة إهانة عزة النفس الوطنية الفرنسية (143) . فهم ، عثية معركة ما ، ليسوا سوى أثار دم فوق التراب ، رجال يحتضرون أو جثث تغطي الطريق التي تعبرها السيارات ، جثث ينظر إليها بتعال وفلسفة ، إنهم مجرد أخيلة صامته يفاجئها الكاتب وهي تصلي أو تلو سورا من القرآن في أحد أركان الدغل . إنهم مجرد حضور تابع . فيما يخص الشجاعة ، نادرا ما يكون لهم الدور الأول . لكن نظرة السيد التي لهم يجول بها على هؤلاء الرجال المرحلين ، إلى الجحيم الفتنامي ، تعكس نظرة واسعة الانتشار داخل الجيش الاستعماري الفرنسي ابتداء من جنود الفئة الثانية إلى غاية قمة الهرم العسكري (144) .

كان المغاربة متواجدين في كل مكان ابتداء من أحياء سايفون إلى غاية المراكز الحدودية ، ملامح شخصياتهم كانت تهيمن على الاستعدادات للحرب وعلى جميع مشاهد الحرب نفسها : « لقد كانوا في يونيو عام 1950 يسهرون على تفريغ المعدات الأمريكية التي بدأت تتدفق على الهند الصينية . كانت باخرة «ستيلهوفر» راسية بالرصيف ، وكان هناك «خلف كل حمال شرطي بمسدس ومغربي معه قطعة حديد» (145) . كانوا هناك في تخوم الحدود مع الصين ، وفي الطريق رقم 4 RC وفي كاويانغ وفي باكو . . . في هذه المناطق الغربية المحفورة بعدد لا يحصى من مصبات الأنهار ، الموشاة بالغابات

المليئة بالمجازات والمنعرجات ، وحيث الوحدة لا حد لها ، بل واجهوا في بعض الأحيان الحرب الأهلية في الصميم في 6 يناير 1950 ، وجه طابور نداء للإغاثة كان أمامه ستة آلاف رجل من «فوهونغ كان» يدعونه إلى الاستسلام . لم يكن الغوم بالعدد الكافي لتجريدتهم من السلاح (146) وإلى جانب أنصار "الفيت مينه" وجنود الفيالق والكونكاوي (النساء الفتناميات) ، كان هؤلاء الملتحون المغاربة يحرسون في المراكز الحدودية داخل أكواخ من الوحل واللوح . على هذه الحدود ورغم القلق ، كان المغربي يصمت ، مستخفا بشكل رائع للخطر ، حتى عندما كانت الأبواق تصيح فيه كل ليلة وبلغته الدارجة : «سلموا أنفسكم! سنهاجمكم ، الويل للمرتزقة ، الويل للخنونة» . كما نجدهم مجددا حول القوافل الرابطة بين المراكز الحدودية . كانت الحكومة قد ترددت ثم قررت سحب وحداتها المنتمية لإفريقيا الشمالية وسرحت بها على الخصوص 11 كتيبة للمشاة و3 فيالق للمدركات و4 مجموعات للمدفعية (147) . وقد بلغت المشاركة الإفريقية الشمالية آنذاك حوالي 36628 جنديا ، 3646 قتيلًا ، 1355 وفاة و 7255 مفقودا (148) .

في المعسكر الآخر ، كان «الفيت مينه» يشنون حرب تدمير للشاحنات ، حرب إنهاك وهجمات على الجبهة ، يشنون حربا نفسية وعمليات دعائية . كانت قواتهم تبذل ما في وسعها لتجعل حياة القوافل مستحيلة ولتوازن بشكل مقدر بمهارة بين نصب الكمائن

وشن الهجومات على الجبهة ، ولتقوم باستعراض ظلال فلاحين مكسوين بلباس أسود لبيعوا على الاعتقاد بمحاصرة المواقع ، ولتصبح بالشعارات عبر مكبرات الصوت ، ولتسرب مناشير تتوعد بمعارك دامية حاسمة . داخل ثكنات الطوابير ، كانت توزع مناشير تنادي بمقاومة الاستعمار ، وتضامن الشعوب المضطهدة ، وهي نصوص مكتوبة بالعربية بيد جنود منشقين .

بعض المغاربة الذين ما زالوا يتذكرون معركة الطريق يروون عنها حكايات مروعة بقلب منقبض . وما زالت أسماء الطريق RC 4 وكاوبانغ يتردد صداها كمأساة . كانت السيطرة على الطريق تحدد مصير الدائرة الاستراتيجية الكبرى للمنطقة العليا . كانت مراقبتها تسمح بفتح الحدود الصينية ، والتمكن منها بدمنها ومرتفعاتها يسمح بمراقبة شرق طونكين العالي بكامله انطلاقا من الصين إلى غابة «طاي نكويين» ، كان لابد للمعركة أن تكون حاسمة : وقد كانت كذلك . خمسة آلاف رجل ضاعوا فيها ما بين مفقود أو قتيل ، جريح أو أسير . والذين نجوا ما زالوا يحسون اليوم بالإهانة (149) ، عند انتهاء المعارك . جماعات لا حد لها من الفارين والمنشقين كانت تسير في رتل ، كان جنود الجيش الشعبي للفرقتين 308 و312 قد نصبوا بها فخا هائلا لآلاف الرجال مطلقين النار حتى الموت على جنود فيالق ، وعلى مظليين ، وعلى أتباع الفيتناميين ، وضمنهم عدد كبير من الجنود المغاربة . هؤلاء بالأخص سيجري تقطيعهم قطعا

في هذا الفخ ، ستقطع رؤوسهم أولا بأول ، عند بلوغهم مختلف نقط الالتقاء ، وبعد أن ربحوا المعركة لم يتردد مقاتلو الجيش الشعبي الفيتنامي في إفراغ ما تبقى لهم من رصاص على أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة من بين المغاربة وجنود الفيالق . الحصيلة المعلنة يوم نهاية المعارك من قبل إذاعة «الفيت مينه» كانت مؤقتة : 441 قتيلا ، 500 جريحا ، 966 أسيرا (150) .

إن التوصيفات المتوفرة عن طوابير الأسرى توصيفات قوية : طابور أول مكون من أبرز الجنود رتبة ينطلق في اتجاه الشمال الشرقي في الدائرة الشرقية ل «كاوبانغ» . وقد شكل أبرز قوام العسكر رقم واحد . طابور ثان تم إرساله نحو مرتفعات «باكستان» و «فوين جيا» مكان ميلاد المقاومة "الفيت مينه" . في هاتين الدائرتين ، كانت المراقبة الأمنية مشددة كثيرا وعمليات الفرار صعبة . وليست هناك حاجة إلى أسلاك شائكة أو مراقب فالسكان والدغل كانوا يشكلون نوعا من الحراسة الطبيعية .

ضمن هؤلاء الأسرى ، كان الألمان ، وكذلك المغاربة ، كثيرين جدا ، طابوران فقط هما اللذان أفلتا من الكارثة ، كان الأمر يتعلق بجنود الرائد دو شيرجي الذي نجح في أن يتم إجلاؤه رفقة وحدته : «هؤلاء المغاربة ، الذين تم إجلاؤهم في الحال ، سيظلون موسومين إلى الأبد ، إنهم الذين ، بروايتهم لما تكبدوه ورأوه ، سيصيبون بالعدوى شيئا فشيئا مجموع القوات الإفريقية الشمالية

التابعة للحملة العسكرية والتي سيقبل دائما وسنة بعد أخرى الاعتماد عليها ، والتي ستخدم الثورة فيما بعد ، خلال وقت لاحق ، عند عودتها إلى المغرب العربي . فعلى حدود الصين ، ومن خلال الاتصال بـ "الفيت مينه" ، واقتداء بهم ، ستنشأ الأفكار والتكتيكات التي ستقود إلى استقلال تونس والمغرب والجزائر (151) . في البداية ، عندما شرع المغاربة في التوافد بأعداد كبيرة على الهند الصينية ، كانوا يشكلون على وجه الخصوص عُدّة حربية محتشمة . عند انطلاق الحرب ، كانوا يزرعون الهلع في «الفيت مينه» ، وتبين الإحصائيات أهميتهم في التشكيلة العسكرية الفرنسية ، وفي نفس الوقت تبين هشاشتهم المتزايدة في هذه المرحلة من مد الحركة الوطنية في بلدهم (152) .

كان «الفيت مينه» قد قرروا التركيز على سوء الوضع الإيديولوجي (153) وإلى ذلك ، كانت حكومة هوشي منه قد التمسّت من الحزب الشيوعي المغربي إيفاد مغاربي ماركسي يتكفل بمواطنيه الأسرى أو الملتحقين بـ «الفيت مينه» (154) لأن الأسرى الأفارقة الشماليين لم يكونوا يتوقفون عن التدفق منذ معارك «كاوانغ» بالمنطقة العليا ، ولأن هذا التدفق كان يتجاوز «الفيت مينه» . كانت مهمة معروف هي لعب دور مرب سياسي لأسرى إفريقيا الشمالية . ويبدو أن الطلب الفتنامي تم إبلاغه عن طريق الفرع الاستعماري للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي وهو الفرع

الذي كانت له علاقات وثيقة وثابتة مع القادة الشيوعيين المغاربة وتم في الغالب تحديد تاريخ ذهاب معروف كمستشار للعمل السياسي للفليت مينه المتعلق بالقوات الاستعمارية-المغاريون- ما بين نهاية 1951 وبداية 1952 (155) .

عند وصوله إلى الفتنام ، استقبل من طرف وفد رسمي ثم أخذ لمقابلة هوشي منه . معلومات قليلة متوفرة حول هذا اللقاء ، وقد قام بن عمر بجولة عبر المعسكرات التي تم تجميع المغاريين بها ، فبدت له وضعيتهم مزرية . كان المغاربة ، مثل جميع الفارين من صفوف الحملة العسكرية الفرنسية بالشرق الأقصى من مغاريين وأفارقة وأوروبيين مختارين وموزعين حسب أصناف : كانت تعطى لهم نقط وتقيم قدراتهم وبيعثون إلى معسكرات خاصة قريبة في الغالب من معسكرات أسرى الحرب (156) . كانوا يستيقظون كل صباح بأجساد مغطاة أكثر من البارحة بالدمامل وبقشرة الجرب (157) ، واهنين أكثر تاركين أنفسهم للموت من العطالة بروح يستحوذ عليها أكثر الضجر والغم والسوداوية في أقوى معانيها النفسية المرضية . كانت الحياة مضيئة دون ترفيه ودون شاي وقواعد الانضباط كانت قاسية . ملابسهم أفضل من ملابس أسرى الحرب : علاوة على لباسين رسميين وقميص وسروال ، كانوا يتوصلون بستره كندية ، أيام العمل كانت لا تنتهي في حقول الأرز وسط القرويين ، ويمنع عليهم منعاً كلياً الاقتراب من النساء .

جليل بن سعيد قناص مغربي أسر في 28 يونيو 1954 في «هاي دون» من طرف «الفيت مينه» . وقد انضم إلى صفوفهم وبعث إلى معسكر «كيم طون» في «طان هاو» ، وتمت إعادته إلى الجيش الفرنسي من قبل الجيش الشعبي للفتنام الشمالي في 15 أبريل 1955 بطلب منه .

وقد حكى أن القائد الفتنامي للمعسكر كان يفرض قواعد انضباط من حديد ويعاقب بأسلوب مغال أولئك الذين كانوا يحاولون العودة ، وهكذا ، كان هذا القائد قد سسم المغاربة أمين ومرنيس وبوبكر وريماذا والجزائري شباب ، وقد صرح صلاح ، وهو منضو كإطار تم إطلاق سراحه أنه حضر عملية تسميم كومي وستة أوروبيين وجنديي فيلق في معسكر «شاي باي» (158) .

كان معروف قد أحس في الحال أنه مسؤول عن مغاربييه ، كان يعتبر أنه يملك كافة الصلاحيات تجاههم . وقد خلق قرى حقيقية ، كل واحدة بأسراها ، منظما إياها في شكل أكواخ قش مستقلة ، جامعا الرجال حسب الجنسيات ، كان يسعى قبل كل شيء ، إلى إنقاذ الأفارقة الشماليين ، هؤلاء الأشقياء المندورون للموت ، والأناس البسطاء الضائعون في هذا البلد من آسيا : «إنهم يشكلون أطر حروب تحريرنا» (159) . كموفد للحزب الشيوعي المغربي ، كان مسؤولا عن هذه الجماهير التي أصبحت غفيرة أكثر فأكثر مع حصوله على منصب مستشار «كوفان» وإطار سام .

علاقاته مع القيادة العليا للجيش ومع ضباط «الفيت مينه» عديدة وثابتة ، فهو يقابل بانتظام هوشي منه ، ولكن أيضا جياب . وهكذا وعند كل حملة ، كان معروف يذهب مع القيادة العليا . لم يكن على الأرجح يشارك في اتخاذ القرار ، بيد أنه كان يشارك في تهيئته . كانت تتم مناقشته والأخذ بنصائحه ، بصورة أدق ، كان أحد الأشخاص المكلفين بالدعاية في أوساط العدو . أو ما يسمى بفرع «الدش فان» (160) ، هذا الأخير سرعان ما ستم ترقيته إلى مستوى وزارة أو «كو» ، كما كان يقول فتنامي كبير ، ومساعدوه كانوا يتربعون على قمة هذه المنظمة الهرمية المرتبة إداريا بشكل صارم . وهي نفسها كانت مقسمة إلى ثلاث مصالح ، كل واحدة منها كانت تستشار من قبل إطار أجنبي مساعد من قبل فتناميين ، أندري كان مسؤولا عن الشعبة الأوروبية ، معروف عن الشعبة الإفريقية الشمالية وبورشيزر عن الفيلق الأجنبي بألمانييه العديدين وكان يحدث أن يشرف الأطر السامون الثلاثة أيضا على المنضوين وعلى معسكراتهم . لم يكن عملهم سكونيا فقد كان يشمل تفتيش المعسكرات على صهوة جواد . ولاحقا عند نهاية الحرب على متن سيارة جيب وهي وسيلة نقل مخصصة لموظفي الحزب الشيوعي الهند صيني . كانوا يلبسون أخذية رائعة (161) ، وكانت مهمتهم تتمثل أيضا في إعادة النظام إلى المعسكرات إن اقتضى الأمر . كان عليهم السهر على أن يكون الأسرى قد أخذوا ما يكفيهم من الغذاء

والدواء والحماية من العقوبات الجسدية .

وقد أتاحت لبوداريل الفرصة ليسجل في عين المكان تميز دور المعروف بالمقارنة مع «المستشارين» الأجانب الآخرين للفيت مينه : «كانت وضعيته تختلف عن وضعية أندري . كان قد شارك ، كضابط صف سابق في جيش إفريقيا الشمالية ، في الحملة الإيطالية ، حيث كان قد حاز على الميدالية العسكرية ، وهو ما لم يكن ليغيب جنود طابور وقناصة متعودين على تقدير الأعمال البطولية حق قدرها ، كان له امتياز بين على أندري . فبصفته مستعمرا ، كان باستطاعته التأثير على الأسرى مباشرة لتحريضهم على القوة الاستعمارية ، لم يؤد عمله سوى إلى إعطاء مزيد من الثقل لتضامن مسجل مسبقا بعمق وبنفس القدر في المبادئ كما في العقلليات» (162) . مثل الأطر الأخرى ، كان معروف نفسه قد وجد نفسه على رأس منظمة بشكل تراتبي بضابطها وضباط صفها وكان بجانبه باستمرار نائبه المباشر «سي لاسين» وهو فتنامي ، والمترجم «هون» والجزائريان خليفة وإبراهيم المسلحان معاً ب «سكودا» وهما بندقيتان من صنع تشيكي لمرحلة الحرب العالمية الثانية ، وكان محروسا بكتيبة «بودوي» مسلحة (163) . وحسب بونافوس ، فقد كان يتمتع بحظوة كبيرة لدى ممثلي «الفيت مينه» . كان يتحدث الند للنند مع الأطر «الفيت مينين» وقادة معسكرات الأسرى (164) .

كان بن عمر يبذل ما في وسعه لإيجاد الوسائل الكفيلة ليجنّب مواطنيه الانحطاط المعنوي والضجر والحمول وسوء التغذية . ويحتفظ أرشيف مخابرات الجيش الفرنسي بأثار مجهوداته ، كان يزور باستمرار مختلف معسكرات الأفارقة الشماليين ويتردد كثيرا على المعسكرات 114-115-144-39 . كان يفتش من وقت لآخر المعسكرات الأكثر بعدا عن المعسكر 123 وكان غالبا ما يزور المستشفى 128 ، وكان يتكفل في كل مكان بالمسائل المادية ويقوم بزيارات للمطابخ والعيادة والمستشفى وكثيرا ما كان يزيد في جودة الطعام المشترك ويعطي حقنا بالمستشفى ، كان معروف متأثرا على الخصوص بالعدد الكبير للوفيات وسط المغاربة وقد حصل من حكومة «الفيت مينه» على إنشاء معسكر مستشفى وعلى تعيين طبيب أسير بهذا المستشفى ، الطبيب-الضابط أرمنسترونغ من المعسكر رقم 1 كان قد تم اختياره نظرا للاطلاع على أمراض العمال ، الذي كان يمتلكه في نظر سلطات «الفيت مينه» ، فالتحق القبطان إذن بمعسكر الأفارقة الشماليين رقم 145 الذي كان يضم المواطنين المغاربة .

في أعقاب معركة «ديان بيان فو» والموجة المكثفة التي عرفتھا المعسكرات التي أنشئت للمغاريين والألمان ، حصل أرمنسترونغ على مساعدة طبيبين آخرين من المعسكر رقم 1 وهما الطبيبان القبطانان بيرو وفير .

الطبيب القبطان بيرو استطاع التقاء معروف القادم لتفتيش المعسكر ، وقد اشتكى الطبيب من عدم كفاية الأدوية فأعطى معروف الأمر للمفوض السياسي التابع للفييت مينه لتزويد المعسكر بالأدوية مسائلا إياه بعنف : «أعداء الشيوعية الحقيقيون هم أنت من خلال الصورة التي تعطيها عنها» .

للتخفيف من اغتراب إخوانه ، كان بن عمر يحاول إعادة خلق مناخ إفريقي شمالي : تحسين التغذية ، إنشاء أوراش ، خلق تعاونيات صغيرة ، تنظيم مباريات في الكرة الطائرة ، إضافة إلى ذلك ، كانت للأسير ، الأمي تقريبا ، إمكانية حقيقية للحصول على حد أدنى من الثقافة السياسية من خلال تنظيم دروس وندوات ثقافية وحفلات غنائية .

كان يبدو أنه نجح في إعادة تنظيم الحياة في المعسكرات بشكل إنساني . كما كان يبدو أيضا أنه أدى جيدا مهمته التي كانت تتمثل في السهر على التطبيق الجيد لتوجيهات «طونغ بو» من قبل رؤساء المخيمات (165) .

أما فيما يخص التكوين الماركسي الملحق للأسرى لتكوين مناضلين مفترضين للأحزاب الشيوعية بالمغرب العربي ، فقد كانت له نتائج متغيرة وهي واضحة بشكل أقل في الحالة المغربية ، قلة من المغاربة مثل س. ب. وهو عجوز ما زال يعمل بجزيرة كورسيكا ، انتسب إلى الحزب الشيوعي المغربي في الوقت الذي كان يؤيد ، وهو

في الفيتنام ، نفي محمد الخامس . في هذا الإطار ، تتضمن أرشيفات الجيش الفرنسي بعض النتف من الأخبار استنادا إلى المعلومات المقدمة من قبل أسرى الحرب الأفارقة الشماليين ، والمجموعة من قبل القبطان «هاب» ، رئيس مصلحة الاستخبارات للشؤون الإسلامية ، هذه الأخبار تشير إلى محاضرة لابن عمر ألقاها في المعسكر رقم 44 ، حيث صرح أنه غادر المغرب رفقة 700 طالب مغربي لمحاربة فرنسا والاستعمار ، فأين كان هؤلاء الطلبة؟ في موسكو؟ في جميع الأحوال ، لم يكن لهم أي أثر في الفتنام ، وقد أنهى ابن عمر محاضراته مستنتجا «عودوا إلى بلدكم ووظفوا قتاليتكم في تحرير بلدكم» (166) .

بعض المعلومات أشارت إلى تدريب على القتال لأطر من بين الفارين ، وقد يكون من بين الأهداف آنذاك ، على ما يبدو ، هو تكوين أطر الثورة في دول المغرب العربي . الجيلالي بن سعيد ، الوارد ذكره أعلاه أخبر المصالح الخاصة التابعة للجيش الفرنسي أن المدعويين عبد القادر مغرور ، صلاح ، مصطفى ، العربي الطيبوني وواج المفرج عنهم كانوا في الحقيقة مكلفين بمهمة في إفريقيا الشمالية (167) .

في هذه الفترة تقريبا ، راجت إشاعات ذات دلالة ، وهكذا أشارت مجلة «باري ماتش» في مقال صادر في يوليوز 1945 إلى قصاصة من تونس تحمل عنوان : «إرهاب أت من بعيد» . وحسب

القصاصه ، فإن مصالح استخبارات عهد الوصاية كانت تعتبر «الشوار الجزائريين (الفلاقة) مؤطرين من قبل جنود قدامى أفارقة شماليين أسروا على يد الفليت مينه وموجهين مذهبيا في تشكوسلوفاكيا ومدرين في طرابلس الغرب . وحسب هذا المصدر ، فإن القصد الأول للفليت مينه ربما كان هو تكوين عناصر للتحريض تعمل في إفريقيا الشمالية ، (مثلا رجل) ، أغلبهم مغاربة ، قد يكون تم اختيارهم لتحقيق هذا الهدف بتأطيرهم للفلاقة ، وهكذا تظهر تغذية الاضطرابات العسكرية في إفريقيا كمناورة استراتيجية للقيادة العليا «الفليت منه» التي تأمل ، عبر فتح جبهة ثورة ثانية ، في حرمان فرنسا من جنودها الاستعماريين . وحسب مصالح الاستخبارات لعهد الوصاية ، فإن أسرى الحرب القدامى و بعد انتقائهم ، تم اقتيادهم إلى الصين ثم إلى معسكر «سفالتياكلا» في تشيكوسلوفاكيا ، حيث من المحتمل أن يكونوا قد قاموا بتدريب لعدة شهور . من هنا كانوا يتوجهون إلى القاهرة ثم إلى ليبيا حيث قد تكون قد أعدت قواعد خلفية ، وهكذا أراد أن يكون الإرهاب التونسي استخدم كتجريب للإرهاب الذي كانوا يعتزمون شنه على نطاق واسع في بلدهم (168) . كاميليا تؤكد بصورة قاطعة إن هذا الخبر مستبعد . فالفتناميون كانوا في حالة حرب ، يعيشون الزمن الحاضر ، أي الحرب ضد الفرنسيين ، وهكذا كانت لجيشهم ما يكفي من الهموم الآنية كيلا يفكروا في تنظيم معسكرات تدريب لحرب ثورية

مستقبلية . ربما كان يحصل للفيتناميين أن يتمنوا خلال بعض المناقشات إمكانية تنشيط جبهات أخرى . وخلال حضور الفيتناميين كان المغاربة يبدون ترحيبهم بذلك ليسوا ذلك في أقرب وقت ممكن فلأنه جرى التأثير عليهم سياسيا أكثر منه عسكريا ، فإنه يبدو أن غسل الدماغ لم تكن له فعاليتها عليهم .

نلاحظ مع ذلك أن كبار المسؤولين الفيتناميين كانوا قد اقترحوا ، إنشاء مفزة الاستقلال الإفريقية الشمالية بغاية تكوين أطر «من أجل المستقبل الإفريقي» (رسالة لوميان ، وزير فيتنامي سابق للحدود ، مفوض سياسي لـ «ديان بيان فو» ، وصديق كبير لابن عمر ، رسالة بتاريخ 6 أبريل 1994) . غير أن مسألة إنشاء المفزة أثيرت قبل مجيء بن عمر بكثير .

وحسب الرأي السائد أكثر ، فإن فعالية عمل معروف تبدو واضحة أكثر من خلال حالة مئات الجزائريين المرحلين إلى وطنهم والذين يكونون قد شكلوا أطرا عسكرية ممتازة لجبهة التحرير الوطني الجزائري ابتداء من 1954/1955 . كان الأمر يتعلق بشيوعيين ذوي قناعة ، أعضاء في الحزب الشيوعي الجزائري ، كانوا على ما يبدو محط شكوك من قبل جبهة التحرير الوطني التي كانت تعتبر تكوينهم الماركسي خطيرا . وقد تم إبعاد أغليبيتهم أو تصفيتهم خلال عمليات التطهير الكبرى التي تمت بالولايات الجزائرية (169) .

تحكي كاميليا : «في الجزائر العاصمة التقيت في 1974

بمجندين جزائريين . كان الأمر يتعلق بأشخاص يؤساء عادوا إلى بلدهم ، قلت لهم وأنا أعرف أنهم شاركوا في حرب الهند الصينية ، إنني زوجة معروف ، فاستقبلوني كإلهة وطلبوا مني صورة لمعروف علقوها في صالونهم . . . » .

مبدئيا ، لم تكن معسكرات الأسرى الفرنسيين من مسؤولية بن عمر ويعتبر بوداريل في «سيرته الذاتية» أنه لم يقم بتفقددها وعندما سأله عن وضعية الأسرى الفرنسيين اكتفى بن عمر بتكرار عبارة «ينبغي الاستجابة لحاجيات الجماهير» .

وفي المقابل ، كان ثراثا أكثر وإلى حد بعيد عند الحديث عن الحالة في معسكرات المنضوين التي أصبحت حسب أقواله «فوضى كبيرة حقيقية» . وقد كان رئيس الفرقة الفتنامي قد ترك نفسه ، بعد أن تجاوزته مشاكل برج بابل يضم مواطنين من حوالي عشرين جنسية ، ينخدع بمستشارين إيطاليين كانوا يفرضون دكتاتوريتهم الخاصة وقد قال لي معروف إنه استطاع أن يحصل من الفتناميين على إذن بإيفاد القبطان الفرنسي ريبيرا إلى المعسكرات خلفا للقائد الذي كان قد أبان عن عدم كفاءته (170) .

في وقت لاحق ، أخبر بوداريل بن عمر عن الوضعية داخل المعسكر 113 «دعوته إلى أن يطالب معي بتسريح المعسكر بكامله لأن ذلك برأيي أفضل حل وذلك من مختلف وجهات النظر ، وقد رد بأنني على صواب من الناحية السياسية . لكنه ذكر بالجانب

الاستراتيجي للمسألة ، فظهور علامة ضعف كان من الممكن أن ينظر إليه بصورة سيئة في الجانب الفرنسي في الوقت الذي كانت تهيم بشكل بين تماما ، عملية عسكرية هامة محورها قد يكون موجهها دون شك صوب الشمال الغربي . وكانت عملية إنزال ضخمة جدا بالمظلات قد تمت للتو في ديان بيان فو . . « (171) .

كانت «إيزو» ، وهي رفيقة ألمانية ، أطلق عليها أيضا اسم «فيتت نهو» أحد الأطر المساعدة لمعروف (172) ، وهي أوروبية ألقى بها في الحرب الأهلية ، شقراء جميلة محبوبة من لدن الفيتناميين وقد أصبحت ، إطارا في «ديتش فان» وتلقت المبادئ الأولية لقضايا التربية السياسية .

عينت بالمعسكر 114 حيث التقت بمعروف المسؤول عنه ، ومن 1952 إلى 1954 ، عاشت به في كوخ من قش مريح نسبيا وهي تساعد الإطار العالي للحزب الشيوعي المغربي شاركت في التربية السياسية والأخلاقيات لأسرى الأفارقة الشماليين كمرضة ، لكن كذلك كمنشطة ثقافية ومنظمة ألعاب وأغاني ورقصات كانت تعلمهم الأغاني الفيتنامية والرقصات الشعبية وتنظم الحفلات . كانت فيتت نهو بالقرب من هؤلاء المنفيين ممرضة ومساعدة إنسانية في نفس الوقت ، وكانت تجسد على الخصوص حضورا أنثويا ، كانت «إيزو» تقيم في المعسكر 114 مع زوجها الملازم الأول «أنغ فين» ، رئيس المعسكر ، كانت المعسكرات تتجاور وكان معروف بصفته

مستشارا يذهب إلى كل المعسكرات ، كان لديها عمل محدد في المكان وكان معروف يلتقيها بشكل عرضي ، وعندما يكون مارا كانت تتحمل طبعه الانفعالي والنبيل وسيتزوج معروف صديقة «إيزو» ، كاميليا .

في باريس ، في مقهى بزقة كاردينال لوموان ، حدثتني كاميليا زوجة بن عمر ، التي وجدتها أخيرا ، عن الظروف التي عرفت فيها الرجل الذي أصبح زوجها .

«ولدت في هانوي في 11 غشت 1929 ، أمي ابنة لأب أوروبي وأم آسيوية ، وكانت أمي فرنسية وجدتي فيتنامية ، وهذه الأخيرة نفسها كانت خلاسية ، كان أبي موسيقيا ذا أصول بورجوازية ، كان اسمه بواسينيون (173) ، وكان مؤسس المعهد الموسيقي لهانوي ، وكان عازف بيانو ذا سمعة طيبة في هانوي ، وكان معروفا على الخصوص بسخائه مع الفقراء ، أمي نفسها كانت نحلة قبطان في الجيش الفرنسي وقع في حب فتنامية ، كان قد توفي إثر حادثة سير لكنه اعترف بأمي كابنة له وطلب من أحد الضباط أن يكون وصيا عليها . كانت تحمل إذن اسم أبيها شارل جوزيف سيغوني ، وقد أودعت أمي لدى الراهبات .

كنت أقيم في هانوي مع أمي ، وكنت قد حصلت بها على الباكلوريا ، وكان الجنود الفرنسيون التابعون للكتيبة الثانية للمدرعات بقيادة لوكليرك وماسي قد وصلوا لتوهم ، وكان الجيش الفرنسي

يخلق مناصب شغل ، فكان بإمكان الفتيات أن يجدن عملا بسهولة ، كنت أعرف الضرب على الآلة الكاتبة ، وقد تم توظيفي أنا وأختي كضاربة على الآلة الكاتبة لدى مراسلي حرب وكالة الأنباء الفرنسية .

عايشت الهجوم العام الذي تعرض له الجيش الفرنسي على يد الجيش الشعبي الفيتنامي . خلال هذه الانتفاضة كانت المعارك قاسية تدور في الشارع تلو الشارع والمنزل تلو المنزل . كنت قد احتجزت كرهينة في 19 دجنبر 1946 رفقة أشخاص آخرين ، كان ذلك يجري في ضاحية هانوي ، أتذكر الهجوم بالقنابل اليدوية على المقر الذي كنت موجودة به ، المهاجمون كانوا مضطرين لإضرار بالمنزل الذي كنا موجودين به ، كانت المعارك مشتعلة في الأزقة والأماكن المجاورة ، وكنا نكث مدة قصيرة في المكان نفسه ، كنا نتنقل باستمرار حاملين معنا حصيرا من قصب وثلاث طنجرات ، وعدا ذلك كانت هناك عدة معسكرات جمع فيها حوالي مئتي ألف شخص ، وقد مكثنا بها إلى غاية 1951 وبعد الإفراج عن الأسرى ، كنا اثنتين أرادتا البقاء «إيزو» وأنا .

كانت «إيزو» كمساعدة طبية في المعسكر 113 أولا ، قد ذهبت على الفور مع الجيش لشهرين أو ثلاثة أشهر بعد اعتقالها ، أما أنا ، فكمعارضة وعلى علم بأن أب أخواتي كان قد ألقى عليه القبض في الجنوب ، فقد قررت البقاء كمتطوعة .

تم تعييني كمساعدة صحية ، وبعد ذلك أدمجت في الجيش الشعبي ، ثم تلقيت الأمر مع وحدتي العسكرية بالذهاب من أجل العمل في المنطقة العليا في قلب الغابة بـ «طاي نكويين» .

وقد التقيت معروف وتزوجت منه في خضم الذهاب والإياب الجنوني لحركية تلك الفترة (174) . بينما تروي كاميليا لي حكاية حياتها العاصفة كمساعدة صحية بالجيش الشعبي ، وحياتها المترحلة في معسكر الفارين وأسرى الحرب وحكاية لقاءها مع معروف ، تذكرت مقولة لـ «هربرت ماركيز» ، هل في مقدمة أم خاتمة كتابه «إيروس والحضارة»؟ على أي حال ، كان الأمر يتعلق في تلك المقولة بالحب في هانوي ، وقد بحثت منذ ذلك الوقت ووجدت هذا النص في كتابه «نهاية اليوتوبيا» ويشير فيه «ماركيز» إلى حكاية قصيرة طالعها في مقال عن الفيتنام الشمالية قد ترك أثره فيه بشكل عميق «كان مقالا مفصلا جدا ، يبين فيه ، من ضمن أشياء أخرى ، أنه في الحداثق العمومية تم وضع المقاعد بشكل يسمح لشخصين ولشخصين فقط ، بالجلوس عليها حتى لا تتاح للفضولين حتى الإمكانية التقنية لإزعاجك» (175) .

كنت أفكر يا كاميليا في أنه ليس لي الحق في أن أسألك كيف التقت نظراتكما لأول مرة ، كيف أسرتما قلبي بعضكما؟ كيف انتهيت يا كاميليا ، إلى عشق هذا الرجل القادم من أعماق الأطلس ، هذا المبشر بالثورة هذا الشخص العابر ، المنشق المحترف

ورجل الحدود .

إنني أعرف أنه ليس الشغل العاطفي أو الشبقي لآسيا ،
ولكنها نظراتك الزرقاء الصافية نظرات أوراسية أو خلاسية كما
تقولين بكثير من الدقة ، هي التي أسرتني (176) .

«لم يكن الأمر يتعلق بقصة تشبه الشريط السينمائي
«أندوشين» (هند صينية) هكذا انتهت كاميليا بالإجابة عن السؤال
الذي كانت تقرأه في عيني ، لكنني أحببت محمد لأنه كان ينضح
حياة وعاطفة كان يفيض سطوة ويحب الضحك . .» .

تسلمني كاميليا صورها مع بن عمر ، إنها ببساطة جميلة في
سن النضج ، الجبين منتصب ، الأنف سوي ، الشفتان مرسومتان
بدقة ، ملمح كرامة ينبعث من قسماتها المتناسقة ، ازدهاء يشع من
نظراتها ومن بؤبؤها الحاد . الألوان ، كثيفة لون البشرة يميل إلى
الداكن ويمنح حضورها هالة نبيلة ، حركتها أرستقراطية سلطوية .
كانت لمعروف هيبية ، لغته حادة وكان يتكلم فرنسية سليمة ، وكان
من عاداته أيضا أن يخاطب رفاقه بعربية متقنة ، كان يحب أيضا
الترف والحياة العاطفية ، لكنه كرجل نشيط ذكي ويفتخر بذكائه ،
كان قد تعلم كذلك أن يكون آسيويا ، طيبة قلبه تخفي ثقته في
النفوس ، كان يعرف عندما يرغب في ذلك كيف لا يكشف عن
نفسه وكيف يختبئ خلف الهدوء ، ومن وقت لآخر في قلبا
العمل ، كان يهزه الحنين إلى البلد ذات يوم ، مرضى مرضا خطيرا

لإصابته بالمalaria ، وكان هذا المرض قليل الشيوع ، وكاد أن يهلكه لكن تم إنقاذه بصعوبة وإلى حد كبير ، لأن المعسكر المغربي كان قريبا من المستشفى المركزي للفتناميين ، الذي يبعد بالكاد بحوالي ثماني ساعات مشيا ، ويذكر بوداريل « بينما كنا نصعد الطريق على الضفة اليسرى ل نهر «كلير» لتتوقف في معسكر أقيم مؤخرا ، غيرت وجهتي وذهبت لزيارة معروف الذي كان قد شفي للتو من ملاريا حادة وخبيثة ، كانت قد زعزعته بشكل جدي ، لكن الحظ وبنيته القوية سمح له باستعادة قواه . بالفعل ، لم يكن يوجد سوى على بعد حوالي 20 أو ثلاثين كلمترا من المستشفى المركزي ل «شيم هوا» ، وكان مغارية قد حملوه إليه بالتناوب دون توقف في غضون بضع ساعات ، على محفة وبخطى رياضية وهكذا تم إنقاذه بمعجزة» (177) . الدكتور «أن نونغ» رئيس المستشفى كان جراحا ذائع الصيت . «جورج بوداريل» قام بزيارة معروف عدة مرات ، وكان بن عمر يتحدث آنذاك بشكل مهووس عن المغرب ، كان يعطي الانطباع بأنه يتابع عن كثب آخر تطورات الوضع ، وهكذا كان يتحدث مرارا عن «اليد السوداء» ، التنظيم الشيوعي المغربي للمقاومة المسلحة وبقى مطلعا على آخر الأحداث ، كان يقرأ لموند ، ليكسبرس ، نشرة وكالة الأنباء الفتنامية التي تعيد نشر أخبار جميع الوكالات علاوة على المعلومات السرية للحزب الموضوعه رهن إشارة الأطر الذين هم في مستواه (178) .

من الفيتنام كانت تصل تقارير إيجابية إلى علي يعته ،
الأمين العام للحزب الشيوعي المغربي حول سلوك ونشاط وفعالية بن
عمر ، منذ مغادرته المغرب إلى غاية معارك «ديان بيان فو» .

لقد شكلت «ديان بيان فو» لحظة قوية أخرى في المهمة
الفيتنامية لابن عمر ، فمنذ بداية شهر دجنبر 1953 ، تم استدعاؤه
إلى القيادة العليا لجباب ، مثل أطر عليا أخرى تابعة لديش فان مثل
بروشيرز (179) وريبريا (180) وآخرين . مجموع أطر الفيت مينه ، بمن
فيهم الأجانب الذين كان بإمكانهم أن يكونوا مفيدون بشكل أو
بآخر خلال المعركة الكبرى التي كانت تتهيا ، كان قد تم
استدعاؤهم .

وبموازاة مواصلته لأنشطته السابقة ، كان معروف يتجند من
أجل «ديان بيان فو» بالفعل ، وكما هو شأن جنود الفيالق ، كان
الأفارقة الشماليون يحتلون مكانة مهمة في الحامية العسكرية
الفرنسية . كان الأفارقة الشماليون حاضرين انطلاقا من المراكز
المتقدمة ، مرهقين بالقذائف لماذا كانوا موضوعين في دومنيك وفي
إليان؟ على أي ، كان الضغط قويا عليهم . كان الديش فان يخاطبهم
عبر مكبرات الصوت والمناشير : أيها الجنود استسلموا! ستلقون

معاملة حسنة ، لا تنتظروا حتى الموت (181) . نفس الصور التي تم نقلها طوال مدة حرب الهند الصينية ، عبر الاسطغرافية الفرنسية ذات النزعة العسكرية ، التبسيطية والمختزلة ، تتكرر بمناسبة «ديان بيان فو» . «كان الأفارقة الشماليون يفرون أو يقاومون حسب تقلبات حساسيتهم البسيطة ، البدوية وحسب منظورهم للقدرية وللموت وللشهيد القرآني ، ولم يكن ثمة موقف وسط» (182) .

في خضم المعترك الكبير لـ «ديان بيان فو» ، برز أولئك الذين لقبوا بـ «فشران» نام يونغ ، وهم فارون من قلب المعسكر المحصن نفسه ، رفضوا الفرنسيين والفيتناميين معا :

كانوا ينزلون للاختباء في أجراف نهر نام بام الذي يسمح بإيجاد مخابئ في تشكيل خط ملتو مع حفر ومخابئ في قدم «إليان» . ومن عدد قليل في البداية ، أصبحوا 1500 فيما بعد من جميع الجنسيات . وربما كان من ضمنهم عدد كبير من الأفارقة الشماليين (183) . هاهم الجرابات والصناديق التي ألقيت بالمظلات صدفه أو ينشلون الجنود القتلى . وعندما سيظهر الجنود الفيت مينيون في 7 و8 ماي سيرفع هؤلاء الفارون الراية البيضاء أوتوماتيكيا وهم سعداء بشكل جلي ، منتظمين بالتتابع في طوابير كأسرى خاضعين . كان هناك أفارقة شماليون آخرون سيستعملون كلمة «رفاق» وهم يرفعون أيديهم ، وهي كلمات كانوا قد حفظوها وهم يقرأون المناشير التي كتبت من أجلهم بالعربية أو بالفرنسية (184) .

لا ريب أن الضغط النفسي والسياسي الممارس على المغاربة، أعطى ثماره، فلو كان المغاربة العشرة آلاف متحفزين بنفس القدر مثل المظليين السبعة آلاف، هل كانت «ديان بيان فو» ستقع رغم كل شيء؟ لكن هؤلاء المحاربين القادمين من بلدان الشمس الغاربة، كانوا يرون جيدا أن الفيتناميين يناضلون من أجل حريتهم. كانت أخبار التجند المتزايد لشعوبهم نفسها للنضال من أجل التحرير تتزايد، وكانوا من جانب آخر يحسون بشكل متنوع، بفروض الوفاء والارتباط إزاء رفاقهم الفرنسيين في الحرب.

فالمعضلة النفسية التي كان يعيشها الجندي القناص المغربي لم يكن من اليسير حلها. مع ذلك، كانت مشاهد الإقدام والتضحيات الكبيرة عديدة حتى خلال الأسر، إلى درجة أنه يمكن اعتبارها أحداثا روتينية.

عاش معروف معركة «ديان بيان فو» كليا. وسيظل مغرما بها حتى نفسه الأخير، انطلاقا من الإعداد لها والأشغال المرتبطة بها إلى غاية الهجوم النهائي.

وحسب العديد من الشهادات، فإن أدائه ربما كان بطوليا تمام البطولة، لقد كان ضمن الوحدة التي قد تكون قامت بأسر دي كاستريس. تحكي كاميليا: «جاءني بحمالة ربما كانت في ملكية دي كاستريس. وقد أهديتها لاحقا للسينمائي السوفياتي رومان كارمن...».

علي يعة يتذكر أيضا «عند توزيع البقايا الثمينة للجنرال دي كاستريس ، كان قد أخذ قلم رصاص أهده لي عند عودته إلى المغرب ، وما زلت أحتفظ به . كان قد تحصل ذلك على فرس دي كاستريس (185) ، وتبنى كلبه أيضا .

سيحصل معروف من الفيتناميين على ميداليات من أعلى الدرجات وعلى رتبة جنرال ، وهي رتبة استثنائية تشهد على التقدير الكبير الذي كان يحظى به كبطل . كل المكافآت منحت له سنة 1955 . وخلال لقاء الحركة الشيوعية في موسكو سنة 1960 ، ثم لاحقا في هانوي سينني هوشي منه لعل يعة مطولا على عمل معروف (186) .

قد لا تكون نصوص وجدت في الصحافة عنه ولا عن المستشارين الآخرين خلال مقامهم الفيتنامي ما دامت مهمتهم مطبوعة بخاتم السرية . كانت حياة معروف وكاميليا سلسلة من المهمات في معسكرات القاعدة . كانا يعيشان حركة تنقل متواصلة بين هذه المعسكرات بدون أي رسو وإلى غاية نهاية الحرب . في النهاية ، ثمة استقرار قليل في حياتهما ، كانا على العموم يتواجدان معا ، لكنهما كانا يغيران منازلهما ومقرات عملهما باستمرار (187) .

في عام 1954 ، كان على عاتق معروف ومساعديه ترحيل جل الأسرى الأفارقة الشماليين : «جرى ذلك في توين كانغ ، كما تذكر كاميليا ، في منطقة التلال العليا والمنطقة الوسط ، كان الأمر

يتعلق بمدينة على نهر كليبر بها بقايا قلعة ، كان الفرنسيون قد حوصروا بها سنة 1882 . وكان رقيب يدعى بوبيو قد اشتهر بها قديما . في هذا المكان تم الإفراج عن الأسرى ، وأنزلناهم النهر ثم انطلقنا عائدين إلى هانوي (188) .

كان الأسرى يذهبون ، لكن الجنود المنضوين كانوا يمشون ، ومع نهاية الحرب أصبح مشكل المنضوين يزداد صعوبة أكثر فأكثر . فظالما أن الحرب كانت مستمرة ، فإن الفيتناميين يعتنون بهم وربما لم يكونوا يستطيعون العودة فقد كان من اللازم إسكانهم وإطعامهم إلى غاية ذهابهم .

بوجات متعاقبة ، كان جنود إفريقيا الشمالية يعودون مثل الآخرين إلى بلدانهم . في عام 1960 ، كان هناك أيضا موكب كبير لترحيل منشقين أفارقة ماليين (حوالي مئة جزائري) في اتجاه الجزائر مروراً ببيلغاريا . الفارون وأسرى الحرب شرعوا في العودة إلى البلد ، وتسمح ردود فعل القبطان «بروا» رئيس المكتب المركزي للشؤون الإسلامية المكلف باستقبالهم بتقدير بعض النتائج المرتبطة بعمل معروف وبمجرد مرورهم بمعسكرات إعادة التربية الفييت منه فقد انتبه القبطان إلى تغير عقلية القناصة ، فعبر لرؤسائه عن مخاوفه ، وهكذا أشار إلى الانطباع السلبي الذي تركته لديه عناصر الفوج الثاني والفيلق الثالث للقناصة الجزائريين . وكان أحدهم قد عبر بصراحة قائلا : «انظروا إلى هؤلاء الصينيين (كان يتكلم في الواقع

عن اللاوسيين) ، لقد أصبحوا مستقلين ، في حين أنهم ليسوا قادرين حتى على حمل بندقية» (189) .

كان القبطان «بروا» يدعو إلى الحيلة مذكرا بأن الإفريقي الشمالي الذي يقاتل من أجل فرنسا تم تجنيده من بين المدنيين ، وأنه كان يقضي فترة محددة في التجنيد ، ويكون مدعوا إلى أن يصبح من جديد مدنيا في يوم من الأيام . كانت الظروف تبدو له إذن مواتية لازدهار حالات ثورات ، تقارير الضابط الفرنسي معبرة تماما عن عمق التحولات التي طرأت على الثقافة السياسية للجندي القناص . في خلاصة كتبها عن الإفراج والاستقبال والإقامة ، وعن معسكرات الفيت مينه ، يركز القبطان «بروا» على الأساليب المتبعة من قبل أطر الجيش الشعبي للفييتنام الشمالية لوسم عقلية الأسرى الأفارقة الشماليين : «في ليلة من شهر مارس 1954 ، اقتيدت مجموعة من أسرى الحرب إلى الطريق RC7 ، وفي مكان معين أعطى الرتيب الفيت مينه الذي يرافقها الأمر لبعض رجاله بإزالة الطبقات الأولى للإسفلت الذي ظهرت تحته عظام بشرية» .

وقد أوضح الضابط الفيت مينه قائلا : «تحت هذه الطريق تم دفن أجساد أولئك الذين رفضوا أن يسيروا خلفنا في النضال من أجل حرية واستقلال بلادنا . بإمكانكم أن تحفروا في أي مكان ، حيث لن تجدوا على مدى 50 كلمترا سوى بقايا خونة الأمة ... استلهموا هذه العبرة أيها الجنود المسلمون الذين لم تستطع أسلحة

الألمان الأكثر تطورا أن توقفكم خلال الحرب العالمية الأخيرة .
استلهموا انتصاراتكم ب كاسينو وكاريكاليانو ، فبدونكم لم تكن
لتحرر فرنسا أبدا ، فرنسا هذه نفسها التي أعدتم لها الحياة تكافئكم
اليوم بسوء» (190) .

قبل الإفراج عن الأفارقة الشماليين كان الفيت مينه يقدمون
لهم بعض النصائح : أن يحتاطوا بصورة منهجية من مرؤوسيههم ،
الحذر خلال عمليات الاستنطاق وخلال أيام الإجازة ، والحرص على
أن يجري الاتصال برؤساء الخلايا في أمن تام (191) .

لماذا لم يكن لذلك على الساحة سوى آثار إن لم يكن لا
يعتد بها فعلى الأقل هي آثار ثانوية ، ما عدا الجزائر . الفرنسيون
تبنوا في الحقيقة ردودا عديدة على هذا الوضع كتمديد عملية مغادرة
الجنود الأفارقة الشماليين بغاية احتواء التهديد الذي يشكلونه أو
إيفاد الوحدات العسكرية التي تعرضت لأكبر تأثير إلى ألمانيا أولا
حتى يتم التمكن من تقويمهم أو إعطاء أسرى الحرب علاجا ضد
التسمم الفكري على يد ضباط للشؤون المدنية على متن البواخر
العائدة بهم إلى ديارهم (192) .

ويروي العقيد الهاشمي الطود ، الأستاذ بالأكاديمية العسكرية
الملكية بمكناس : «حوالي نهاية 1957 ، على ما أذكر أو يناير 1958 ،
كنت أوجد على الحدود السودانية عندما تمت المناذاة عليّ من طرف
لجنة تحرير المغرب العربي للانضمام إلى وفد جزائري سيتوجه إلى

الصين الشعبية . وكان وفد يمثل جيش التحرير الوطني الجزائري مدعوا إلى زيارة الصين ليحصل بها على مساعدة وعلى تكوين لأطره . كنت أرافق حوالي 30 شخصا ، كنت أشرف على تدريبهم في القاهرة ، كانوا من مختلف التخصصات : الإرسال ، الهندسة ، الطيران . . . وكانت الأدبيات الغربية تصنفني آنذاك كعميل لحزب الاستقلال» .

«من بين أعضاء الوفد الذي استقبلنا رسميا ، كان هناك الجنرال معروف الذي جاء مباشرة من هانوي ضمن وفد فيتنامي . وقد عرض خدماته وخدمات مغاربة آخرين من أجل مهمة تحرير المغرب العربي ، وأعطاني رسالة موجهة إلى عبد الكريم الخطابي بلغتها إلى هذا الأخير بمجرد عودتي» .

تحدثنا مدة طويلة ، وأطلعني على ظروف مجيئه إلى الفيتنام . كانت إقامتنا قد دامت بضعة أيام زرنا خلالها معسكرات ومنشآت عسكرية . وغالبا ما كان يأتي لرؤيتنا . كان عمره خمسين سنة ، يرتدي الزي العسكري للجيش الفيتنامي . كنت أستعمل كلمة «مجاهدين» أو «شهداء» فكان يصحح لي ، كان يقول ضاحكا : **أنا** لا أعرف سوى كلمتي «رفاق» و«مناضلين» (193) .

بعد «ديان بيان فو» وانتهاء الحرب في الشمال ، لم يعد لمعروف بالضبط نشاط عسكري ، وخلال سنتين أيضا ، سيقوم بعمل هام وصف من قبل التقارير التي بلغت مصلحة استخبارات الشؤون

الإسلامية ب «الايجابي» و «الإنساني» . كان ينظم عمليات الترحيل الاختيارية للأسرى والفارين الذين لم يعد الفيتناميون يرغبون فيهم . وكان يشرف ، كما في السابق ، على تنظيم معسكر المغاريين (مغاربة ، جزائريون ، تونسيون) الذين ظلوا هناك لأن المشاكل المطروحة كانت في الوقت نفسه سياسية ، ثقافية واقتصادية ، كما أن مهامه ذات الطابع الاقتصادي تكثفت .

كان بن عمر قد اعتنى بشؤون المغاريين لبعض الوقت في ظروف الحرب ، وبعد الحرب استقر المغاربة والجزائريون والتونسيون ومارسوا الزراعة في إطار تعاونيات فلاحية : أعطيت لهم أراض وتم تجميعهم في المناطق الشمالية للفيتنام . وهكذا قد يكون حوالي أربعين إفريقيا شماليا استقروا في معسكر قليل التنقل . بعد وقف إطلاق النار في 1954 ، أنشأ هؤلاء المغاريون الفارون من بلدتهم في قدم جبل كاكي ، تحت إشراف المساعد السابق لمعسكر رقم 114 ، ثم هاجروا إلى سان طاي حيث اتخذوا لهم زوجات ، متكلمين لغة فيتنامية لها نبرة مغربية واضحة ، عاملين بالتعاونيات ، وقد بدا للمراقبين أن اندماج المغاريين اندماج تام بخلاف الأوروبيين .

في لقاء الحركة الشيوعية الدولية بموسكو في 1960 ، كان علي يعة وعبد السلام بورقية يمثلان الحزب الشيوعي المغربي ، وقد التقيا هوشي منه الذي حدثهما مطولا عن بسالة الجنود المغاربة

الذين ناضلوا إلى جانبهم ، ومدح بن عمر واقترح أن يوصلهما إلى الفيتنام حتى يلتقيا به وبباقي المغاربة الذين كانوا وما زالوا موجودين هناك . كان الأمر يتعلق بالمساهمة في جعل الجنود المغاربة الذين كانوا ينتظرون الضوء الأخضر من السلطات المغربية ليتم ترحيلهم إلى وطنهم ، يتحلون بالصبر ، فسافر يعبته وبورقية على متن الطائرة رفقة هوشي منه على أنه سيتم استقباله رسميا كرئيس دولة لهذا كان على ضيفيه أن يظلا في الطائرة بعض الوقت إلى أن تنتهي المراسيم وكان عليهما أن يلتقيا به مجددا في وقت لاحق . (194) .

قبل ذلك كان هوشي منه قد وجه رسالة إلى الملك محمد الخامس يخبره فيها أن مجموعة من الجنود المغاربة كانوا قد شاركوا في معركة الفيت من وساعدوا الفيتناميين ، وأن مهمتهم كانت قد انتهت اليوم (195) ، كانوا يرغبون في العودة إلى وطنهم ، فكيف كان بإمكان المغرب المستقل أن يرفض استقبالهم؟ يبدو أن السلطات المغربية كانت قد انتابتها في مرحلة أولى بعض المخاوف من أن ترى توافد مثل هذا العدد الكبير من المحاربين المتعودين على الحرب الثورية والخاضعين خلال مدة طويلة للتأثير «البيداغوجي» للمفوضين السياسيين لمعسكرات الفيت مينه . لم يعط رسميا أي رد إيجابي على طلب الرئيس الفيتنامي . زيادة على ذلك فإن الحزب الشيوعي المغربي كان يعيش ظروفًا صعبة مع أنه كان حزبا شرعيا .

بمناسبة هذه الزيارة ، طرح الأطر الفيتناميون من جديد قضية

رجوع بن عمر ومجموع المنضوين المغاربة . كانوا قد أعدوا كل شيء لترحيل العسكريين المغاربة بما في ذلك إعداد باخرة . وقد حصل أن التقى الشيوعيون المغاربة بابن عمر ومساعديه «تحدثنا حول مشاكلهم وعودتهم إلى المغرب . وتناولنا الغداء معا . وكان بن عمر حاضرا . كان يعيش ببساطة ، كانت حياته في مثل بساطة حياة القادة الفيتناميين ، تبادلنا معه الحديث حول زوجته وأبنائه وإمكانية إيجاد عمل لهم خاصة وأن وضعيته المادية كانت تحسنت منذ مغادرته المغرب . حيث كان يسكن مع زوجته في فيلا ، وكان يملك سيارة وسيارة جيب للصيد ، وله أشخاص في خدمته» (196) .

عن خطأ أو عن صواب ، شعر معروف آنذاك أن القادة الشيوعيين المغاربة لم يبدو مستعجلين ليروه عائدا ، اعتقد ، كما تؤكد لي كاميليا أنهم كانوا يريدون إرجاء عودته إلى موعد لا وجود له .

ألبوم صور عائلة لخرش يسترجع أهم محطات ترحالها في الفتنام خلال الحرب وبعد نهايتها . فهذه صورة ل "شبابا" وهي مدينة كثيفة الحضور بشكل عميق على حدود الصين وراء مدينة ديان بيان فو ، على ارتفاع حوالي 1500 متر ، وفي السريرة هناك جبل يرتفع بضعف هذا العلو . وقد قضى فيها بن عمر بضعة أيام .

وهناك صور عن فترة المقاومة إلى جانب المحاربين أو وسط الفلاحين ، على صهوة الجواد ، راجلا أو عابرا أحد الوديان ، صور

للحياة اليومية في معسكرات الأسرى والمنضوين ، خلال العمل أو الترفيه . زيارات لديان بيان فو ، مراسيم لإحياء ذكرى الموتى ، ميداليات موشحة على صدر امحمد بن عمر من طرف مسؤول رسمي ، نقاش على انفراد مع وزير الداخلية ، بن عمر في بيكين وقد التقطت له صورة وهو يحمل آلة تصوير بالمدينة المحظورة ، سور الصين العظيم في خلفية الصورة ، مناظر مجهولة ذات جمال خارق صورها شخص ينوي أن يتذكرها فيما بعد ، ويحرص على أن يصون إمكانية عيش اللحظة الفتنامية من جديد في يوم ما بعيدا عن الفتنام وإمكانية إلتقاط أسيا عندما يتم الإحساس بضرورتها الوجودية .

عودة إلى دروب هانوي ، إلى بحيرة هانوي الصغيرة . في هانوي ، كان يسكن فيلا جوار المدرسة الأكليركية الكبيرة الموجودة بحي جميل غير بعيد عن إقامة هوشي منه . وعلى مقربة من سكناه توجد الثانوية ، وزارة الخارجية ، برج الراية والقلعة . وقد غير الفيلا إلا أنه سكن بنفس الحي . كانت الفيلا الجديدة أجمل بفناء كبير في الخلف ، وكانت عائلة لحرش تستقبل الجميع مثل كريكوف السفير البلغاري بهانوي وعائلته ، أو الزوجين كريكوف وهما من الفريق الطبي البلغاري اللذين كانا يحملان نفس الإسم .

في تلك الفترة ، كانت العائلة قد تعرفت على ولفريد بورشيط الذي كان ملحقا صحافيا بالفتنام وهو سكير كبير غالبا ما

كان يوجد في المنزل ، كان بن عمر بشكل رفقة بقية المستشارين ، أندري وبوشرز وملتحقين مثل بوداريل وآخرين جماعة من اللامبالين المرحين ، ثم كان هناك رومان كارمن ، السينمائي السوفياتي الذي جاء لإخراج شريط عن ديان بيان فو ، وكان يعيد بناء ديكور المعارك بعجلة في الوقت الذي كان فيه كل شيء قد تعرض للتخريب مؤخرا ، وقد اضطر الأسرى الأفارقة الشماليون الى تمثيل الطواير الطويلة للأسرى .

كان هناك كذلك العديد من الزوار : صحافيون عابرون ، رجال سياسة من ضمنهم القادة الشيوعيون المغاربة ، كتاب ، شعراء ...

لكن مشكل ذهابه فرض نفسه مع ذلك في النهاية ، لماذا اضطر أو رغب في مغادرة البلد الذي كان قد قضى فيه عشر سنوات وتزوج فيه ورزق فيه بأبناء؟ بلد لم يكن إلا ليكون عزيزا عليه؟ البعض يلوم حب الظهور لديه وعقليته كمحدث نعمة في زي جنرال الجيش الشعبي الفتنامي : وهي وتيرة حياة مشينة بالنسبة لشيوعي ثوري ، فكيف كان يملك حصانا وسيارة جيب . ترجع كاميليا وتيرة حياة معروف إلى حجمها الحقيقي : «الحصان وسيارة جيب كانا في ملكية الجيش ، ولم يكن ذلك بذخا بل كان الأمر يتعلق بوسائل عمل ، كانت لديه فيلا وظيفية للسكنى مثل جميع الأطر ، وكنا نأكل ونشرب جيدا ، لكن لم تكن هناك تفاوتات كبيرة مع

الآخرين . كل الآخرين ، أكانوا فيتناميين أم مغاربة » (197) .
 إضافة إلى ذلك ، كان معروف حسب كاميليا يحب الخمر ،
 خلال تلك الفترة لكن دون مبالغة : كان يظل دائما معتدلا ولا يبالغ
 أبدا ، لكن حسب شهادات أخرى فإنه كان قد تجاوز مسبقا حدود ما
 هو لائق بشوري : كان الفيتناميون يعتبرون أن حمل أفكار يسارية يمنع
 من أن يتصرف الشخص بأسلوب معين . فهل كان الفيتناميون تعبوا
 من رعاية شخص يشعر أكثر فأكثر بالضيق داخل نظامهم ، لقد
 ضاق بهم وبشكل مواز هم كذلك ضاقوا درعا به .
 كان لمعروف ميل بين لما هو فاخر ، لما هو باذخ ، وللحياة
 العاطفية ، ومن بين التفاصيل الصغيرة للمشوار المتميز لابن عمر :
 كان قد بنى لنفسه بواسطة بناء مغربي بابا بالزخرفة العربية على
 مدخل المعسكر ، مقتديا (ص 131) بأسلوب الأبواب العربية (198) ،
 كان يحب أيضا الأسلحة النارية وينظم مباريات كبيرة للقنص .
 كانت الطريدة وهي نوع من الجاموس المتوحش ، لكن بحجم أكبر
 ولكونها موهوبة بحاسة شم مذهشة ، فإنها كانت لا تتردد في
 الهجوم .

وفضلا عن ذلك ، كانت قطعان الفيلة وفيرة ، كان بن عمر
 يتعاطى للقنص بولع . وتذكر كاميليا أنه كان قد اصطاد ذات مرة
 غرا . ويشهد بوداريل قائلا فيما يخص الجانب المتعلق بطبع السيد
 الكبير لدى معروف فقد اعتقدت لفترة طويلة أنه كان أرستقراطيا من
 عائلة كبيرة أو أميرا أو حصلت لديه عودة إلى طباع الأسلاف .

أما الآن ، فأظن أنه كان ضحية مسلسل "برقرطة" النظام الشيوعي الفيتنامي ، حيث ينتهي كل رئيس إداري كزعيم بالمعنى الكامل للكلمة ، هذا السلوك تفاقم لديه على الخصوص بعد نهاية الحرب وعودة الأطر الشيوعية إلى هانوي في أكتوبر 1954 (199) .

حبه للأبهة كان بينا إلا أنه كان حبا صارخا ، وليس من اليسير أن يقبل به الفيتناميون ، أنه طبع مفرط ومتوسطي يعبر جهرا عن مشاعره ضد الفيتناميين الذين عندما يتفجرون يفعلون ذلك ببرودة . كان مزاجه متطرفا ، وفي النهاية ، كان قد جعل الجميع يخاصمه . لم يكن يقوم بأي تنازل . كان مزاجه بالضبط بركانيا فهل تدخل في الصراعات الداخلية بين مجموعات الملتحقين ومجموعات موظفي هانوي؟ في ظل المناخ السائد في تلك الفترة ، كان الجميع قد أصيب بمرض الوصولية الحزبية : كان هناك صراع من أجل الحصول على منصب وكان الحزب يجند كل الطاقات ويمسي متسلطا أكثر فأكثر . ويبدو أنه انعقد في بداية الستينات اجتماع عام حول الملتحقين ، قرر عودتهم ، وربما كانت لمعروف خلافات مع الفيتناميين بخصوص وضعية المغاربة . على أي حال ، كانت قد حصلت قطيعة في 1959 اتخذت على إثرها معروف قرار العودة .

بوداريل أكد لي بشكل غامض أن «قضية معروف كانت أحد عناصر قضية جياب ولم يرد أن يوضح أكثر من ذلك . على كل حال ، ظروف ذهابه تبدو أنها كانت بالأحرى صعبة . بودا أيها العزيز الكبير ، هكذا كاتب معروف صديقه بوداريل من المغرب في 1964 ،

فترة طويلة بعد عودته :«اعتبر نفسك محظوظا يا صديقي لنقلك وتسلمك امتعتك! لأنني لا أستطيع أن أقول نفس الشيء عن نفسي ، لقد سرق مني الفيتناميون كل شيء بما في ذلك جهاز الراديو ، لكن ذلك لا يمنع من أن أكون سعيدا جدا لأنني أفلت و عدت تقريبا سالما!». لكن من الأكيد أن أشياء بسيطة كهذه لا ينبغي بأي حال أن تجعلك تنسى هذا الشعب الباسل ، فرغم كل شيء أحتفظ بأحسن ذكريات حياتي . ومن المؤسف أن بعض قاداته أغبياء حتى لا أنعتهم بصفات أخرى (200) .

في 1959 ، انعقد مؤتمر الحزب العمالي البولندي الموحد ، وقد حضر عبد الله العياشي ممثلا الحزب الشيوعي المغربي ، وقد التقى خلال المؤتمر بالجنرال جياب . هذا الأخير أثنى على معروف وأعرب له عن عرفان الفيتنام بالجميل لمعروف . لكن الجنرال كان قد أضاف أنه ينبغي تسهيل عودة معروف إلى البلاد :« كنت قد فهمت -يستطرد العياشي- أن ابن الشعب هذا الذي ذهب كمناضل بسيط والذي كان قد عاش في ظروف صعبة بالمغرب المستعمر ، وأتيحت له الفرصة لإثبات قدراته السياسية بل العسكرية ، والذي كان يجلس باستمرار إلى طاولة هوشي منه ، وله راتب مهم وامتيازات مادية وحراس شخصيون وخدم ، إلخ ، كان قد تغير طبعه بسرعة» .

هل جعله المجد يصبح أكثر اندفاعا؟ لقد كان الجنرال جياب يلتبس ذهابه بأدب . على أي حال ، كان بن عمر ذاهبا وسيرحل

في الوقت الذي كان الصينيون يتقدمون في ساحة الشيوعية الدولية حوالي 1959 ، عندما ظهر في بيكين كتيب «عاشت اللينينية» وعندما اندلعت داخل الفيدرالية العالمية للنقابات مثلاً ، ببراغ الصراعات الأولى بين أنصار السوفييات وأنصار الصين .

في الحقيقة ، كان معروف غالباً ما يذهب إلى بيكين وموسكو ، وكان تعارض التوجهات المؤيدة للسوفييات في مواجهة تلك المؤيدة للصينيين لم يتأكد بعد ، كانت الأمور بعيدة عن الحسم بين هانوي وبيكين وموسكو ، لكن معروف كان على الأرجح مناصراً للصينيين ، وإن كانت علاقاته متناقضة وهكذا كان لوميان ، المفوض السياسي لـ "ديان بيان فو" ، الذي كان يمارس وظيفة ليس لها نفوذ كبير كمكلف بالشؤون الثقافية ، مناصراً للسوفييات . وبشكل مفارق أيضاً كان صديقه الكبير كريكوف مؤيداً لخروتشوف (201) .

قد يكون معروف ، كما تفضل أن تفترض كاميليا أحيانا ، رجل إثر قرار مفاجئ ، رحل أيضاً لأن الفتنام ، كما كان يقول ، قد لا يكون بلداً صالحاً للأجانب فقد كان شعب الفتنام أبياً أكثر من اللازم ، وهذه الحرب التي كانت قد انتهت للتو كانت حربه هو . (202) كان الفتناميون يريدون أليات صينية وسوفيائية ولكن أقل ما يمكن من المستشارين الأجانب ، وربما كانوا يريدون محو كل أثر يذكرهم بوجود أجانب في حربهم (203) .

كان معروف رجلاً نشيطاً وبعد أن انتهت الحرب لم يعد له

دور يلعبه هناك . أثناء الحرب ، شارك في الحياة السياسية ، وفيما بعد لم يعد يهتم سوى بالمتحقيق لكن دون قدرة على اتخاذ قرار سياسي . قبل ذهابه بفترة قصيرة ، شرع في إعداد مؤلف باللغة العربية عن تاريخ المقاومة الفيتنامية .

وكان الفيتناميون قد عينوا إلى جانبه رائدا أو عقيدا لإنجاز هذه المهمة لكي يترجموا له وثائق من الفيتنامية إلى الفرنسية . كان بوداريل قد ذهب لزيارته فلاحظ أن الأرض كانت مغطاة بالأوراق السرية . وكان ملف من مصادر أولى قد وضع رهن إشارته . غير أن معروف غادر هانوي في 1960 ، وبين يديه سيف من معدن عليه طابع جيش الجمهورية الديمقراطية للفيتنام أهدها إليه الجنرال جياب شخصيا .

منذ تلك اللحظة ، هل انفصل مصيره عن مصير الهند الصينية بصورة نهائية؟ وهل يمكن حقا مغادرة الفيتنام عندما يترك فيك أثارا بمثل هذا العمق؟

عندما غادر الفتنام رفقة أبنائه ، كان ذلك في اتجاه بلغاريا أولا حيث لا يبدو أن إقامته هناك ستكون طويلة .

كانت كاميليا قد ذهبت قبله معرجة على فرنسا لزيارة أمها . في الفتنام ، كانت قد ربطته علاقات صداقة متينة مع أعضاء فريق جراحى بلغارى وخصوصا مع عائلة كريكوف ومع الدكتور كريشا وزوجته دورا . كان أيضا قريبا جدا من شيوخى آخر يحمل نفس الاسم .

سفير بلغاريا فى هانوى السيد كريكوف وابنته سفيلا ، وهو رجل مدهش يعرف بنفسه على الطريقة القحة لثقفي أوروبا الشرقية . في سن 35 كان محاميا لدمتروف خلال محاكمات 1934-1935 وكان قد عاش في هانوى من 1954 إلى 1960 .

قضت عائلة بن عمر الصغيرة بعض الوقت في منزل آل كريكوف في بلوفديف ، وثم ذهبت للإقامة في صوفيا في نوع من منازل الضيافة الخاصة بالضيوف الأعضاء في الأحزاب الأخوة . كان الفندق مريحا لكن بعيدا عن أن يكون فندقا فخما ، وقد التقى امحمد بن عمر في العاصمة البلغارية على الخصوص بطلبة مغاربة من بينهم مصطفى يرناستى ، وهو شاب شيوخى ومسؤول طلابي

آنذاك ، كان يواصل بها دراسات في العلوم الاجتماعية :«التقيت امحمد بن عمر لحرش في بلغاريا مرتين ، اللقاء الأول تم خلال أحد فصول الصيف ، لكنني لا أستطيع تحديد الشهر بدقة . على أي ، كانت السنة الجامعية قد انتهت مؤخرا ، وكطالب في صوفيا ، كان الرفاق البلغاريون قد أخذوا بعين الاعتبار صفتي كعضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المغربي ودعوني إلى الالتقاء به ، كان كونتشيف شخصا المسؤول عن العلاقات الخارجية للحزب الشيوعي البلغاري هو الذي اتصل بي لإخباري أن رفيقا مغربيا من مستوى عال ، عاش التقلبات الأكثر حسما للملحمة الفيتنامية ، كان موجودا في صوفيا ، وأنه كان باستطاعتي الالتقاء به إذا كنت أرغب في ذلك . لم أتردد لحظة واحدة لأنني كنت أعرف سيرة بن عمر .

كان قد أضحى في نظر الأطر الشابة للحزب نوعا من الأسطورة . وبالنسبة إلينا نحن الذين كنا نغذي بعض مشاعري الذنب . ومنها الشعور بالذنب للمشاركة المغربية المكثفة إلى جانب أنصار الفرنكوفونية في الحرب الأهلية الإسبانية مثلا ، كان بن عمر يظهر كبطل ، كان ينظف ذلك الماضي القليل السطوع في نظرنا . كان يعطي مجددا للأمية أهميتها الكاملة وهي أحد المبادئ الكبرى التي كانت تبنى عليها فضاليتنا المتأججة خطبها وعملها .

التقيت معروف خلال عطلة بصوفيا في حمامات كورنابانيا ، رأيته خلال هذه الإقامة مرتين ، في المرة الأولى ، كان يبدو أخويا

ومسترخيا . ومع ذلك ، لاحظت أنه كان يشرب الخمر بإفراط ، ظهر لي في الحال كشخصية مشاكسة مدققة بإفراط ويطلب من مضيفيه البلغارين مشروبات على الخاطر وظروف إقامة مريحة . . كانت طلباته لا تتوقف . لقد كانت ثمة أبيقورية أصيلة تصدر عن شخصيته . كان يسكر دون توقف ويطلب أفضل غرف الفنادق ، ويقوم بحركات سيد إقطاعي كبير . . وقد سمعت البلغارين يشتكون منه إلى درجة اتهامه بمرض العظمة . لكن وبشكل مفارق أيضا ، كان يبدو لي قليل الفصاحة . كان يتكلم قليلا عن نفسه ، وعند روايته لتجربته الفتنامية ، كان يأخذ عنايته ليدقق بأنه لم يكن إلا مشاركا غير مباشر ، من بين مشاركين آخرين . . وكان يبرز قيمة عمل رفاق آخرين ساعدوه . كان يحدد مهمته في الفتنام كعمل لتنظيم انشقاق الجنود المغاريين (الطوابير ، القناصة ، الفرسان) وإعادة إدماج الأسرى المفرج عنهم الذين كانوا يواصلون عمل تقويض وسط الطوابير بعد التحاقهم مجددا بصفوف الجيش الفرنسي (204) .

خلال هذه المناسبة الأولى ، تناول الحديث الوضعية السياسية الدولية وخصوصا الخلاف الصيني السوفياتي . هذا الموضوع الأخير كان يشغل بقوة بال مناضلي تلك الفترة . كانت الدعاية السوفياتية حول اليسارية الماوية في أوساط هؤلاء المناضلين في أشد نشاطها يحركها تارة السوفيات أنفسهم مباشرة ، وتارة أخرى

البلغاريون الذين لم يكونوا يفعلون سوى ترجيع الطروحات السوفياتية . موقف بن عمر كان يشكل بجلاء قطيعة مع ما كانوا تعودوا على سماعه . فكان يؤاخذ على السوفيات كونهم سعوا إلى إثارة القطيعة وسعوا على الخصوص إلى خلق صعوبات للصين بسحبهم لمستشاريهم ووقفهم لمساعدتهم .

هل كان يعبر آنذاك عن قلق قيادة الحزب الشيوعي الفتنامي التي كانت تتخوف ، وهي تخوض النضال ، من إضعاف المعسكر الاشتراكي ومن مواجهة بين الصين والسوفيات ، أم كان الأمر يتعلق بوجهة نظر أحد مكونات القيادة الفتنامية .

أم كان الأمر يتعلق ببساطة بوجهة نظره الشخصية؟ باستثناء العبارات المألوفة (كيف حال فلان؟ وفلان؟) لاحظ مخاطب بن عمر أن «المستشار» لم يكن يبحث حقا عن معرفة ما كان يجري حقا آنذاك بالمغرب أو بالجزائر .

«كان مع ذلك يعطي الانطباع بابتعاده عن جميع القضايا ، وبأنه ما زال موجودا في الفتنام وبعدهم عودته نهائيا . على كل حال ، يبدو لي أنه قطع كل علاقة ببلده الأصلي . لم يكن على ما يظهر أيضا سعيدا . . . شخصا ، كنت أشعر على الخصوص أن داخله شخصية تعيش على ماضيها وليس على آفاق مستقبلية . . . (205) .

تعلق كاميليا على هذه الرواية قائلة : «ليس لذلك دلالة كبيرة . لقد كان حذرا ، كان الأمر يتعلق بشبان لم يكن يعرف عنهم

الشيء الكثير ، وفضلا عن ذلك ، وبعد ثلاثة أشهر من مغادرته الفتنام ، هل كان بإمكانه أن يتحدث بصراحة إلى غرباء عما عاشه هناك ؟ . لقد كان على تحفظ كبير .

ما بين اللقاء الأول والثاني ، يحكي مصطفى يزناسني عن مشهد عايشه وكان الأمر يتعلق خلاله وبقوة ابن عمر . كان (م . ي) يقيم على ضفاف البحر الأسود بمعية العديد من رفاق الحزب من بينهم بول باسكون ، عمر الغالي ، لطيف لولو (206) ، كانوا يتناولون جميعا وجبة في منتجع تابع للجنة المركزية يقع في فورنا ، فإذا بفتناميين جالسين حول طاولة مجاورة ، يوجهون إليهم إشارات ود ، ويقتربون منهم ثم ينضمون إليهم في النهاية ، وأقاموا حفلا جميعا . كان مصطفى يزناسني قد انتبه مسبقا إلى جسد أحدهم : جسد لا إنساني مخترق من كل الأطراف ، كله ندوب غريبة إلى درجة تصور أن جسد هذا الرجل كان يستحق جدا عرضه في متحف حرب . . بصورة تلقائية ، أثار الفتناميون الحديث عن بن عمر : «بالمغرب تربطنا علاقات دم أكثر منها علاقات بين حزب وآخر ، إننا نضم في صفوفنا إطارا عاليا من أصل مغربي» .

«أما فيما يخص اللقاء الثاني فقد تم في بداية الستينات بصوفيا ، كان بن عمر مجرد عابر ، واعتقد أنه كان متجها إلى موسكو عبر براغ ، التقينا بالفندق المركزي لريلا ، أحد أفضل فنادق المدينة وقد تناول حديثنا مختلف أبعاد السياسة الدولية . وكان لدي

أكثر من السابق ، الانطباع بأن معروف كان يعيش قطيعة مع كل شيء ، مع ذلك ، بدا لي منهكا أكثر ، ومفرطا في احتساء الخمر أكثر . كان شقيا بصورة جلية كما لو أن الفيتنام كان قد ضاق به درعا ، وهو ضاق درعا بالفيتنام . . . » (207) .

مقام بن عمر في بلغاريا لم يكن سوى عبور ، مرحلة قصيرة نسبيا ، مدتها شهران أو ثلاثة على الأكثر . ويتحدث الشهود عن الليالي البيضاء والليالي الحمراء لابن عمر في هذا البلد : عن حياة المجون ، والخمر ، و النساء ، وطرائف أخرى . . . جو من الفسق والإباحية الجامحة تثيره مختلف الروايات .

خلال فترات صحوه ، كان يحصل له أن يتعاطى بلهفة لمتع القنص . . . محمد فرحات ، رفيقه القديم في النضالات النقابية في المغرب المستعمر خلال الأربعينيات يحتفظ بذكريات حية التقاه في بلغاريا بمجرد العودة من الفيتنام والتقاه مجددا بضعة أسابيع لاحقا في تشكوسلوفاكيا . ورآه مرة أخرى أيضا في الاتحاد السوفياتي (208) .

في كتاب الحالة المدنية الذي كان يتنقل به معروف خلال تنقلاته ببلدان أوروبا الشرقية ، كان بن عمر يحمل اسم "نكويين أن معروف" ويدعى فيه ضيف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، وتوضح الوثيقة أنه يرخص له بحمل سلاح شخصي بالمليشيا الشعبية .

ويوصف مقام بن عمر في موسكو من قبل مقربيه بمرحلة

عصيبة :«لا أحتفظ عنها بذكريات طيبة ، لقد تمت معاملتنا كأشخاص غير مرغوب فيهم» تقول كاميليا . لقد عاشوا ظروفًا صعبة ، بوضعية لاجئين ، ألم تعد صفته كعضو في اللجنة المركزية تؤخذ بعين الاعتبار؟ في الواقع لم يعد يملك هذه الصفة . وكيفما كان الحال ، كان على كل مسؤول ، مهما كان ساميًا أن يخضع لمراقبة مستمرة للهوية . كان يحصل مع ذلك على إعانة مالية وكان يسكن أحد منازل مهرجان الشباب . وفيما بعد ، رحل إلى فندق من مستوى متواضع بضاحية موسكو ، حيث كانت تمارس ، كما تذكر كاميليا ، الخدمة الذاتية على الطريقة الروسية لتلك المرحلة (209) .

لكن بن عمر كان يبحث بيأس عن العودة ، كان لديه الانطباع بتجاهل الحزب لحالته ، كان يعتقد بأنه لا يبذل ما يكفي من الجهود للحصول على عودته . نادى ونادى مجددا وألح . . وعاد الكرة عبثا مرات عديدة . حاول الاتصال مباشرة بالسفارة في العاصمة السوفياتية بغاية الدخول إلى المغرب ، وهي مبادرة مازال ينظر إليها اليوم كبادرة لا تغتفر من طرف إطار عال للحزب . أغلب العناصر المغربية التي التحقت بالفتنام كانت قد عادت إلى البلد . أما بن عمر فكان يلاقي الرفض تلو الآخر من لدن السلطات المغربية . الغريب أن الروس أنفسهم كانوا يعارضون عودته وذلك بإظهار صعوبات ذات طبيعة قانونية .

وفجأة أعطي له الضوء الأخضر من طرف السلطات المغربية :

حصل على جواز سفره وعلى الترخيص بالدخول مع عائلته وبأمتعته على متن سفينة . وكان معتدا ببندقية دقيقة جدا .

هذا الضوء الأخضر للسلطات المغربية ، الذي أعطي له فجأة أثار تساؤلات كثيرة لدى العديد من رفاق بن عمر ، أما كاميليا ، فكانت قد فهمت أن بن عمر كان في الواقع قد اشترى تأشيرته عن طريق إرشاء بعض موظفي السفارة . وقد يكون رفاق فتناميون أعطوه الموارد اللازمة لذلك .

ركبت عائلة بن عمر السفينة "دريكا" ، وكانت الباخرة جديدة ، خرجت بالكاد من الأوراش لم يكن يوجد على متن السفينة سوى جرحى الحرب الاستعمارية بالجزائر وكان الأمر يتعلق بمقاتلي جيش التحرير الجزائري الذين تم علاجهم في الاتحاد السوفياتي . كانوا على قدر كبير من اللطف ، وبفضلهم بدا السفر قصيرا وممتعا ، كانوا عائدتين إلى بلدهم عبر المغرب ، وكان على السفينة أن تقودهم إلى طنجة (210) .

وقد كان الوصول في أحد أيام فبراير 1961 . «لم ينتظرونا أحد» توضح كاميليا ، نزلوا في فندق صغير ، قرب الميناء ، ودون تأخير أخذوا في الغد الباكر وجهة الدار البيضاء .

منذ 1950 ، تاريخ ذهاب بن عمر إلى غاية 1961 تاريخ عودته ، كانت قد انقضت إحدى عشرة سنة .

في الدار البيضاء ، التقى بن عمر من جديد برفاقه وأصدقائه

القدامى ، تم استقباله رسميا وبصورة غير رسمية ، وبشكل ودي عند عبد الله العياشي وعلي يعة وعند آخرين .

كان سعيدا بشكل ظاهر لعودته ، لكنه قلق في ذات الوقت ، كما نظم حفل استقبال بمدرسة الدروس التكميلية ، بزقة الهند الصينية بالدار البيضاء ، من طرف دانييل حاجز وهو يهودي من أصل تركي ، مناضل في الحزب الشيوعي المغربي .

وقد حضر جل المناضلين الشيوعيين إلى مدينة الدار البيضاء : بورقية ، العياشي ، بلال ، بنديلاك ، حاييم زعفراني ، إلخ . . . وقد ألقى عبد الله العياشي خطاب ترحيب ومجد الأعمال الباهرة للرفيق بن عمر لحرش (211) .

أقام بن عمر وزوجته وأبناؤه عند عائلة أحد مناضلي الحزب ، وهو عامل بريد ورفيق سابق بالحزب ، لم تعد كاميليا تذكر اسمه . وتذكر أنهم أناس محبوبون إلى النفس ، عطوفون وذوو لطف ، لكن عائلة لحرش لم تشعر أنها مرتاحة في هذا المنزل . وقد قضت فيه بعناء شهر رمضان .

من وقت لآخر ، كان عبد الله العياشي ، الذي أصبح منذ ذلك الحين أحد أبرز قادة الحزب الشيوعي المغربي ، يلتقي بن عمر ويراقبه بانتباه ، هذا المناضل الذي كان قد أعجب به سابقا وكان قريبا جدا منه في بعض الأحيان ، وهو الذي كان أطلعته على مبادئ الماركسية ، كم كان قد تغير بشكل كبير إلى الأسوأ . كان يلاحظ

على الخصوص ميله إلى شرب كميات كبيرة من الخمر: «عندما كان يشرع في الشراب لم يكن يتوقف أبدا (212) ، بدأ العياشي يفكر بأن بن عمر سوف لن يجد في المغرب ما كان ينتظره منه وأنه على وشك مواجهة صعوبات كبيرة» .

في سنة 1961 ، تم تعيين ابن عمر كاتباً لنقابة المكتب الشريف للفوسفات بخريبكة عوض أرسلان الجديد . . وكان يختلف عن سابقه . .

ذات يوم ، عاد ابن عمر مبكراً أكثر من العادة إلى المنزل الذي كانت عائلته مستضافة به ، وكان هذه المرة مرفوقاً بإدريس العلوي . كان قد اتخذ قرار الانتقال إلى أحد منازل أخ إدريس العلوي ، مامون العلوي وهو مناضل في الحزب الشيوعي المغربي وإطار نقابي معروف جيداً في البريد والمواصلات خلال الأربعينات وبداية الخمسينات .

وقد توفي قبل فترة قصيرة من ذلك في حادثة سير ، حيث صدمته سيارة بعين الذئب على شاطئ الدار البيضاء ، استقروا بمنزل الفقيد ولم يكن هناك لا ماء ولا كهرباء ، إلا أنهم كانوا يشعرون هنا على الأقل بأنهم أفضل مما كانوا عليه في الإقامة السابقة . مكثوا بها بعض الوقت إلى أن وجد إدريس العلوي منصبا لابن عمر بالمكتب الشريف للفوسفات بخريبكة ، وكان إدريس العلوي قد اشتغل به خلال سنوات الخمسينات وربط هناك علاقات مفيدة . .

تدبر له إدريس العلوي في شغل وقرض لدى البقال فكان يتنقل إلى خريبكة ولا يعود سوى يوم السبت لرؤية عائلته ودفع ما عليه للبقال . كان باستمرار رفقة إدريس العلوي الذي كان يتجرجع المראה أكثر فأكثر بسبب القرار الذي اتخذته الحزب والقاضي بطرده . هكذا عاد بن عمر إلى خريبكة مسقط رأسه ، استقر مع عائلته أولا عند ابن عمه ، وهو نحاس بالمكتب الشريف للفوسفاط كان لديه مسكن ووظيفة .

أصبح امحمد بن عمر رئيس بلدة حيث كان يشتغل بتسيير وتأطير العمال .

وعلى ما يبدو ، فإنه لم يستأنف في بداية الأمر أنشطته النقابية ، على الأقل في البداية ، وإذا كان يقوم بذلك ، فإنه كان يترك كاميليا بعيدة عن الأمر : « كان يذهب ويعود ، وكان أشخاص عديدون يأتون إلى المنزل ، أما فيما يخصني فقد كنت أقدم الشاي ، كانوا لا يتكلمون إلا عنده . ويتحدثون بالعربية ولم أكن أفهم ما يقال ، لم يكن زوجي يقول لي أي شيء عن هذه الأمور ، ربما كان يجتهد ليتركني بعيدة عن مشاكل محتملة . وفي 1961 ، رزقت بأسعد وبعد ذلك ، اشتغلت أنا بنفسني بالمكتب الشريف للفوسفاط ككاتبة » (213) .

كان بن عمر قد استأنف أنشطته النقابية الماضية وواصلها على الأقل إلى غاية 1965 في خريبكة . كان العالم منقسما إلى

قسمين : من جهة كان هناك عالم المكتب الشريف للفوسفاط ، عالم خاص ، هو مركز هذا الجزء من العالم ودولة داخل الدولة ، ومن جهة أخرى كان هناك ما هو خارج المكتب الشريف للفوسفاط وكان باختصار ثانويا . داخل المكتب الشريف للفوسفاط كان ثمة تقسيم آخر يفرض نفسه : عالم العمال يختلف مراتبه وعالم الأطر بمنافعهم المادية وامتيازاتهم ، وسكناهم المتميزة ، كل هذا كان يتداخل مع تفاوت آخر : الوطنيون من جهة ، والفرنسيون من جهة ثانية ، أجواء متوترة كانت تسيطر على العلاقات بين المغاربة والأجانب . ومن بين هؤلاء الأخيرين ، كان الفرنسيون والروس ذوو الأصل الأبيض ومتقاعدو البحرية الفرنسية ، هم الأوائل الذين استقروا في خريبكة . تهممة النزعة الاستعمارية كانت مألوفة . وضمن الفرنسيين ، كان البعض ينوي مواصلة سياسة الفترة الاستعمارية ، بينما كان آخرون قد انسجموا مع الوضعية الجديدة ، وضعية الاستقلال : وكان يحصل لهم أن يقبلوا توظيف مغاربة كمهندسين أو أطباء أو تقنيين أخصائيين .

كان الدكتور بنديلاك قد تم توظيفه ، من ضمن أشخاص آخرين سنة 1959 كوسيط بين الأطباء والتنظيمات النقابية ، باعتبار الطبيب الرئيس كان فرنسيا ، داخل النظام الاستعماري الذي كان لا يزال ثابتا ، كان بإمكان أدنى خطأ أن تترتب عنه عقوبات قاسية مثل التوقيف عن العمل .

وكانت النقابات المتواجدة في كل مكان ، تتدخل في كل شيء .

كان أرسلان الجديد ، وهو معلم سابق ، كاتباً عاماً آنذاك للفرع القوي للاتحاد المغربي للشغل بخريبكة . وكان شخصية بارزة بالمدينة ، وأحد الأعيان ، كانت أهميته تتجاوز حدود المدينة ، كانت أهمية وطنية ، نتيجة الدور الحاسم للمكتب الشريف للفوسفاط في اقتصاد البلاد ، حيث كان يتدخل في كل المشاكل الخطيرة ، ويشكل الموجه الخفي للحركة الاجتماعية بالمنطقة وذلك بتحريك جميع خيوط الإضراب والنزاعات الكبيرة والصغيرة والمساومات والمفاوضات . . كان يتوفر على سيارة مصلحة من نوع CV2 في تلك الفترة .

فضلاً عن ذلك ، كان رهن إشارة الاتحاد المغربي للشغل مقر في كل بلدة ، وكانت أطره تستفيد من النظام القانوني للانتداب ، كانت إدارة المكتب تخشى الإضرابات . وفي 1961 ، دام أحد الإضرابات حوالي ثلاثة أسابيع ، وكان المحجوب بن الصديق ، القائد الكبير للمركزية النقابية الكبيرة قد جاء شخصياً لجني ثمار الإضراب والاحتفال بالحدث . وفي 1961 قامت القيادة النقابية بتعيين بن عمر كاتباً عاماً لنقابة المكتب الشريف للفوسفاط بخريبكة عوض أرسلان الجديد ، أهم مسؤول نقابي بالمنطقة والذي تم نقله إلى مكان آخر . وقد تلقى المدراء بالأحرى ، إيجابياً انتخابه ككاتب

عام . بنديلاك يذكر أحد مدراء المكتب الشريف للفوسفاط الذي أظهر له أول منشور كتب به بن عمر ، يقول له : «إنه منشور مكتوب بطريقة جيدة ولبقة ، على الأقل مع بن عمر من الممكن أن نتناقش ...» .

هكذا كان بن عمر يختلف عن سلفه : «ومن جهتي -يضيف الطبيب- كنت أجد هذا الترحيب الجيد أمرا مشبوها ، وقد ساد الانطباع عدة مرات بأن بن عمر كان يدير لعبة غامضة» . كان بروتوكول اتفاق قد وضع بين المصلحة الطبية والاتحاد المغربي للشغل من أجل ضمان حد أدنى من الخدمة في حال وقوع إضراب . وذات مساء ، ناداني بن عمر عبر الهاتف من القاعة التي كان يجري بها تجمع كبير وقال لي : «قرر العمال الإضراب عن العمل ...» . كل المصالح كانت تبدو مشلولة ، فتمسكت باحترام بالبروتوكول وضرورة ضمان حد أدنى من الخدمة ، وكجواب له مد بن عمر الهاتف في اتجاه القاعة ليسمعني صراخ وصياح العمال وهم في غضب» (214) .

في خريبكة ، كان بن عمر يبدو مرتاحا ، ككاتب عام ، يعامل كإطار «منتدب» ، وقد أتاحت الفرصة لدكتور بنديلاك لزيارته في منزله بساحة بوردو رقم 2 بخريبكة .

كان قد دعاه إلى مأدبة ، وزار منزله كذلك لمعالجة بعض الأمراض البسيطة لأطفاله ، يتذكر فيلا صغيرة بحديقة مخضرة وغرفا رحبة ، وأثاثا من الطراز المغربي .

كان العيش طيبا في خريبكة آنذاك ، عند الوصول إليه من الشمال وقبل تقاطع الطرق مع سكة الحديد . كانت المدينة العصرية تمتد إلى اليسار بفيلاتها ومنازلها الخاصة وبمساكنها ذات الامتيازات الأخرى المتنوعة . كان الأمر يتعلق بشطر المدينة الذي يسكنه الأطر . وبشكل عام ، كانت المدينة تظهر وهي يطفى عليها عالم المناجم ، وخلال أيام السوق ، كانت تصبح قروية .

في بداية الستينات هاته ، كان الجميع يذهب للتبضع من دكان ذلك اليهودي ذي الأصل الجزائري الذي كنت تجد لديه كل ما تريد ، كان يتم التردد أيضا على بقالتين يشرف عليهما يونانيون . غريب هذا الحضور اليوناني في خريبكة ، إحدى القاعتين السينمائيتين في المدينة كانت مسيرة أيضا من قبل يوناني ، وتقع مباشرة قبالة دكان تبغ شهير يملكه المدعو الطنجاوي ، في هذه القاعة كانت تعرض أفلام تلك الفترة مثل شريط «السنة الأخيرة في مارينباد» «لألان رينيه» كان ثمة أيضا مسرح المدينة الذي يضع بانتظام ملصقات برامج «معرفة العالم» وينظم سهرات الشباب الموسيقية .

بضاحية المدينة كانت تنظم محطة خدمة في ملكية فرنسي تنظم نزحات قنص ، وهي في الغالب عبارة عن إحاشة للخنزير البري بزاوية الشيخ ، بين خريبكة وبين الويدان . وخلال أيام العطل ، كان السكان قد تعودوا كذلك على الذهاب إلى البحيرة ، حيث كانت

تنظم نزاهات صيد وحفلات في البساتين .

كان بن عمر يتعاطى من جديد لمتع القنص ، وكان قليلا ما يسكر أو لم يكن ، على أي حال ، يظهر أية مبالغة أمام العموم . بنديلاك الذي صاحبه في تلك الفترة استطاع أن يلاحظ أنه كان يشرب الويسكي على الخصوص ، وكان يدخن في اليوم علبة إلى علبتين من السجائر المحلية من نوع «كازاسبور» . لكن استهلاكه هذا كان يظل غير منتظم . كان يلبس ببساطة ، يحدث أن يرتدي جلبابا ، كانت له هبة بشكل لا جدال فيه . كان بنديلاك قد لاحظ عدة مرات أنه حين كان يطلب أن يستقبل المدير ، الذي لم يكن ثمة ما يرغمه على استقبال أي كان لفرط ما كان نفوذه اعتباريا . وبما أن بن عمر كان يفرض هيئته بشكل طبيعي ، فإنه كان يتم استقباله على الفور . خلال هذه المرحلة الأولى من عودته من الفيتنام ، فرض نفسه بالدرجة الأولى كنقابي ، وقد كان متميزا بصورة محسوسة مقارنة مع محيطه وأفراد عائلته ورفاقه في النضال ذوي المستوى الفكري المتواضع جدا : كانت مدرسة الحزب قد دربته جيدا . كان كثير القراءة وأصبح ينم عن تجربة نقابية وسياسية خطيرة . ومع مرور الوقت ، وسع من أفقه الثقافي واكتسب قيمة بذكائه وثقته الكبيرة في النفس ، كان يبهر مستمعيه .

الأنشطة النقابية لابن عمر كلفته ما بين شهر وشهرين سجنا سنة 1963 ، وقد جرى ذلك في قلب الحملة الانتخابية ، وإلى

ذلك ، ففي 1963 ، ولدت في خريبكة غجلة بن عمر ، مريم . لماذا لم يلتحق بن عمر بالمغرب وبنضال الحزب الشيوعي المغربي وبنضال المقاومة منذ 1954 ، بعد نهاية أول حرب استقلال للهند الصينية ربما لأنه كان قد علم بالمصير الذي أعد من قبل قيادة الحزب الشيوعي المغربي لإدريس العلوي ، رفيقه في نضالات الأربعينات ، وصديقه الكبير وأخيه . كان إدريس العلوي قد طرد كشرطي مزعوم ، من اللجنة المركزية للحزب المجتمع في وهران في بداية يناير 1952 اعتمادا على تقرير لعللي يعته (215) . وفي كتابه «المجرى الثابت» يعترف إدمون عمران المليلح ، الذي كان آنذاك أحد أمناء الحزب ، بالخطأ المرتكب في حق إدريس العلوي ، ويدعى هذا الأخير في الكتاب «حومراني» (216) .

السؤال يطرح أيضا لمعرفة لماذا لم يثر الحزب الشيوعي المغربي أبدا قضية عودة بن عمر : ما الذي كان يبرر إذن هذا الصمت؟ هل كان بإمكان الحزب أن يتصرف بشكل مغاير؟ ألم يكن هو بنفسه في مواجهة الصعوبات الأكثر خطورة (217) .

كانت 1962 مسبقا سنة سيئة بالنسبة لعائلة بن عمر ، وكان جليا أنه يفقد الأمل ، ما زالت كاميليا لا تدري ما إذا كان ذلك مرتبطا بخلاف سياسي ما ، لكنها تتذكر أن العائلة الصغيرة لابن عمر كانت قد انتقلت بكاملها ذات يوم إلى الدار البيضاء ، إلى منزل علي يعته ، الأمين العام للحزب الشيوعي المغربي . كان علي يعته

وبن عمر قد تناقشا يوما بكامله على انفراد بينما كان الأطفال يلعبون في الحديقة والزوجتان تتبادلان الحديث على انفراد : ماذا كان يا ترى موضوع هذه المباحثات المطولة؟ لم يقل بن عمر أية كلمة عنها لكاميليا ، «طوال الطريق المؤدية إلى خريبكة ، ظل صامتا ، كأن شيئا ما أغاظه . ومنذ ذلك الحين لم يكف عن الصراخ احتجاجا على وصولية الشيوعيين المغاربة وقيادتهم . ثم استسلم خلال الأيام الموالية للخمر كما لو كان مصابا بخيبة أمل عميقة» .

في الحقيقة ، لم يتوقف بن عمر ، منذ وصوله إلى المغرب عن تعميق الهوة بينه وبين الحزب .

هل بدأت المشاكل انطلاقا من انشغالات مادية ملحة دائما أكثر؟ عندما دخل إلى البلاد واصل اتصالاته بالمنظمة الشيوعية . وقد بذل أطر الحزب ما في وسعهم ليجدوا له عملا ومسكنا ووضعيا مادية مرضية . إلا أنهم وجدوا صعوبات في أن يأخذوه على عاتقهم مثلما كان بإمكانه أن يتمنى ذلك ، كانت موارد الحزب متواضعة ، وكان بن عمر يشرب بمبالغة وكأن لعنة أصابته ، وكلما كان يعيش صعوبات مادية أكثر ، إلا وكان يتعاطى الخمر أكثر . سارت الأمور بشكل متدهور ، وجاءت زوجته لتشتكي ، مرة واحدة ، على الأقل ، من تصرف زوجها للأمين العام للحزب الشيوعي المغربي (218) .

هل كان قد تم الاتصال به خلال هذه الفترة ، تقريبا لإنشاء

حزب شيوعي مغربي مؤيد للصين؟ لقد راج هذا الخبر ويبدو اليوم غير محتمل سواء في نظر علي يعة أو إبراهيم السرفاتي (219) ، فملاح السعادة التي توحى بها صورة له في بيكين بمناسبة مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني من 1956 إلى 1957 الذي حضره ، ومواقفه المعلنة بوضوح بخصوص النزاع الصيني-السوفياتي ، وتعاطفه المعبر عنه كثيرا بقوة مع النموذج الصيني لا يسمح بتفضيل هذه الفرضية ولا باستبعادها .

شهود آخرون يؤكدون أن المسافة بينه وبين الحزب تعمقت في وقت مبكر جدا ، ومنذ عودته من آسيا كان الحزب قد حاول الاتصال به عدة مرات ولم يجده . بن عمر نفسه لم يحاول أن يقوم بذلك ، وقد بدا أنه دخل في علاقة مع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية ، فهل كان قد التحق بأحد فصائل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية؟ بفصيل الفقيه البصري مثلا الذي كان قد اختار المعارضة الجذرية للنظام؟ يشهد العياشي بقوله : «في 1962 كان المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية منعقدا (220) ، وكنت عضوا في وفد الحزب الشيوعي المغربي إلى المؤتمر . وكنت مفاجأنا كبيرة عندما وجدنا بن عمر هناك . كان غير مرتاح بشكل ظاهر عندما رأنا ، وقد علمت لاحقا أنه كان يعتقد أنه تمت دعوته كمؤتمر إلا أنه لم يكن يستفيد سوى من وضعية مراقب» . أما إبراهيم السرفاتي فله من جهته شهادة قاطعة : « لم يكن بإمكان الحزب الشيوعي المغربي

ابتداء من 1965 لاندماجه في النظام السياسي من جهة ، ولغياب استراتيجية ثورية لديه من جهة أخرى ، أن يقدم الإطار السياسي مثلما كان قد استطاع أن يصحبه بن عمر في الفتنام» (221)

حول هذه الجملة ، كثيرا ما تقدم الفرضية التالية : قد يكون بن عمر دخل متأخرا إلى المغرب لأنه كان يعتبر من الفارين ، وقد يكون الغزاوي سهل هذه العودة وجعله تحت مراقبته .

ففي سنة 1962 أوبداية 1963 ، وبصفته نائب المدير التقني المكلف بالبحث والتنمية بالمكتب الشريف للفوسفاط ، كان إبراهيم السرفاتي قد علم في الكواليس أن محمد لغزاوي المدير العام للمكتب الشريف للفوسفاط آنذاك ، حاول أن يسيطر على النقابة في خريبكة عبر امحمد بن عمر الذي كان آنذاك قد وظف بالمكتب الشريف للفوسفاط .

على الصعيد التقني ، كان لغزاوي يعتمد بشكل ممنهج على طرق إدارة جماعية . وفيما يتعلق بالأمور التجارية ، أي مصالح بيع الفوسفاط ومصالح الموظفين ، كان قد عين فيها مساعديه الأساسيين المجلولين من الأمن الوطني الذي كان مديره العام : مثل إدريس حصار الكاتب العام للمكتب الشريف للفوسفاط ، ومحمد برني ، رئيس الموظفين والشؤون الاجتماعية بمصالح المكتب في خريبكة إلا أنه كان لديه خصم مخيف : الاتحاد المغربي للشغل وهي نقابة قوية جدا بالمكتب الشريف للفوسفاط كان يقودها آنذاك أرسلان

الجديدي . في هذا السياق تم التوظيف «المشتبه فيه» ، في نظر البعض ، لبن عمر(222) .

كان الاتحاد المغربي للشغل ، ومن خلال الإضرابات العامة لعمال المكتب الشريف للفوسفاط التي أعلنها قد فرض في دجنبر 1960 إصدار «القانون الأساسي المنجمي» (223) ، وطوال العام 1961 وقد تم التفاوض بشراصة بشأن وضعه حيز التطبيق في إطار نظام مستخدمى المكتب الشريف للفوسفاط ، وكان لغزاي كسياسي واقعي ، قد قبل ميزان القوى هذا مع احتفاظه لنفسه بإمكانية الالتفاف حوله فيما بعد ، وقد حاول أن يفعل ذلك في 1962 .

وجد إدريس العلوي مجددا عملا وهذه المرة بالمركب الكيماوي بأسفي كرئيس للموظفين في 1965 ، أما كاميليا فقد تم نقلها من خريبكة إلى منصب كاتبة بالمصلحة الإدارية وتذكر الكلمات التي كان قد وجهها المدير لزوجها بحضورها وبلهجة أبوية عندما استقبلهما أول يوم تسلما فيه العمل :«لديك زوجة وأطفال لذا عليك أن تبقى في حالك! عليك أن تعيلهم ولو كنت مكانك لتجنبتي من الآن فصاعدا الاشتغال بالسياسة» (224) ، لكن بن عمر واصل استقبال مناديب العمال بمنزله ، اجتماعات لا تنتهي كانت تتم في مكتبه نفسه . وكان يحصل له ألا يوافق على مبدأ بعض الإضرابات وأن يكسرها أحيانا ، لكن على العموم كان ، تصرفه تصرف نقابي لا يقهر ، بل وإطارا مثاليا .

بأسفي في 6 فبراير 1966 ، كتب بن عمر لجورج بوداريل رفيقه القديم بالفيتنام هذه الرسالة : «عزيزي بوداريل في 24 يناير توصلت برسالتك المؤرخة في 12 فبراير وأنا طريح الفراش . فاستيقاظ داء المتحمورات amibiase لدي ولكن بصورة عنيفة جدا ، أقعدني في الفراش لمدة أحد عشر يوما ، استأنفت عملي بالأمس ، ليس على أحسن حال تماما لكن سيحصل ذلك بالتأكيد .

فيما يخصني ، لم أعد أعمل بالمكتب الشريف للفوسفاط أنا حاليا بأسفي بالمركب الكيماوي ، وهو إنجاز رائع رأى النور مؤخرا بالمغرب بعد أن نظمت تسيير الموظفين ، أنكب الآن على تنظيم المصلحة التجارية . العمل كثير بالتأكيد لكن يؤدي عنه بصورة جيدة جدا .

أسفي مدينة ساحلية صغيرة جميلة على الأطلسي ، شمس دائمة ، فواكه كثيرة إنه باختصار ، العيش الرغيد . أسكن فيلا وظيفية بخمس غرف ومطبخ وحمامين وحديقة ، لم أزرع فيها سوى أشجار ورد ومخضرة ، (إنها تحفة) فاضل في قسم المتوسط الثاني . عمره عشر سنوات ، وهو نبيه جدا ، ياسمين في المتوسط الأول ، ثمان سنوات ، وجيدة جدا كذلك . بالنسبة لليزو فقد فقدت عنوانها منذ أزيد من سنة . ولست أدري كيف آلت أحوالها ، لا أعتقد أن بإمكانني أن أخذ عطلتي هذه السنة . فأنا مشغول جدا وسيتم مرة أخرى تأجيلها إلى العام المقبل . ما زلت أنوي القيام

بجولة في أوروبا ، لكن ثمة عملا أكثر من اللازم .

فيما يخص استقرارك مستقبلا بالمغرب ، ثق بأنه لا يطرح مشكلا . خذ مثلا حالتي ، لقد كان علي أن أنطلق مجددا من الصفر ، وأؤكد لك أنني مستقر جيدا ، في مسكن جيد ، بأثاث جيد وتغذية جيدة . ولا ينقص الأطفال أي شيء ، لدي سيارة (من نوع جاگوار) هذه المرة . أؤكد لك أنك ستستقر بسرعة خصوصا وأن المعيشة ليست مكلفة . وكمثال على ذلك : ثمن فخذ الخروف هنا يساوي 500 فرنك قديم بينما ثمنه في فرنسا 3,750 فرنكا ، ثمن شريحة البقر 600 فرنك قديم وفي فرنسا 2600 فرنك إلى 3000 فرنك . . . إلخ ، الحوامض من 15 إلى 25 فرنكا .

بالنسبة للخضر ، أقتني قفتين كبيرتين ب 1000 فرنك قديم الملابس وحدها ثمنها أغلى قليلا مما هي عليه في فرنسا . وإلى ذلك ، ستري بنفسك عندما تصل إلى هنا . إلى اللقاء قريبا جدا» (225) .

ذات يوم ، في 1966 أو 1967 ، دخل عمال في إضراب . . . وكان ناجحا جدا . وقد تركت الإدارة الأمور عن قصد تتدهور . كان المدير الإداري ، وهو رجل تابع للنظام ، تقول كاميليا ، يتصرف «كحارس أمن» داخل أماكن العمل ، كانت تتواجه نقابتان ، الأولى يسارية كان الأمر يتعلق بالاتحاد المغربي للشغل ، والأخرى كانت موالية للحكومة ، نقابة اليسار كانت لها أغلبية كبيرة وقد تواصل

الإضراب بشكل غير محدود .

كان بعض العمال مضطرين إلى البحث عن العمل في أماكن أخرى ، وآخرون وقعوا التزامات بعدم القيام بإضراب في المستقبل .

كانت كاميليا قد ذهبت لزيارة أمها في فرنسا ، وقد تم طرد بن عمر من عمله بسبب الإضراب ، ولكن أيضا بسبب حكاية قذرة ذات طابع غير سياسي ، وقعت في نفس الوقت (226) ، حيث كان قد اشترى سيارة بالدين ، وكان مفتخرا كل الافتخار بهذه السيارة وهي من طراز فيا 1100 بيضاء تم اقتناؤها حديثا ، وقد وقع أوراق الدين مقدما نفسه كرئيس للموظفين . وكان في الواقع يقوم بهذه الوظيفة دون أن يكون معترفا له بها قانونيا ، فانضافت مشاكل البنك إلى مشاكل العمل . وكان فضلا عن ذلك قد اقترض ، لتأثيث فيلا ، من تجار آخرين بالمدينة وعندما توقف عن الأداء ، وبما أنها كانت الفرصة المثالية للسلطة لتضعه في وضعية مربكة ، تم اتهامه بالتزوير واستعمال أوراق مزورة (227) .

أفرجت المحكمة عن بن عمر لكن تم توقيفه عن عمله ، ولم يتم تجديد عقد كاميليا .

كانت الإدارة تنوي أن تنزع منه منزل الوظيفة ، وكانت وضعيته المادية تتدهور بسرعة ، فاتخذ قراره بالرحيل في أعقاب قضية المحكمة ، وتم تنظيم رحيله وقد أحرق عددا قليلا من وثائقه في

مراكش واستودع أخرى لدى بعض أصدقائه .
 وكان أحد الأشخاص قد جاء يحدثه عن مشروع كبير ، وتم
 إغراؤه بأفاق واسعة في مقابلة أخفى طبيعتها عن زوجته . قام
 بتسفير كاميليا إلى فرنسا عبر القطار رفقة جميع الأبناء قائلا لها إنه
 سيتصل بها هناك . أما هو فسيسافر عبر الحدود الجزائرية سرا .
 وهكذا سيختفي بن عمر من المسرح السياسي المغربي رغم عمله
 الرائع في الفتنام . بن عمر الملقب بمارسيل وبالحمري وبمعروف وب
 «نكويين» «أنه مه» سيظهر مجددا في معسكرات المعارضة المغربية
 بالجزائر باسم أبو فاضل ، اسم ابنه البكر ، الطفل الذي أنجبته له
 كاميليا في أدغال الفيت مينه .

نهاية حياة بن عمر تتداخل مع مسار المعارضة المغربية المستقرة بالجزائر العاصمة . إنها مرتبطة بتجاربها ومحنها ونزاعاتها الداخلية وتمزقاتها وحروبها وخيبات أملها ، وإخفاقاتها ونكباتها .

وقد كشفت المحاكمات السياسية ، التي عرفها المغرب المستقل خلال الستينات والسبعينات بالنسبة لأولئك الذين تابعوا تقلباتها كمجرد مراقبين ، غموض هذا العالم الفريد من نوعه الذي شكله عالم المعارضة المغربية المستقرة بالجزائر العاصمة .

وإذا كانت المرحلة الجزائرية للمعارضة المغربية ظلت اليوم محاطة غالبا بالأسرار ، فإنها تظهر متشابكة مع مشاكل حالية (228) .

قد يكون هناك تقادم على مستوى المتابعات القضائية لكن هناك نادرا تقادما معنويا بالنسبة للفاعلين ، مهما كان المعسكر الذي كانوا منتتمين إليه . ففي الجزائر العاصمة وفي وهران وفي كولومب بشار وفي غيرها تقود مهمة تسليط الضوء على مشوار بن عمر إلى منطقة تبدو فيها المجازفة كبيرة لرفع الستار عن أحد تلك الأبعاد التي نجحت الصلابة النضالية في جعلها بعيدة عن متناول التشخيص البوليسي ..

العناصر الأولى التي وصلت إلى الجزائر حوالي شتنبر 1962 لها صلة بمؤامرة 1963 (229) ، ويبقى البعض متأكدا من أنه لم تكن

هناك مؤامرة حقيقية وبالنسبة للبعض الآخر فإنها كانت قد ظلت في مراحلها التمهيدية وقد تكون المؤامرات المعروفة في المغرب المستقل قد بقيت في مراحلها الأولى مع نفس الشخصيات الأساسية مثل البصري ، بنسعيد ، الفكيكي ، مرابط ، بولحية ، بونعيلات ، الجبلي ، الفرشي وسباطة .

ما هي الاجتماعات التي انعقدت بالجزائر؟ وهل قررت بداية العمل المسلح ضد النظام؟ قد يكون مقاومو الداخل ساندوا هذا العمل والتحقوا فيما بعد بالتنظيم العسكري الذي كان في طريقه إلى الإنشاء . وستتهم السلطات المغربية خلال العديد من المحاكمات السلطات الجزائرية بتقديم المعسكرات والمدربين ، والسوريين بمنح الأسلحة ، وقد يكون التجنيد المكثف ابتداءً آنذاك في منطقة وهران .

قبل ذلك كانت بعض عناصر هذا الشنتات السياسي المعارض قد استقرت في إسبانيا والبعض الآخر في يوغسلافيا قبل أن تحصل الجزائر على استقلالها . كانت الجزائر التي أصبحت مستقلة في 1962 أول دولة تسمح بصورة علنية تقريبا ، بأنشطة المعارضة المغربية . وكانت العلاقات قوية جدا بالفعل بين اليسار المغربي والجزائريين نظرا للتعاون الذي كان قد تطور بين الجانبين لصالح الاستقلال الجزائري خلال حرب التحرير ، حيث كان المغاربة قد قدموا معسكرات تدريب وأسلحة ولوجيستيك وقواعد خلفية .

وستكون هذه الصلات القديمة بجهة التحرير الوطني مفيدة . فالبحث عن ملجأ لدى الأخ الجزائري كان رد فعل طبيعيا لمعارضة

كانت تبدو آنذاك عازمة على شن نضال لا هوادة فيه ضد النظام .
 هذه المرحلة الأولى لم تدم طويلا . فاكشف «مؤامرة» يوليوز
 1963 واعتقال الفقيه البصري والتبعات الخطيرة لهذه الوقائع شكلت
 منعطفا ، حيث إن خلافات وتناقضات ونزاعات مفتوحة انتهت إلى
 الانفجار بين المعارضين المغاربة . وفي هذا التاريخ تقريبا تم اتخاذ قرار
 بالتراجع من وهران في اتجاه العاصمة الجزائرية .

تنتهي المرحلة الثانية التي تحدد في 1964 أو 1965 تقريبا ،
 وتبدأ حقبة اتسمت بالتحبط . المعارضون انكبوا على تقييم الوضعية
 وعلى تحليلات نقدية لأسباب الفشل : هل كان الخط المتبع صائبا؟
 وما العمل؟

كانت الأدبيات الماوية في محاولاتها الأولى . كانت تلك
 فترة النزاع الصيني السوفييتي ، وقد تحول العديد من المعارضين
 المغاربة بالجزائر إلى الكتابات الماوية وكانوا متأثرين بها بقوة . وينبغي
 القول أن هذه النصوص كانت متوفرة في الرباط ، حيث كان
 الفيجيكي على سبيل المثال ، قد سبق له أن قام بأولى قراءاته لها
 قبل إقامته بالجزائر .

انتهى التفكير بمسؤولي المعارضة إلى أنه لم يكن بإمكان
 الثورة أن تتحقق إلا إذا كانت بعض الشروط الموضوعية مجتمعة
 والمشكل الرئيسي أصبح مشكل الحزب . فأي حزب كان ينبغي بناؤه
 لذلك؟ في تلك الفترة ، كانت كل الطروحات رائجة في الجزائر
 العاصمة : الناصريون ، البعثيون ، الماركسيون ، بكل ولاءاتهم وحتى

الوجوديون والمناطق كانوا يعيشون هناك سجالاات فكرية . كان مثقفون فرنسيون مثل إتييت باليبار أو جورج لابيكا قد أخذوا على عاتقهم التكوين النظري للأطر . وفي هذا الجانب ، كان اليسار الفرنسي قد اهتم بشدة بالقضايا المغربية . كان الجزائريون قد أقاموا مركزا للتوثيق لفائدة حركات التحرير الإفريقية . وكانت الجزائر العاصمة عاصمة العالم الثالث الذي ينبغي تحريره . كانت مكان التقاء اللاجئين القادمين من مختلف بلدان إفريقيا وأمريكا اللاتينية وغيرها . كانت الجزائر تبدو كالقدوة ، كالبؤرة التي كان على العالم أن يتحول انطلاقا منها ، بيد أن معظم اللاجئين السياسيين بالجزائر العاصمة كان يشكلهم المغاربة ، وكان الفلسطينيون آنذاك يأتون ، من حيث العدد ، بعيدا خلفهم ، لم تكن فلسطين بعد انشغالا أساسيا . ندوات كبيرة كانت قد انعقدت حول مواضيع مثل «المجتمعات العربية» أحداث ماي 1968 في فرنسا «أفاق حركات التحرير الوطني» إلخ . في الجزائر ، كانت جبهة التحرير الوطني تقف أيضا بهيبتها الكبيرة ، كان البلد ما زال مزدهرا ، والحياة الفكرية نشيطة نسبيا .

المعارضة الجزائرية نفسها كانت قوية ، بحركتها الطلابية المتماسكة والقتالية ، والتي كانت السلطة بنفسها تحسب لها حسابها .

بيد أن المعطيات تبدو أكثر تعقيدا ، وبعيدة عن أن تتوقف على مزاج هذا الإطار أو ذاك من أطر المعارضة المغربية .

محمد البصري ، أحد قادة المعارضة المغربية الأكثر شهرة بالجزائر العاصمة خلال تلك الفترة يلخص لي الوضع في بضع كلمات في مرحلة أولى ، عندما كان بن بلة في السلطة ، كانت المعارضة المغربية تستفيد من مساعدة غير مشروطة من الجزائر ، وفي مرحلة ثانية ، ومع مجيء بومدين إلى الحكم تم اعتبار المعارضة المغربية كقوة خلفية لابن بلة .

فبدأت متاعبها إذن أولا بوقف كل مساعدة مادية ولاحقا بمحاولات التلاعب بها .

انطلاقا من 1966/1965 إذن بعد انقلاب بومدين تغيرت المعارضة المغربية ، فالعلاقات مع الجزائريين الذين كانوا يعرفون جيدا الخلافات بين الفصائل المغربية المختلفة لم تتوقف عن التدهور . بعد ذلك ، لم يعد الجزائريون يخفون نيتهم في مراقبة المعارضة المغربية ككل . كان يبدو لهم ذلك أمرا مشروعا ، وفي أعقاب هذه الإرادة الجزائرية لاستعادة السيطرة ، شرع عدة مغاربة في مغادرة الصفوف .

دينامية جديدة بدأت تواجه المعارضة المغربية : كان العمل السياسي يتضمن جانبيين متباينين : كان ثمة من جهة أولئك الذين يواصلون خيار العمل المسلح . ومن جهة ثانية ، أولئك الذين اختاروا سبيل العمل السياسي . الانشقاقات كانت تكثر في تنظيم بعد آخر . وفي 1967 كان النقاش قد أغلق تقريبا وسار كل واحد في طريقه .

بعد الاستقلال ، كانت الجزائر ذلك المكان الشهير لجميع

المعارضات ، والساحة المحصنة للمعارضة المغربية ، رغم النزاعات التي كانت تتفاقم بين مختلف فرقائها .

في ظل هذه الظروف ، وصل امحمد بن عمر إلى الجزائر : فبعد طرده «بشكل تعسفي» هل كان له من خيار آخر سوى أن يتغرب رفقة عائلته؟ الأشخاص الذين عرفوه حقا في الجزائر العاصمة يدلون بشهادتهم : ليس هناك ، من شك ، فرغم كل سكره المفرط الذي يتجاوز كل الحدود ، فإن جوهره النضالي قد لا يكون قد فارقه . كان قد لبى أول نداء بأبنائه وأمتعته . وكان ينوي وضع تجربته الفيتنامية في خدمة مشروع الثورة المغربية .

وصلت عائلة لحرش إلى الجزائر العاصمة في نهاية السنة الدراسية ، وتذكر كاميليا أنها سمعت الإذاعة تذيع أحداث ماي 1968 بفرنسا (230) . لم يكونوا قط في رغد من العيش ، لكن عيشتهم كانت لائقة ، أقاموا في منزل مؤقت في بيت تابع للبريد في مجموعة من المساكن الشعبية . كاميليا وجدت عملا في شركة لإعادة تأمين شركات التأمين . وواصل أبنائها دراستهم .

لحرش يظهر آنذاك كأب متزن وفي حالة . كان يشرب بالتأكيد ، لكن لم يكن لديه مال كثير : بيد أن مشاكله الصحية كانت قد بدأت تظهر أكثر .

عبد الرحمان زغلول ، أحد المعارضين الذين استقروا بشكل مبكر جدا في الجزائر ، التقاه أول مرة في 1968 : «كان برفقة الفقيه ،

لقاءاتنا كانت محدودة ، لأنني كنت محسوبا على اتجاه آخر مختلف مع اتجاه البصري . كان يبدو لي أن الحرش كان مكلفا بالإشراف على التدريب العسكري» (231) .

وغالبا ما كان أ.ب يجد نفسه وهو يراقب الحرش خلال اجتماعات بالجزائر العاصمة : أي أثر كان بالإمكان أن تتركه على مثل هذا الشخص واقعة قضاء عشر سنوات من النضالات في الفتنام؟

كان أ.ب يحتزل ذلك في أثر محدود ، كان يقيم في طويته المستوى المعرفي لابن عمر كمستوى أي شخص استهدفه «كتيب المحارب» لجيش التحرير الفيتنامي ، هذا النص المأخوذ عن النظريات الثورية لـ «ماو تسي تونغ» حول تقنيات القتال في حرب العصابات (232) ، كان بسيطا وفي متناول الفلاح الفتنامي العادي وحتى ذلك الفتنامي الأمي الذي تم بالكاد تعليمه ، حيث يمكنه من فك رموز الوقائع الآلية للحرب الشعبية ، عندما جاء أبو فاضل للالتحاق بالمعارضة المسلحة بالجزائر العاصمة ، لم يكن يبدو حتى على علم ، كبعض الاستثناءات ، بمبادئ «كتب المحارب» وظهر لـ : "أ.ب" بصورة بديهية أن بن عمر لم يكن يعرف قراءة خريطة قيادة عليا . كان يتساءل ما إذا لم تكن ، في نهاية المطاف ، لرتبة جنرال التي فاز بها في الفتنام ، قيمة تشريفية على الخصوص ، إذ لم يكن يتوفر بجلاء على مستوى التكوين المطلوب في ضابط متوسط في الجيش ،

لم يكن أ.ب. يجد تفسيراً آخر غير هذا : النشاط الدعائي الذي كان يقوم به بن عمر كان يستدعي بالخصوص معرفة باللغة .(233)
في مرات أخرى ، كان أ.ب. يدرك بسهولة أن بن عمر كان يتميز عن باقي المعارضين : كان يبرهن على تكوين سياسي من مستوى أعلى . فمن خلال رؤيته الشمولية للمشاكل وتحليلاته ، كان يظهر متفوقاً على مجموع محاوريه ، كانت مكتبته الصغيرة تثير الانتباه ، بل إن توفره على مكتبة ، كان في حد ذاته شيئاً فريداً ، لا أحد من اللاجئين المغاربة بالجزائر العاصمة كان يظهر مثل هذا الاهتمام بالكتب .

بن يحيى ، وهو مسؤول عن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بالجزائر العاصمة ، عرفه حوالي نهاية 1968 وبداية 1969 ، بواسطة التزنييتي إبراهيم ، وهو قائد سابق بجيش التحرير توفي خلال أحداث 3 مارس 1973 : «بتعرفي عليه ، اكتشفت أنه كان جارا لي كان يسكن على بعد 100 متر من ملعب الكولف في الحي الراقي بالجزائر العاصمة شمال هيدرا . كان منزله يقع في مكان أعلى بعض الشيء من منزلي في الطريق إلى قصر الشعب» .

خلال هذه الفترة من 1968-1969 كانت الأجواء غير صحية داخل الأوساط المغربية . كانت هناك نزاعات أكثر من اللازم بين مجموعات المعارضين : كانت مجموعات صغيرة معادية لبعضها البعض قد تكونت ، ولم تكن تربط قط علاقات فيما بينها .

ذات مرة ، ولست أدري في أية ظروف ، كان جميع الزعماء غائبين عن الجزائر العاصمة :البصري ، الجبلي ، بنسعيد ، وكان إبراهيم مضطرا للتغيب كذلك . قدمني إلى أبو فاضل الذي كان يعيش ، بشكل ظاهر ، فترة عزلة . لم ير أحدا ، وكان يبدو مهماشا سواء من قبل المغاربة أو من قبل الجزائريين ، لكنه كان يطلع على أخبار الوسط الطلابي ، ومن حين لآخر كان يعالج مشاكل فرعنا المالية . كنت قد لاحظت أنه يتوفر على إمكانيات مالية هامة ، كانت لديه الإمكانيات للعيش ، كما يحلوه ، كان طويل القامة وقوي البنية يلبس بشكل عادي . كما لاحظت أنه كان يشرب الخمر دون انقطاع . على كل ، ففي كل مرة التقيته كنت أجده يشرب الويسكي ، وكان ذلك يعتبر ، عن صواب أو عن خطأ كعلامة على مستوى مادي مهم ، على الأقل إلى غاية بداية السبعينات (234) .

بمناسبة الذكرى الثلاثين لمعركة ديان بيان فو ، نشرت الجريدة الاشتراكية المغربية «الاتحاد الاشتراكي» في عددها الصادر في 8 ماي 1984 ، في صفحتها الأولى نصا صغيرا كان بإمكانه أن يمر دون أن يلاحظه أحد تحت عنوان :«الجندي المغربي الذي أصبح جنرالا في الثورة الفيتنامية» . كان كاتب النص قد سجل أن «المغرب مثل الفيتنام في معركة ضارية ضد المستعمر الفرنسي . . وكان هناك جنود وضباط من أصل مغربي وجزائري وإفريقي يعملون في صفوف القوات الفرنسية ، لكن كان هناك أيضا عدد من المغاربة المجندين فروا

من الجيش الفرنسي وعيا منهم بضرورة النضال المضاد للاستعمار الفرنسي وخدمة لقضية وطنهم الكبرى من أجل الاستقلال . . من بين هؤلاء المغاربة المناضل «الأحرش» الذي أصبح جنرالاً ، قاسم الجنرال «جياب» محنة «معركة ديان بيان فو» وكذلك شرف نصر هذه المعركة .

وقد ألحق هذا الجندي المغربي بأرض الوطن ، وتم طرده تعسفا هو وزوجته الفيتنامية لا شيء سوى لأنه كان مناضلا نقابيا وسياسيا ينتمي لحركة القوات الشعبية .

كان مقال الجريدة اليومية للحزب الاشتراكي المغربي قد انتهى مشيرا إلى أنه «التجأ اضطرارا بعد هذه المحنة إلى الجزائر مع أولاده الثلاثة حيث توفي هناك» (235) . كان النص يبدو وكأنه يوحى بأن بن عمر قد التحق بالحزب الاشتراكي المغربي (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية) مدة قصيرة بعد عودته من الفيتنام ، لكنه يسكت عن المشوار السابق ، الشيوعي بالأساس ، للأحرش ، لهذا لم يتأخر كثيرا رد الجريدة الناطقة ، باسم حزب التقدم والاشتراكية ، الحزب الشيوعي المغربي سابقا ، كاتب الرد أوضح أن بن عمر لأحرش «كان قد التحق وهو شاب بالخطايا الأولى للحزب الشيوعي المغربي ويتكوينه كعامل ، كان قد تميز بنشاطه النقابي ، وبعد مشاركته في الحرب العالمية الثانية عاد إلى البلد وأصبح أحد مداومي الحزب في نهاية الأربعينات . في تلك الفترة ، كانت حرب الهند الصينية في

أوجها وكانت تعرف مشاركة قوات استعمارية مغربية جزائرية
تونسية وسنغالية . . وكان من بينهم العديد من الفارين والأسرى
الذين التحقوا بصفوف الشعب الفتنامي في نضاله من أجل
استقلاله ، وردا على طلب شخصي لهوشي منه الذي كان قد طلب
أن يرسل إلى الفتنام مسؤول في الحزب مهمة تأطير الجنود الأيمن
المغاربة : وقد تم تعيين الرفيق بن عمر لحرش من طرف الحزب . في
تلك الفترة ، كان عضوا ثابتا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي
المغربي : خلال نشاطه بالفتنم ، أصبح جنرالا في "الفيت مينه" .
وعند عودته استأنف بتواضع عمله بالمكتب الشريف للفوسفاط
باليوسفية . وقد تم فصله عن عمله فاضطر إلى الهجرة نحو الخارج
حيث توفي» (236) .

أهمية هذا الجدل حول الانتماء الحزبي لابن عمر هو طرح
التساؤل حول تاريخ التحاقه بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية ، هل
كان قد التحق به فعلا أم بأحد فصائله مدة قصيرة بعد دخوله إلى
المغرب؟ هل غادر المغرب فقط عندما تم اكتشاف انتمائه إلى الجناح
العسكري للحزب؟

واقعة مؤتمر هذا الحزب في 1962 ، التي سجلها عبد الله
العياشي والمشار إليها أعلاه ، ذات دلالة قوية في هذا الصدد .
بيد أنه في الجزائر العاصمة ، كان كل شيء في شخصه يدل
على ملامح شخصية الشيوعي السابق : تكوينه ، قوامه ، أسلوب

عيشه وأسلوب وجوده . ولم يكن يبدو أنه يرغب في الاندماج في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية سوى على مستوى الرؤية السياسية والعمل الملموس .

خلال لقاء بالجزائر العاصمة (أم هل كان ذلك في دمشق؟) وأثناء نقاش مع أصدقائه حول مشاكل التنظيم ، كان مناضل شاب في المجموعة ، له تكوين ماركسي قد أخذ الكلمة ليقتراح تبني تنظيم على شكل «مجلس السوفيات» فاستفاقت داخل بن عمر فجأة الشياطين القديمة ، وكان رد فعله يثير أكبر الدهول فبدأ يرقص وهو يدندن «سنقوم بإنشاء مجلس سوفيات» .

كان يؤكد لنفسه أن جوهر الطبع الشيوعي لم يكن قد فارقه كل شيء في منهجه البسيط كان يفصح تشبثه الكبير بالحركة الشيوعية الأمية . الدلائل التي تشهد على أنه خلال المرحلة الأخيرة من حياته ، لم يتنكر أبدا لقناعاته الشيوعية عديدة جدا ، رغم كل ما كان من الممكن أن يؤاخذ عليه ، لاسيما بعض الميل إلى حياة البذخ ، وطبعه المادي بشكل عام . فهو لم يتنكر أبدا لقناعاته الراسخة : الأمية الشيوعية ، التنظيم الشيوعي ، المفهوم الماركسي للعنف ، أولوية السياسي على العسكري .

وهكذا لم يكن يُكنّ تقديرا كبيرا للثورة الجزائرية : كان مقتنعا بشكل مسبق بفشلها (237) .

لكن وبالنسبة لأغلب اللاجئين المغاربة بالجزائر العاصمة ،

كان بن عمر يظل شخصا غير معروف ، ومعارضاً مجهولاً . كان معروفاً بأن أصله من خريبكة ، وأنه كان جندياً سابقاً شارك في حرب الفيتنام ، لكن لم يكن يعرف في أية ظروف وفي أي مستوى تم ذلك . كان البعض يلاحظ الجانب الغامض في طبيعته . فقد كان يظل متحفظاً على حياته الخاصة ، ويعطي الانطباع بالعمل في السرية التامة . وهكذا ، كان يضفي طابع السرية على جميع علاقاته كما لو أنه لم يكن يريد أن يعرف مع من كان يشتغل .

في العاصمة الجزائرية كانت له علاقات مختارة بعناية : كان قد تعود على الالتقاء ببعض اللاجئين النادرين ، من مغاربة وفيتناميين وسوريين والذين كان يبدو على علاقة طيبة معهم ، يتذكر بن يحيى : وجد بعض الزوار في منزله مرات عديدة سوريين من بينهم الملحق العسكري ، وهو ما كانت تفسره علاقات الفقيه . وفي إطار أنشطته كان قد توجه مرة واحدة على الأقل إلى سوريا في 1969 (238) ، كان يتردد كذلك على هوفمان : بل كان أحد أصدقائه الحميمين . كان هوفمان مسؤولاً عن العلاقات مع حركات التحرير الموجودة بالجزائر العاصمة وكان قد اختار كمعسكر له مطعم «فور دو لو» الذي كان قضاء ليلة به يكلف غالياً . هنا كان هوفمان يواجه الدعوات للضباط الجزائريين السابقين في الجيش الفرنسي ، وكان معروف عضواً في هذا النادي .

ويحكى أنه عندما علم الفقيه بذلك ، غضب غضباً شديداً ،

بل إنه اتخذ في وقت من الأوقات عقوبات في حقه .
 قد يكون البصري تمكن من مراقبة المساعدة المالية الجزائرية
 وقد تكلف مجيد العراقي ، الذي كان صهر شريف بلقاسم ، بما أنهما
 كانا متزوجين من أختين سويديتين ، بتسليمه المساعدة . كان بن
 عمر ومجيد يلتقيان مرارا . كان مجيد يناديه «سيدي الجنرال» وكان
 بن عمر مسبقا سكيما في تلك الفترة (239) ، ويفسر البعض
 انشقاقات المعارضة المغربية المقيمة بالجزائر العاصمة بأسباب تافهة ،
 لكن فيما يخص حالة بن عمر تبدو الأسباب جدية : كان من
 الممكن أن نقرأ في خطابه بشكل بَيِّن نبرة فيتنامية كليا ، كان يتكلم
 عن الفيتنام كرجل عمل لكن دون لهجة عسكرية ، كان بن عمر
 يؤكد على أنه ينبغي تعيين المندوبين من طرف الحزب ويلح على
 أهمية تكوين المناضلين في مجال الأسلحة ويعتقد كذلك أن
 التكوين السياسي أهم من التدريب العسكري : كان يبدي حساسية
 خاصة إزاء ما يتعلق بالأسس السياسية لما هو عسكري : فأية ثقافة
 مشتركة كانت له مع باقي المعارضة المغربية الراديكالية بالجزائر
 العاصمة؟

في أرشيفه الشخصي ، عثرت كاميليا على هذا النص الذي
 كتبه بن عمر خلال تلك الفترة .

«إن جسامه المهمة التي تطرح أمامنا ، وتنوع الأعمال الواجب
 إنجازها ، وتعقد الأوضاع التي علينا مواجهتها خلال قيامنا بواجبنا

الذي سيكون ، وينبغي ألا ننسى ذلك ، واجبا تاريخيا بالنسبة
لتحرير شعبنا . كل ذلك يتطلب منا أشكالا من التنظيم تسمح لنا
بتعبئة أقصى حد من طاقتنا بأقل قدر من التردد .

هذا التنظيم ، ينبغي أن يكون مرنا وعمليا ، مهيكل ومتعودا
على الانضباط ، فالمسؤولية ينبغي أن تكون في نفس الآن فردية
وجماعية » .

وعليه ، يقترح بن عمر من أجل تنظيم الجيش الشعبي
تنظيما يذكر بالهيكل التنظيمي للجيش الثوري أو جيوش التحرير
الوطني .

«إننا نقترح مخططا للتنظيم على شكل هيكل تنظيمي ، وما
ينبغي ملاحظته هو أن هذا الهيكل مؤقت ويمكن أن يتغير وتحسن
أشكاله شيئا فشيئا مع تطور الوضع ، لكن المضمون يظل دائما هو
نفسه » .

يتوقف بن عمر طويلا عند الأدوار الخاصة بهيئات القيادة
العليا كالمفوضية السياسية أو المكتب السياسي أو الإدارة العامة .
ونسجل في هذا المخطوط الإحالات المتكررة لابن وعمر على
التجربة الثورية الصينية والفيتنامية ، على ماو تسي تونغ ، وعلى
المبادئ الكلاسيكية للحرب الثورية ، ويركز بن عمر بالخصوص على
طبيعة الروابط بين التنظيم العسكري والجماهير . ففي نظره «لا
ينبغي أن تكون للجيش روابط أخرى مع الجماهير سوى الأخوة

والتقدير والاحترام المتبادل ، روابط الدعم والتعاون المشترك وتبادل المعلومات والحماية من الهجومات وردع العدو المشترك . لا ينبغي على أطر أو جنود جيش التحرير الشعبي أن يقبلوا أية هبة أو غذاء دون أداء مقابل . إننا نلح على هذه النقطة حتى نتفادى سقوط جيشنا في الانحلال البورجوازي والفيودالي القائم على أساس الرشوة والفساد فنجر علينا احتقار الشعب وعدائه وهي أخطر ضربة يمكن أن يلتقاها تنظيم ما .

إننا لن نلح أبدا بما فيه الكفاية على هذا الجانب إذا أردنا أن يكون جيشنا مثالا للسلوك في نظر الجميع ، وإذا أردنا أن يظل أطرنا وجنودنا شرفاء ، بسلوك يفرض التقدير والاحترام ، وبروح ثورية أصيلة ، ولن تكون مهمته بذلك سوى مسيرة لحمل راية الثورة عاليا بصورة دائمة .

وتبدو الفقرات التي تبرز اهتمامه بنضال الشعب الفيتنامي خلال تلك الفترة من نهاية الستينات ، ضد العدو الأمريكي أكثر أهمية : نفس الظاهرة تعرفها الفيتنام حاليا ، حيث يوجد جيش الدولة الأكثر قوة في العالم والذي يمتلك ترسانة أسلحة لا مثيل لها في عالم القرن العشرين . الجيش الذي يتوفر على دعم بحري هائل بغواصاته ، وسفنه الحربية وحاملات طائراته .

طيران تكتيكي من أكبر الطيران عددا ومن أكثرها مرونة في التحركات . . ومن أكثرها دموية . . إلخ .

في مواجهة عملاق القرن هذا ، في مواجهة وحش التاريخ هذا ، هناك شعب صغير من الفلاحين والعمال جاءته الفكرة العبقريّة لاختيار أفضل أبنائه وبناته ، وتنظيمهم في جيش شعبي ، كلفه بتحرير بلاده والدفاع عن حدودها . إن التاريخ والوقائع تبين لنا أن الجيش الشعبي الفيتنامي أنهى مهمته على أحسن وجه حيث طرد في البداية وبالسلاح الاستعماريين الفرنسيين من أراضيه .

وَحاليا يحبط جيش الامبريالية الأكثر قوة والأكثر ضرواة في تاريخ الإنسانية ، فهو لم يوجه إليه فقط ضربات قاتلة ولكن الجيش الفيتنامي أخذ مبادرة القتال ، حيث يقرر مكانه وزمانه وتاريخه مجبرا جيش العدو على تفكيك دفاعي يائس .

من جهة أخرى ، نرى أيضا ما يدعى الجيش الوطني الفيتنامي أي جيش حكومة الجنوب وهو جيش مهيكّل بصورة جيدة ، مجهز مدرب ومستشار من قبل أفضل الأخصائيين الأمريكيين ، نراه وهو ينهزم أمام الجيش الشعبي ويتجنب المواجهات . كل يوم يسجل الجيش الشعبي التحاق وحدات عسكرية تابعة للجيش الوطني الفيتنامي بأسلحتها وأمتعتها . مع أن جيش سايفون هذا مشكل أيضا من أطر وجنود فيتناميين من نفس العرق ونفس اللون كأولئك الذين يشكلون الجيش الشعبي الفيتنامي ، إنهم يتكلمون جميعا نفس اللغة . لهم جميعا نفس الثقافة ونفس الأسلاف الذين كانوا قد عانوا من احتلال المغول ثم

المانشو بعد أن طردوا الأوائل وعانوا من التأثير الأدبي الصيني ، وقبلوا إضفاء الطابع اللاتيني على أبجديتهم من قبل المبشرين الغربيين وذلك بأمل أن ينسيهم الآداب الصينية . كما عانوا من الاحتلال الفرنسي خلال أزيد من 80 عاما ومن الاحتلال الياباني خلال الحرب العالمية الثانية ، شاركوا جميعا في مقاومة التواجد الياباني أثناء اندحار هتلر ، وشاهدوا جميعا بلادهم وهي تتعرض للاحتلال مجددا من قبل الاستعماريين الفرنسيين ، لديهم جميعا نفس الأسلاف ويخلدون شعائر هؤلاء الأسلاف بنفس العظمة وبنفس التقاليد ، بمن فيهم أسلافهم الكاتوليك .

نفس الشيء يقال عن جنود «تشان كاي تشيك» الذين كانوا يهربون أمام الجيش الأحمر رغم تفوقهم من حيث العدد والعتاد والسند ، مع أنهم كلهم صينيون ، فقراء سياسيون ، لهم نفس التقاليد والعادات والثقافة ، نفس العقائد الفلسفية والدينية ، يستعملون نفس الحروف ويتكلمون بنفس اللغة .

رب قائل : لماذا إذن هذا الاختلاف في السلوك في الشجاعة وفي روح التضحية لدى أناس من نفس البلد ومن نفس الشعب؟ الجواب بسيط تماما ولا تحتاج لمعرفة أن تكون ساحرا .

بالنسبة لصينيي الجيش الأحمر وفيتناميي الجيش الشعبي ، فإن الأطر والجنود يقاتلون من أجل هدف مفهوم جيدا وواضح جيدا ، إن الهدف الذي يسعون إليه يقودهم مباشرة إلى تحقيق مثلهم

الأعلى ، ألا وهو التحرير الوطني أولاً ، وإقامة نظام حكم يسائر تطلعات الجماهير الكادحة العريضة بعد ذلك . هذا المثل الأعلى مفهوم ومأمول فيه جيداً من قبل أغلبية الشعب الذي يساند من جهته بنشاط جيشه الشعبي .

ثمة إذن بين الشعب وجيشه الشعبي ، وحدة في الرؤية والأفكار تشكل قوة لا تهزم ، قوة كثيراً ما مهتت بالتضحيات التي قدمت طواعية ، وبالدم الذي سال بسخاء من أجل القضية المقدسة ، حتى أنه يستحيل زعزعتها من قبل القوى الرجعية مهما كانت مؤثرة .

لقد أدرك الجيش الشعبي هذه الحقيقة بفضل عمل التربية السياسية لمفوضيته السياسية إزاءه وإزاء الشعب عند هذا المستوى من الوعي يختفي التردد ، ويترك مكانه للقرار-المراوغات تترك المكان للعمل ، والتشويش للوضوح والخوف الجسدي نفسه يتوارى أو يتحول إلى شجاعة ، لأن الشجاعة ليست شيئاً آخر سوى الخوف ولكنه خوف مروض .

إنها بالتأكيد مبادئ كلاسيكية وأفكار مكررة ، لغة خشبية وأشياء مبتذلة للنزعة الثورية التي كان ما زال معمولاً بها خلال نهاية الستينات ، إلا أن العقيدة الماركسية الأساس ما زالت راسخة ، فبعد عشر سنوات من ملحمة الفيتنامية ما زالت هذه الأخيرة راسخة في تصرفات بن عمر وتصورات (240) .

قد يكون بن عمر اقترح مخطط عمل رفض من قبل الفقيه البصري لأنه ربما يعتبر أن التصور الذي كان لدى الفقيه عن الكفاح المسلح وحرب العصابات كان تصورا خاطئا فابتعد عن الفقيه تدريجاً . أصبح الخلاف بينهما عميقا وانتهى بالقطيعة بين الرجلين سنة 1970 .

كانت خيبة أمل بن عمر بلا حدود ، فها هو مرة أخرى ضحية أكبر الخيبات . فإطار العمل السياسي المناسب ، والتنظيم المهيكل الذي كان يحلم به وفقا للتقاليد المعروفة كتلك التي عرفها وعاشها لدى «الفيت مينه» ، وحزب العمل الفيتنامي كان قد أصبح صعب التحقيق تحت سماء المغرب العربي . ربما كان يأسه أكبر سيما وأن الصورة التي رسمت له كانت قد ظهرت بعيدة عن الواقع : كان قد اقتنع ، بعد التفكير وبفضل ابتعاده عن واقع البلاد ، بتأصل واسع في جميع الأماكن ، في الجبال والدواوير ، وبوجود إمكانيات بشرية ومادية ضخمة ، وبأنه ربما يكفي إطلاق أول رصاصة لينتفض جميع فلاحى منطقة ما .

فالعكس هو الذي حصل : فقد وجد نفسه ثانية رفقة عدد قليل من المناضلين المصممي العزم ، الصادقين ، المشبعين بنفس المعطيات المغلوطة عن الوضعية الحقيقية للحزب وعن العلاقة الحقيقية للقوى داخل البلاد ، فالفلاحون - «الجماهير» - ساعدوا بنشاط الجيش في البحث عن المشاركين في حرب العصابات .

هكذا ، وبصورة جلية ، لم يكن يجد نفسه مجددا في ظل الشروط الفعلية لجيش تحرير وطني ، لم يكن ذلك الطائر الحر كما عاش في الفتنام . كما أنه كان بعيدا عن العثور على نواة للقيادة تشبه المكتب السياسي أو القيادة العليا . لقد أدرك أنه كما كان يجد نفسه في موقع على النقيض من العقلانية السياسية . ولن يكون بن عمر على قيد الحياة عندما ستوضح أحداث مارس 1973 أن عمليات مدينة خنيفرة كانت لها علاقة محدودة بمبادئ الماوية العسكرية .

في أعقاب هذه الخلافات ، توقف رفاهه عن منحه المساعدة التي كان يعيش بها مع عائلته . ولأنه كان يعتبر من أتباع مجموعة البصري رغم قطيعته مع هذا الأخير ، فقد زاد ذلك من تعقيد أوضاعه .

فصلاته بالجزائريين أنفسهم كانت قد أضحت أيضا ضعيفة . فحاول الرحيل لكنه لم ينجح في الحصول على تأشيرة الخروج .

تذكر كاميليا : «عشنا أياما عصيبة ، ولن أنسى أبدا هذه الصورة : كنت قد وعدته بأن أقترض نقودا من نادبة إحدى صديقاتي فأعطتني خمسين دينارا ، وقد وجدته في انتظاري .

كان ينتظر قرب النافذة تماما كأنه في حالة ترصد محاولا أن يقرأ على وجهي ، عبر زجاج النافذة ، إذا ما كنت قد نجحت في مساعي أم لا . أخذت نصف النقود من أجل أكل الأطفال وسلمته النصف الآخر ، كان سعيدا لأنه كان لديه مال لوضع بنزين في

السيارة من أجل الذهاب إلى الصيد» .
كان مهملاً أكثر فأكثر إلى درجة الإحساس بأنه وحيد تماماً .
كان يترك حوله الإحساس بشفقة عاجزة ، بينما كان لدى آخرين
الانطباع بعد الآن بأن الأمر كان يتعلق بشخصية من مستوى عال
يجري تحجيمها في نهاية حياتها إلى حالة «بهلوان» .

لم تكن له ، كما يروي عبد الله رشد ، هيئة جنرال ، فعندما
كان يحكي كيف طلب «جياب» منه رأيه حول أفضل أسلوب لقيادة
معركة «ديان بيان فو» عندما كان يؤكد أنه كان قد قام بالثورة مع
«جياب» ، عندما كان ببساطة يتحدث عن مبارياته في الشطرنج مع
«جياب» ، فإنه كان يشير تهكم رفاهه في المنفى «ألم يكن لدى
«جياب» العظيم ما يفعله غير اللعب مع مثل هذا السكير!» .
عندما كان يروي كيف أن «هوشي منه» كان قد أطلق عليه
الإسم المستعار «أنه مه» ، كانت ابتسامة مسموعة تمطط شفاه
مخاطبيه .

مأساة بن عمر في آخر أيامه ، كانت هي عيشه في وسط لم
يكن قد نجح داخله في إظهار قيمته ، وفي إثارة الإحساس بقدراته
وفي أن يشرح أو يفهم من كان .

كان السقوط يأخذ صورة الاستهزاء : وقد ساهم المنفى في
تشويه البعد الإنساني أكثر ، تذكروا أولئك اللاجئين الشيوعيين
الإسبان الذين كانوا قد حلموا لمدة ثلاثين عاما بتحرير إسبانيا من

الدكتاتورية (241) . في 1970 ، تكلفت عناصر أخرى من المعارضة المغربية بنقل مساعدة له ، إلا أنه كان مسبقا مصابا بسرطان متقدم ونقله الجزائريون إلى مستشفى متخصص بوهران ، حيث تلقى العلاج لفترة قصيرة .

وعند عودته إلى منزله بالعاصمة الجزائرية ، اعتبر أولئك الذين زاروه ، مثل عبدالرحمان زغلول ، أن حالته الصحية خطيرة جدا ، سرطان الحلق كان يزداد تفاقمًا . صديقه الطيبي عبد الله المنصوري نجح في أن يضمن له تحملا للنفقات من وزارة الصحة الجزائرية ، واستطاع السفر إلى باريس ، إلى مستشفى «فيل جوفي» . كان قد غادر الجزائر في فبراير 1971 ، وكان حسين الصغير ، وهو معارض مغربي حكم عليه بالإعدام في إطار المحاكمة الخاصة بمؤامرة 1963 ، قد اتصل به بمجرد وصوله إلى العاصمة الفرنسية (242) ، وزاره عدة مرات .

يروى عبد الرحمن زغلول هذه الحكاية : «لم أعد أتذكر لا اليوم ولا الشهر ، بلغتني الرسالة التي أعلنت وفاته بالمنزل ، فذهبت لإخبار زوجته . كنت قد ذهبت عندها رفقة عبد المجيد العراقي . قدمنا لها تعازينا . وطرحت على كاميليا مشكل نقل جثمان زوجها إلى الجزائر العاصمة ، فأقنعناها بعدم جدوى ذلك خصوصا وأنه كان مكلفا جدا . مرة في الشهر على الأقل ، كنت أزور العائلة لأسلمها المساعدة التي كانت مخصصة لها . وقد دام ذلك إلى غاية يوليو

1971 أو 1972» (243) . كاميليا تصحح هذه الرواية قائلة : «كنت على اتصال دائم بالمستشفى وهكذا علمت بخبر وفاة زوجي . أحد رجال الأعمال الذي كان ينتمي لأوساط المعارضة المغربية بالجزائر العاصمة . ابتاع لي تذكرة الطائرة ، وأعطاني المال اللازم للدفن . وقد تم ذلك في المقبرة المجاورة للمستشفى ، في وقت لاحق ، وعند عودتي إلى الجزائر طلب مني أن أترك المنزل الذي كنا نسكنه ولم نعد نتوصل ب درهم واحد لذا قررت الذهاب للاستقرار في باريس» .

كان حسن الصغير قد أسرَّ لعبد الله رشد بما يلي : «ذهبت إلى الجنازة ، لكنني وصلت متأخرا . لم يكن هناك سوى ثلاثة أشخاص : زوجته وأختها وكان قد تم دفنه ، كان الجو ممطرا ذلك اليوم وكنت أشعر بالخجل لتأخري» (244) .

أخرجت لي كاميليا وثيقة رسمية صفراء بفعل الزمن : شهادة وفاة امحمد بن عمر مؤرخة ب 7 ماي 1971 .

ألم تكن تلك ذكرى معركة ديان بيان فو؟

الهوامش :

(1) ألبير عياش : «المناضلون المغاربة لاتحاد النقابات المتحدة للمغرب» (1936-1955) دفاتر كرميماو ، مجموعة الأبحاث حول المغرب العربي والشرق الأوسط ، جامعة باريس الثامنة ، ص. 84/68 ، دفاتر البحر الأبيض المتوسط نيس 1983 .

(1 مكرر) نشير في جريدة «إسبورا» إلى مقالات بن عمر الصادرة في أعداد : 119 (8 يونيو 1947) ، 142 (15 نوفمبر 1947) ، 144 (28 نوفمبر 1947) ، 149 (3 يناير 1948) ، 171 (5 يونيو 1948) ، 172 (12 يونيو 1948) ، 174 (26 يونيو 1948) ، 178 (24 يوليو 1948) ، 223 (4 يونيو 1949) ، 236 (17 ستمبر 1949) ، 237 (24 ستمبر 1949) ، 238 (1 أكتوبر 1949) ، 239 (8 أكتوبر 1949) . . . كما نشير إلى نصوص بن عمر الصادرة في جريدة «لاكسيون سانديكال» أعداد 44 (15 ماي 1946) ، 53 (1 أكتوبر 1946) ، 72 (15 يوليو 1947) ، 73 (1 أغسطس 1947) ، 74 (15 أغسطس 1947) .

(2) مقال لألبير عياش مذكور سابقا ، ص 73 ، وقد اتضح في الواقع أن الحملة الأخيرة غير دقيقة ، فبدخوله إلى المغرب وبعد عدة مغامرات ، ذهب بن عمر إلى الجزائر للالتحاق بالمعارضة المغربية التي كانت مستقرة بها .

(3) برودوح مسؤول نقابي للدار البيضاء من 1937 إلى 1948 ، كاتب مع اتحاد النقابات بالمغرب من 1943 إلى 1948 ، كاتب إداري في نفس الاتحاد من 1948 إلى 1952 .

(4) يوروا (أ) قائد نقابي وشيوعي في المغرب .

(5) رسالة من ألبير عماش إلى المؤلف 1986/02/22 .

6- حسب روبير مونطاني ، وهو انثروبولوجي وصاحب النظرية المسماة «باللف» ، فإن الجماعات السكانية بجبال الجنوب المغربية قد تكون أنواعا من الجمهوريات الأوليغارشية التي لا تعيش على انفراد لكنها تتحد لتشكل عسبا للوقاية ، أي ما يعرف بـ «اللف» ، ولتشكل على الخصوص تحالفات حرب . هاته اللفوف كانت تتقاسم فيما بينها الجبل ، وذلك بأن تتواجه وتتوازن فيما بينها ، ضامنة أمن الناحية ووجود القبيلة . أنظر روبير مونطاني في كتابه «البربر والمخزن في جنوب المغرب» ، محاولة حول الحياة السياسية للبربر غير الرحل»

- باريس ، ألكان ، 1930 ، (ق 16) 426 صفحة .
- 7- رسالة من جون لاكوثير إلى الكاتب بتاريخ 29 يناير 1986 .
- 8- «التاريخ الآني» لجون لاكوثير ضمن كتاب «التاريخ الجديد» تحت إشراف ج. لوكوف ، ر. شارتبي ، ج. روفيل في موسوعات المعرفة العصرية . . .
- باريس ، ص 270 وما يليها ، انظر كذلك بيير نورا في «عودة الحديث» ضمن كتاب ج. لوكوف و ب. نورا (تحت إشراف . . .) ، وكتاب «صنع التاريخ» الجزء الأول . . . قضايا جديدة» باريس ، فوليو ، غاليمار ، 1974 ، ص 308/285 وكتاب ر. بارط «كتابة الحدث» في مجلة «كومينكاسيون» عدد 1968/12 .
- 9- رسالة جرمان عياش . . . ألبير عياش المشار إليها أعلاه والموجهة إلى الكاتب في 7 يوليوز 1986 .
- 10- رسالتا إبراهيم السرفاتي من السجن إلى الكاتب بتاريخ 30 أبريل 1987 ، وبتاريخ ماي 1987 .
- وابراهيم السرفاتي إطار سابق في الحزب الشيوعي المغربي وأحد القادة الرئيسيين للمعارضة المغربية الماركسية اللينينية التي رأت النور في نهاية الستينات وبداية السبعينات ، سجن مدة طويلة وكان يوجد في المنفى بفرنسا نتيجة قرار ترحيل إداري .
- 11- فيما يخص قضية ج. بوداريل ، انظر مؤلف بوداريل «سيرة ذاتية» دار النشر جاك بيرتوان ، باريس 1991 ، 435 صفحة ، س. بايل في كتابه «أسير المعسكر 113 : معسكر بوداريل» دار بيران ، 1991 ، 275 ص مع ملحقات ، ج. ج. بوشر في كتابه «مذكرات» دار فرنسا أمبيرو باريس ، 1991 ، 260 ص ، م. شارول في كتابه «قضية بوداريل» ، منشورات روشي ، باريس 1991 ، 234 ص ، ملكية الرباني «قضية بوداريل» ، بحث لنيل الأستاذية في التاريخ تحت إشراف السيد روبري بونو ، جامعة باريس 7 ، أكتوبر 1992 ، 219 صفحة .
- 12- ج. دوايون «الجنود البيض للعلم هو ، فيالق في معسكر الفيت مينه» باريس ، مارابو ، سلسلة التاريخ 1973 ، 512 صفحة .
- 13- جون لاكوثير ، مصدر مذكور سابقا .
- 14- نفس المصدر .
- 15- انظر على سبيل المثال مصطفى بوعزيز في «مدخل إلى دراسة

- الحركة الماركسية اللينينية المغربية 1979/1965 .
- بحث بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في العلوم الاجتماعية ، باريس ، تحت إشراف إ. موكولو ، يونيو 1985 ، ص 235 .
- 16- في كتيب الحالة المدنية لمحمد بن عمر نجد المعلومات التالية : ابن لحسن لحرش وهنية بنت الحاج المعطي ، من مواليد أولاد مراح (دائرة بن أحمد) في 3 غشت 1922 ، لكن العديد من الشهود يشككون في صحة هذه المعلومات ، فبعد عودته إلى المغرب ، ربما كانت هناك مصلحة ما في أن يغير على الأقل تاريخ ومكان ازدياده .
- 17- بول باسكون (بتعاون مع كريكور لارافي) «القرى النجمية بمنطقة خريبكة» عدد 14 ، 1960 ، ص 39 ، 58 .
- 18- كانت مجموع أراضي قبائل المنطقة قليلا ما تزرع «كان الرعاة يحتمون تحت خيام من السعف القصير ، والأماكن المسماة خريبكة وبولنوار لم تكن تتميز سوى ببعض المنازل المبنية بالتراب حوض بشر وضريح ...» انظر بول باسكون و ج . لارافي ، نص مذكور سابقا ومنتشر مجددا في العدد الخاص الذي صدر تحية لروح بول باسكون «30 سنة من علم الاجتماع بالمغرب» المجلة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب ، عدد 155 ، 156 ، يناير 1986 ، ص 160 .
- 19- تطوعنا في الجندية من أجل الخبز والقصعة . عن المكتب المركزي للسجلات الإدارية العسكرية . رسالة من (كازيرن برنادوت ، مدينة بو) إلى السيد ساعف (الكاتب) : «ردا على رسالتكم المؤرخة في 10 يوليوز 1992 ، يشرفني أن أحيطكم علما بأنه لا يمكن التحقق من هوية السيد امحمد بن عمر لحرش في مكتبي فقط بواسطة المعلومات التي تم التوصل بها . بالفعل فالمعلومات الضرورية للوصول إلى ملف المعني بالأمر هي بالإضافة إلى الاسم العائلي والاسم الشخصي ، تاريخ ومكان الازدياد أو الإحصاء ، والنسب» .
- 20- أ . مورافيا «الشوشيار» باريس ، فلمايون ، 1958 .
- 21- ماريا أنطونييتا ماشيوشي «ألفا سنة من السعادة» ، كراسي ، كتاب الجيب ، 1983 .
- 22- نص مخطوط لابن عمر سلم للكاتب من قبل كامبي كامليا ، زوجته (انظر الفصل الأخير) .
- 23- امحمد بن عمر «كفوا عن مطاردة الديمقراطيين» جريدة «إسبوار» عدد 149 بتاريخ 3 يناير 1948 .

- 24- جريدة «لاكسيون سانديكال» عدد 5 مارس 1944 .
- 25- فؤاد بن الصديق «المواقف السياسية للحركة النقابية في المغرب الاستعماري، 1930-1956» أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في العلوم السياسية، جامعة باريس، نانطير، ص 486 .
- 26- حوار للكاتب مع عبد الله العياشي .
- 27- شهادة. 28- انظر الوصف الوارد في العدد 32 من جريدة «إسبوار» في 30 شتنبر 1945 .
- 29- حوار مع علي يعة .
- 30- «إسبوار» عدد 32 المذكور .
- 31- انظر ف. ظابار «الحركة الوطنية المغربية، باريس 1947، ص 133 .
- 32- «إسبوار» عدد 38 بتاريخ 11 نونبر 1945 انظر شكيب أرسلان «مساهمة في دراسة تاريخ الحزب الشيوعي المغربي خلال الفترة الاستعمارية» بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة الحسن الثاني 1985 ص 122 وما يليها .
- 33- ش. أ. جوليان «المغرب في مواجهة الإمبرياليات (1415-1956)» باريس، منشورات جون أفريك، ص 197 .
- 34- انظر شكيب أرسلان، مصدر مذكور، ص 236 وما يليها .
- 35- نفسه .
- 36- حوار مع عبد السلام بورقية .
- 37- «إسبوار» عدد 144 بتاريخ 29 نونبر 1947 .
- 38- شكيب، مصدر مذكور، ص 141 وما يليها و 185 وما يليها .
- 39- انظر أ. عياش «الحركة النقابية بالمغرب» الجزء الأول (1919-1942) باريس، منشورات لارمطان (مسلسلة حدود الحاضر) 1982 ص 59 والجزء الثاني: «المغرب 1943-1948 الدار البيضاء منشورات ولادة . 1990، 233 ص، والجزء الثالث «نحو الاستقلال» 1949-1956 باريس، لارمطان (تاريخ وأفاق مستقبلية) ص: 1993، 225 .
- 40- «لاكسيون سانديكال» بتاريخ 15 دجنبر 1946 .
- 41- نفسه .
- 42- أ. عياش «المناضلون المغاربة» مقال مذكور، ص 73/12 .

- 43- نفسه «لاكسيون سانديكال» ع 5 بتاريخ 1 أكتوبر 1946 .
- 44- « . . عدم سقي المنطقة لمدة سنة إلى سنتين ، غسل الأرض بواسطة نشر مكثف لمياه شتوية خلال الأوقات التي يكون فيها الصبيب المهم للنهر يخفض مقدار الملح في الماء إلى درجة تقارب الصفر ، وقد أكمل حوث عميق بالصيف هذه المعالجة ، وساهم فضلا عن ذلك في مكافحة نبات العكرش ، انظر : ب ، برفيول في «معجزة السقي بالمغرب ، النمو النموذجي لمنطقة تادلة (1936-1985) ص 61 .
- 45- في ماي 1947 تم استبدال «طاليك» الذي استدعي من قبل المقيم العام إريك لابون لتعيينه مديرا للداخلية ثم استبداله في دائرة بني ملال ب إكور شفييل الذي كان قد أصبح بالمناسبة مديرا للمكتب .
- 46- ب . برفيول ، مؤلف مذكور ص 13-16 .
- 47- أ ، عياش ، مقال سابق ، ص 72 ، انظر «لاكسيون سانديكال» عدد 53 بتاريخ 1 أكتوبر 1946 .
- 48- «لاكسيون سانديكال» 15 دجنبر 1946 .
- 49- نفسه .
- 50- «لاكسيون سانديكال» عدد 73 بتاريخ اغشت 1947 .
- 51- «إسبور» عدد 119 بتاريخ 8 يونيو 1947 .
- 52- بخصوص بعض المفردات المتعلقة بالتنظيم الإداري إبان الحماية مثل الشؤون الأهلية ، المنطقة العسكرية المنطقة المدنية المراقبون ، يشرح شارل أندري جوليان : «عهد بتنظيم البلاد بصورة كلية للجيش إلى غاية 1919 ، وقد جرى تعديل التنظيم في دجنبر 1923 ، كانت هناك من بعد منطقتان : الأولى مدنية وتضم مناطق الرباط والشاوية ومركزها الدار البيضاء ، ومناطق الغرب ووجدة إلى جانب تفتيشيات مازاكان وأسفي وموكادور ، والثانية عسكرية وتضم مناطق فاس بما فيها تازة ، مكناس ومراكش . وكان رؤساء المناطق ضباط سامون يساعدهم ضباط مخابرات كان ضباط الشؤون الأهلية مكلفين بمراقبة وتكوين الإدارات (الأهلية) . وفي المنطقة المدنية ، كان هذا الدور موكولا إلى المراقبين . . » انظر «المغرب في مواجهة الإمبرياليات 1415-1956 باريس منشورات جون أفريك ، 1978 ، ص 110 لخزني رجل سلطة مساعد .
- 53- «إسبور» عدد 119 بتاريخ 8 يونيو 1947 .
- 54- نفسه .

- 55- «لاكسيون سانديكال» عدد 72 بتاريخ 15 يوليوز 1947 .
- 56- نفسه .
- 57- حوار مع علي يعة ، الأمين العام لحزب التقدم والاشتراكية ،
الحزب الشيوعي سابقاً .
- 58- حوار مع أ. عياش .
- 59- «إسبوار» عدد 152 بتاريخ 15 نونبر 1947 .
- 60- نفسه .
- 61- «إسبوار» عدد 144 .
- 62- نفسه .
- 63- نفسه .
- 64- كسرة : قطعة خبز .
- 65- «إسبوار» عدد 144 .
- 66- «لاكسيون سانديكال» عدد 72 بتاريخ 15 يوليوز 1947 .
- 67- نفسه .
- 68- «لاكسيون سانديكال» عدد 73 بتاريخ غشن 1947 .
- 69- نفسه .
- 70- «إسبوار» عدد 142 بتاريخ 15 نونبر 1947 .
- 71- «إسبوار» عدد 144 .
- 72- نفسه .
- 73- «لاكسيون سانديكال» عدد 72 بتاريخ 15 يوليوز 1947 .
- 74- «لاكسيون سانديكال» عدد 74 .
- 75- «لاكسيون سانديكال» عدد 73 .
- 76- «إسبوار» عدد 142 .
- 77- «إسبوار» عدد 144 .
- 78- نفسه .
- 79- «لاكسيون سانديكال» عدد 74 .
- 80- «لاكسيون سانديكال» عدد 73 .
- 81- نفسه .
- 82- «لاكسيون سانديكال» فاتح أبريل 1948 .
- 83- نفسه .

- 84- أ. شكيب مصدر مذكور ، ص 197 وما بعدها .
- 85- أ. عياش ، مقال مذكور ، ص 72 وكذا إبراهيم السرفاتي رسالة مذكورة .
- 86- حوار مع علي يعنة ورسالة السرفاتي المذكورة .
- 87- «إسبوار» عدد 172 بتاريخ 12 يونيو 1948 .
- 88- حوار مع علي يعنة .
- 89- رسالة أ. السرفاتي المذكورة .
- 90- خماس ، فلاح فقير لا أرض له ويعيش إلى حد ما وضعية رق .
- 91- «إسبوار» عدد 149 بتاريخ 3 يناير 1948 .
- 92- «إسبوار» عدد 171 بتاريخ 5 يونيو 1948 .
- 93- «إسبوار» عدد 178 بتاريخ 24 يوليو 1948 .
- 94- نفسه .
- 95- «إسبوار» عدد 174 بتاريخ 26 يونيو 1948 .
- 96- «إسبوار» عدد 199 بتاريخ 18 دجنبر 1948 .
- 97- «إسبوار» عدد 183 بتاريخ 28 غشت 1948 .
- 98- «إسبوار» عدد 193 بتاريخ 6 نونبر 1948 .
- 99- «إسبوار» عدد 216 بتاريخ 16 أبريل 1949 .
- 100- «إسبوار» عدد 218 بتاريخ 30 أبريل 1949 .
- 101- «إسبوار» عدد 172 بتاريخ 12 يونيو 1948 .
- 102- أنظر أ. شكيب ، مصدر مذكور ، ص 231 وما بعدها .
- 103- نفسه ص 234 وما بعدها .
- 104- نفسه .
- 105- نفسه 257 وما بعدها .
- 106- «إسبوار» عدد 207 بتاريخ 12 فبراير 1949 .
- 107- في «إسبوار» عدد 207 بتاريخ 12 فبراير 1949 كان قد كتب إدمون عمران المالح : «في ظل هذه الظروف لماذا الاعتراض لمدة أطول عن خلق جبهة مشتركة وفقا للإرادة العميقة لشعبنا؟ هل لنا لسنا بعد مقتنعين بفائدة هذا العمل؟ ربما سيكون ذلك عدم استجابة منا لدروس التاريخ والأحداث السياسية الحالية ، فمن يجرؤ على الإصرار على أن الانتصارات العظيمة للصين بقيادة «ماو تسي تونغ» ليس ثمرة اتحاد القوى الوطنية الصينية؟ من ذا الذي لا

يرى أن شعوب دول الديمقراطية الشعبية لم تكن لتستطيع التخلص من القيد الامبريالي لو لم تكن قد حققت اتحادها حول الطبقة العاملة ، ولو لم تكن قد وطدت علاقات صداقتها مع الاتحاد السوفياتي . وغير بعيد عنا ، من هو المغربي الذي لا يصفق لوحدة العمل الذي يتحقق بين مختلف الأحزاب الوطنية بتونس والجزائر حول المشكل الأساسي للدفاع عن السلم .

108- «لاكسيون سانديكال» العددان 118 و 119 الصادران في يونيو ويوليوز 1949 .

109- نفسه .

110- «إسبوار» عدد 236 بتاريخ 7 شتنبر 1949 وعدد 237 بتاريخ 14 شتنبر 1949 .

111- «إسبوار» عدد 238 بتاريخ 1 أكتوبر 1949 وعدد 238 بتاريخ 8 أكتوبر 1949 .

112- حوار مع علي يعة .

113- أ. شكيب ، مصدر مذكور .

114- نفسه .

115- نفسه .

116- حوار مع ع . العياشي .

117- نفسه .

118- حول هذه الجوانب انظر أ. بابوني «الحزب الشيوعي الفرنسي» دار النشر جون ديدبي ، باريس ، 1969 ، ج ، فوفي تاريخ الحزب الشيوعي الفرنسي» الجزء I-II ، باريس ، فايار ، 1965 ، مؤلف جماعي «تاريخ الحزب الشيوعي الفرنسي» منشورات سوسيال باريس 1964 .

119- قضية هنري مارتان ، باريس ، كاليمار 1953 .

120- حوار مع علي يعة .

121- نسجل في «إسبوار» عدد 220 بتاريخ 14 ماي 1949 ، نشر مقال حول «الحياة المذهلة» لـ "تشوطي" ، قائد الجيش الشعبي الصيني» .

كما نشرت «إسبوار» عدد 222 بتاريخ 28 ماي 1949 نصا لليوتشاو شي بعنوان «النزعة الوطنية والنزعة الأمية» ولنفس الزعيم نص «هكذا فقط يمكننا أن نحرر وطننا» في «إسبوار» عدد 230 بتاريخ 6 غشت 1949 . ويتضمن نفس العدد معلومة مؤداها أن المكتب السياسي اجتمع في 29 يوليوز 1949 ،

ودعا جميع خلايا وفرق الحزب إلى أن يضعوا في جدول أعمال الاجتماع القادم دراسة المقال المتميز للرفيق ماوتسي تونغ الصادر في العدد 231 بتاريخ 5 يونيو 1947 تحت عنوان «الدكتاتورية والديمقراطية».

122- انظر أيضا في الصحافة ذات النزعة الوطنية خصوصا «العلم» مقالات حول «تطور الحركة الشعبية في الصين»، «العلم» الصادر بتاريخ 13، 14، 15، 16، 20، 22، و26 يوليو 1949.

123- رسالة من بام نكوثشا إلى عبد الكريم الخطابي ذكرها محمد أمزيان في كتابه «عبد الكريم الخطابي ودوره في لجنة تحرير المغرب العربي» جامعة بغداد، 1988، ص 132/133.

124- نداء عبد الكريم الخطابي إلى شعوب المغرب العربي بتاريخ 4 أبريل 1949 مصدر مذكور، ص 134/35.

125- نفسه.

126- رسالة من ف. دوفيلي إلى الكاتب بتاريخ 5 غشت 1992.

127- ب. دوايون، مصدر مذكور.

128- ب. سرجون «لست نادما على شيء»، باريس، كتاب الجيب 1974، عدد 3875، مارسيل بيجار «من أجل شيء من المجد»، باريس بريس بوكيت 1977، برنار فال «حروب الهند الصينية، فرنسا 1954/1946» باريس، منشورات «جي لي» عدد 19، ج. ب. روا «معركة ديان بيان فو» باريس، كتاب الجيب، 1972، بريس دولا سيستي، 1964، لري ستيان «الجنود المنسيون لكاو بانغ» باريس، البن ميشيل، 1993، إروان بركوت «جندي من الفئة الثانية في ديان بيان فو» بريس بوكيت، 1991.

129- ر. بونافوس. كولونيل «أسرى الحملة العسكرية الفرنسية بالشرق الأقصى في معسكرات الفيت مينه 1945/1954، أطروحة جامعية، جامعة بول فاليري، مونوبولي III كلية الآداب تحت إشراف أن بلانشار، ص 360.

130- حوار مع العدناوي علي عبد الكريم، قناص، رقم تسجيله 2301.

131- حوار مع بن سعيد الطاهر، رقم التسجيل 1058. رقيب أول رقم 39/9135: أ.

132- «أيجون» تحريف لأي اسم؟ هل هو تحريف «سهل الاسال»؟

- 133- بيداينون تحريف لأي اسم؟
 134- حوار مع موحا أمزيل .
 135- حوار مع محمد بن عبد الله .
 136- بلح المنشور بشدة على تطور المقاومة الوطنية بالمغرب . نفي محمد الخامس ، القمع الاستعماري ، الدم المغربي المراق من قبل الفرنسيين في المغرب .
 137- الحمري : رجل أصله منطقة أولاد حمر ، الواقعة بين إقليم أسفي وإقليم شيشاوة شمال غرب مراكش .
 138- روبري بونافوس ، مصدر مذكور .
 139- حوار مع الحاج لحسن ، جندي مغربي سابق في الحملة العسكرية الفرنسية بالشرق الأقصى .
 140- أوديل جوسران مناضلو وقادة نجم شمال إفريقيا في فرنسا ص 118-116 .
 141- حوار مع م . ب . ك . جندي سابق في الحملة العسكرية الفرنسية بالشرق الأقصى .
 142- نسجل هذا المقطع للكاتب المغربي ع . الخطيبي من قصيدة بعنوان «عشرون ترمة حول السلب» «قبل وفاته ببضع سنوات ، أسر هوشي منه لصديق له وهو يداعب لحيته الضعيفة : «ليس هناك يا رفيقي ما هو أجمل من نهدي شابة في السادسة عشرة» هذه الحكمة تهيجني ، وفي الشارع وردا على أسئلة العين المتعددة يقهرني ذلك الانفجار المحجوز لنهد» أنظر الآداب الجديدة ، مارس 1971 ، ص 127 .
 143- في كتاب «حرب الهند ، الصينية» لـ "بودار" يوصف المغاربي المغربي في الغالب بـ «الضعيف» خلال إخفاقات الجيش الفرنسي في معارك الطريق رقم RC4 وتتم إعادة تقديره تدريجيا مع مجيئ المنقذ «دولاطر» وبخصوص ديان بيان فو ، عند دوايون مثلا ، تظهر الصورة بالأحرى غامضة ونزعة الجنود القدامى المستجوبين من قبل الكاتب نحو مراجعة هذه المواقف ليست غريبة عن ذلك دون شك .
 144- ل . بودار «حرب الهند الصينية» الجزء الرابع ، فوليو ، باريس 1947 ، ص 273 .
 145- ل . بودار ، مصدر سابق ، ص 321 .

146- نفس المصدر ، ص 321 .
 147- انظر إلى الجدولين التاليين :

1954,5	1951,1,1	1947,1,1	
59523	50737	511175	الفرنسيون
16586	1664	11131	جنود الفيلق
36628	22892	11000	الافارقة الشماليون
19342	13281	2000	الافارقة
60000	86000	35000	السكان الاصليون(الجنود والاحتياطيون)
2181	1018		PFAT
194263	1905952	110306	المجموع

خسائر حرب الهند الصينية

X	الجنود	ضباط الصف	الضباط	
5	6292	2882	1216	القتلى
15	1897	1172	354	الموتى
4	3541	2269	877	المفقودون
338	288	37	2	القارون
121	16206	11644	2441	PFAT
5	10483	7261	3455	الجرحى
150	38707	25265	9045	المجموع

خسائر حرب الهند الصينية

الاصليون	الفيلق	الافارقة	الافارقة الشماليون	
11810	3752	1229	3646	القتلى
3432	1213	658	1355	الموتى
18013	6528	1514	7255	المفقودون
-	30610	1373	78	القارون
-	8616	2546	9034	PFAT
26924	9234	3706	11407	الجرحى
90809	30713	9731	33035	المجموع

- 148- مصدر سابق ف ، دوفيلبي وج . لاکوتير «الفتنام : من الحرب الفرنسية إلى الحرب الأمريكية» ص 375 .
- 149- دوايون ، مصدر مذكور ، ص 252 .
- 150- نفسه ، ص 250 .
- 151- بودار ، مصدر مذكور ، ص 513 .
- 152- تكشف إرسال وحدات مغاربية في الوقت الذي كانت فيه حركات التحرير الوطني تأخذ انطلاقتها في الجزائر وتونس .
- 153- دوايون ، مصدر مذكور ، ص 259 وما بعدها .
- 154- نفسه ، ص 386 .
- 155- بوداريل ، «السيرة الذاتية» ص 331 ، ودوايون ، مصدر مذكور ص 386 ، 550 .
- 156- بونافوس ، مصدر مذكور ، ص 161 .
- 157- نفسه .
- 158- نفسه .
- 159- دوايون مصدر مذكور ، ص 392 و ر . بونافوس ، مصدر مذكور ص 163-164 .
- 160- ديش فان : جهاز للعمل السيکولوجي ، والعبارة تشير إلى عمل الدعاية السياسية والنفسية الموجه إلى العدو لإقناعه ، وفق الذهنية الفتنامية بأن قضيته غير عادلة .
- يتعلق الأمر إذن بالحرب النفسية ضد مقاتلي وأسرى الحملة العسكرية وجنود الاتحاد الفرنسي .
- 161- يشير بونافوس الانتباه إلى الحذاء هذا الذي كانت نظرات غير الأطر الفتنامية تبقى معلقة عليه ، انظر بونافوس ، مصدر مذكور ورسالة بونافوس إلى الكاتب بتاريخ 14 يناير 1994 ، وترد كاميليا قائلة : ولم لا يلبس الحذاء في الدغل وعلى صهوة الجواد؟ فكل الأطر كانوا يلبسونه . . . » .
- 162- ج ، بوداريل «السيرة الذاتية» مصدر مذكور ص 336 .
- 163- التربية البدنية لأسرى الحرب ، غلبة رقم 10 هـ 447 ، سجلات فانسين .
- 164- رسالة من بونافوس إلى الكاتب بتاريخ 14 يناير 1994 .
- 165- طونغ بو : نهج تسامح يطور في ذات الوقت المبدأ الماركسي

- لإعادة تربية الأسير، وفكرة أن الإنسان خير وأنه لا يملك خيارا آخر سوى اكتشاف عدالة القضية الفتنامية .
- 166- معلومات عن أسرى الحرب المفرج عنهم من قبل الفيت مينه ، 1954 ، علبة رقم 10 هـ 445 ، سجلات فانسين .
- 167- ر . بونافوس ، مصدر مذكور ، ص 167 .
- 168- مجلة «باري ماتش» عدد 257 بتاريخ 3-10 يوليو 1954 .
- 169- دوايون ، مصدر مذكور ، ص 288 .
- 170- بوداريل «السيرة الذاتية» مصدر مذكور . ص 336 .
- 171- نفسه ص 392 .
- 172- يشير لوي ستيان في كتابه «الجنود المنسيون» ل «كاوبانغ» المذكور سابقا إلى مبادرات وإنجازات معروف في المجال الصحافي الصحي لفائدة الأسرى السياسيين .
- 173- مع ذلك ، فإن كاميليا تعرف باسم «دوينز لوفوني» من قبل بونافوس ، مصدر مذكور ، ص 164 .
- 174- حوارات مع كامليا .
- 175- هـ ، ماركوز «نهاية اليوطوبيا» سلسلة معارك باريس سوي ، 1968 ، ص 40 .
- 176- حسب ر ، بونافوس سيتم زواجها بمعروف من قبل الفيت مينه دوان أخذ رأيه ، رسالة من بونافوس إلى الكاتب بتاريخ 14 يناير 94 .
- 177- حوار مع ج . بوداريل ، انظر أيضا كتابه «السيرة الذاتية» المذكور ص 392 .
- 178- حوارات مع بوداريل .
- 179- دوايون ، مصدر مذكور ، ص 396 .
- 180- نفسه ، ص ، 401 .
- 181- ج . بوجي «كنا في ديان بيان فو» باريس ، منشورات لاسيتي ، 1964 ، ص 213 وما يليها .
- 182- ج . دوايون ، مصدر مذكور ، ص 401 .
- 183- أنظر ج . بوجي ، مصدر مذكور ، ص 233 وما بعدها ، ج ، دوايون مصدر مذكور ، ص 403 ، وما بعدها ولكن انظر أيضا وجهة النظر المتقدمة .

- 184- نفسه . ص ، 403 .
- 185- حوار مع علي يعة .
- 186- حوار مع ع . بورقية .
- 187- حوارات مع كامليا .
- 188- نفسه .
- 189- ر ، بونافوس ، مصدر مذكور ، ص 165 ، انظر تقرير القبطان بروا ، رئيس مكتب الشؤون الإسلامية (رقم 85 رمز EMIT-FT/AP/AMM بتاريخ 6 دجنبر 1954) في العلبة رقم 446 ، سجلات فانس .
- 190- رقم 6 EMIT-FT/AP/AMM بتاريخ 26 أكتوبر 1954 ، علبة رقم 446 ، سجلات فانس .
- 191- تقرير القبطان بروا رقم 85 ، مذكور .
- 192- بونافوس ، مذكور ، ص 166 .
- 193- حوار مع الهاشمي الطود .
- 194- حوار مع علي يعة .
- 195- حوار مع عبدالله العياشي .
- 196- حوار مع عبد السلام بورقية ، لا يبدو أن الخدم الذين كانوا رهن إشارة بن عمر كانوا يتجاوزون شخصا أو شخصين ، وكان الأطر ينتقلون في البداية راجلين أو على صهوة جواد ، ولن تأت السيارة إلا في نهاية الحرب مع المساعدة المكثفة للصينيين ، عندما تم تحرير الحدود .
- 197- حوارات مع كامليا .
- 198- ماذا يمكن أن يعني هذا السلوك في أدغال بلد المياه النقيضة؟ قارن ذلك مع آلان ماطو في كتابه «مآثر في الكنفى» منشورات أطلو نظوب 1979 .
- 199- حوارات مع بوداريل ، انظر كذلك جورج بوداريل «مثة وردة متفتحة في ليل الفتنام . شيوعية وانشقاق 1965/1954 ، باريس ، منشورات جاك بونطوان ، 1991 ، ص 302 .
- 200- رسالة من بن عمر ل "جورج بوداريل" بتاريخ 9 أكتوبر 1964 .
- 201- حوارات مع بوداريل .
- 202- حوارات مع كامليا .
- 203- حوارات مع بوداريل .

- 204- حوارات مع مصطفى يزناسني .
 205- نفسه .
 206- مثقفون كانوا آنذاك مناضلين بالحزب الشيوعي المغربي .
 207- حوارات مع مصطفى يزناسني مذكور ، خطرت بذهني وأنا أنصت إليه مقتطفات من «أرخبيل عرائس البحر» ل سومرست موم حول التأثير المدمر للمناطق الاستوائية على الأشخاص القادمين من مناطق أخرى ...
 208- حوار مع محمد فرحات .
 209- حوارت مع كاميليا ويتعلق الأمر بموائد أكل طويلة كانت عمودة ، وكان ينبغي اختيار الأكلة والذهاب ثانية إلى الصندوق للأداء قبل العودة لأخذ ما تم اختياره .
 210- نفسه .
 211- حوار مع ج . باندياك .
 212- حوار مع عبد الله العياشي .
 213- حوارات مع كاميليا .
 214- حوار مع ج . باندياك .
 215- رسالة سجن من إبراهيم السرفاتي إلى الكاتب .
 216- إدمون عمران المليح «الجرى الثابت» باريس ، دار ماسبيرو ، 1980 ص 150 وما بعدها .
 217- حوار مع علي يعته .
 218- نفسه .
 219- رسالة من إبراهيم السرفاتي إلى الكاتب ، مذكورة .
 220- عبد اللطيف المتوني «الحركة النقابية العمالية بالمغرب» الدار البيضاء ، دار النشر الغربية ، 1979 .
 221- رسالة من السرفاتي .
 222- في الرسالة المذكورة لإبراهيم السرفاتي يكتب هذا الأخير : «فيما يخصني لم تكن لدي أية إمكانية للتدخل المباشر في هذا القطاع في إطار وظيفي بالمكتب الشريف للفوسفاط .
 ومن ثم ، فإنني لم أشارك إطلاقا في توظيف بن عمر بالمكتب الشريف للفوسفاط . لكن كانت لدي معلومات عن طريق أطر مصلحة تقديمين بالمكتب الشريف للفوسفاط تم توظيفهم في هذه المناصب ما بين 1960 و 1965 (على

الخصوص امحمد عواد ، رئيس مصلحة التكوين المهني بالإدارة العامة ، وطرابلسي المكلف بالشؤون الاجتماعية بخريبكة ، وهما معا من سلا ومقربان من عبد الرحيم بوعبيد) ، أو عن طريق بعض قادة الاتحاد المغربي للشغل (خاصة حسن حجي الذي كان آنذاك بالقيادة الوطنية للاتحاد المغربي للشغل ، مسؤولا عن فدالية باطن الأرض) ، هكذا تلقيت هذا الخبر المذكور أعلاه حول بن عمر » .

223- نص تشريعي شامل كان السرفاتي قد أشرف على إعداده بمديرية المناجم في 1959 ، تم تسليمه في يناير 1960 وتجميده منذ ذلك الوقت تحت ضغط أرباب العمل وحزب الاستقلال الذي كان معارضا لبعض المقترحات المتعلقة بطريقة اقتراح مناديب العمال .

224- حوارات مع كاميليا .

225- رسالة من امحمد بن عمر إلى جورج بوداريل بتاريخ 6 فبراير 1946 .

226- حوار مع علي يعة .

227- حوارات مع كاميليا .

228- تستند هذه المعلومات إلى سلسلة من الحوارات مع عناصر سابقة في المعارضة المغربية المقيمة بالجزائر .

229- نذكر هنا على الخصوص الحوارات مع امحمد بن يحيى ورشيد سكيج .

230- حوارات مع كاميليا .

231- رسالة من ع ، زغلول بتاريخ 21 أبريل 1986 (الجزائر العاصمة) .

232- « كتيب المحارب » لجيش التحرير الفتنامي .

233- حوار مع أ. ب .

234- حوار مع امحمد بن يحيى .

235- جريدة «الاتحاد الاشتراكي» ماي 1984 .

236- جريدة «البيان» .

237- حوار مع أ. ب .

238- حوار مع امحمد بن يحيى .

239- حوار مع عبد الله رشد .

- 240- مخطط لابن عمر سلم للكاتب من قبل كاميليا .
242- انظر ساميرون «فيدريكو سانشيز» .
243- رسالة من زغلول . مذكورة .
244- حوار مع عبدالله رشد .

www.books-all.net

المنشورات :
كتب المؤلف :

I- باللغة الفرنسية

- Ecrits marxistes sur le Maroc (1860 – 1925) K. Marx, F. Engels, R. Luxembourg, la IIIème Internationale, Editions Le Contact, Salé, 1986 .
- Images Politiques du Maroc, Okkad, Rabat, 1991.
- Politique et savoir au Maroc, SMER, Rabat, 1992.
- Chroniques des jours de reflux, Editions l'Harmattan , Paris, 1993,
- Le discours stratégique arabe, Constantes et variations, Cahiers du Lumiar, I.E.E.I., Lisbonne, 1994.
- Histoire d'Anh Ma, récit, Editions L'Harmattan, paris, 1995.
- Les Gens du Navire ou le XIVème siècle. Réforme et Politique dans le Maroc des années 1930, Mohammed Ibn Abdallah Al Moua'qqit al-Murrākushi, Afrique-Orient, Casablanca 1998 (en collaboration avec Alain Roussillon)
- Carnets de bus, Eddif, Casablanca, 1999.
- Maroc, l'Espérance de l'Etat Moderne, Afrique Orient, Casablanca 1999.
- La transition au Maroc . L'invitation, Eddif, Casablanca, 2001.
- Voyage d'Europe, Le périple d'un Réformiste, Muhammed Ibn Al Hassan Al-Hajwi Afrique-Orient, Casablanca, 2001 (en collaboration avec Alain Roussillon).

II- باللغة العربية:

- كتابات ماركسية حول المغرب (1860 – 1925), ك . ماركس, ف . إنجلز . لوكسمبورغ, الألفية الثالثة : منشورات كونتاكس سلا, 1986 (دار تويقال, 1988)
- صور سياسية من المغرب : منشورات دار الكلام الرباط, 1987
- أوراق عن أزمة الخليج, منشورات أبحاث, 1992
- إصلاح نظام التربية والتعليم, منشورات رمسيس, 1998
- مصب الشمس: حوليات من زمن الانحسار, دار الثقافة الدار البيضاء 2002
- أحاديث في إصلاح التعليم, يوليو 2002
- أحاديث في السياسة المغربية, منشورات الزمن, 2002
- رهانات التحول السياسي في المغرب, منشورات دفاثر سياسية, 2004

بول باسكون

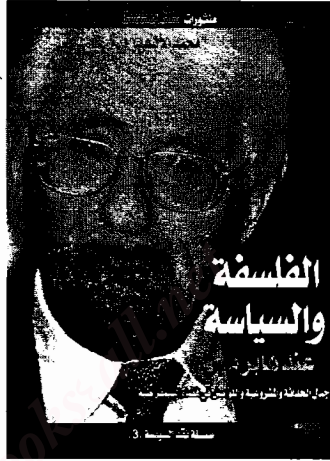
المعالم المعطيات الكمبية
والكيفية وحمولة المشروع العلمي
الباسكوني، كلها عناصر مثيرة
للدهشة. العمل نفسه بدأ يتطور في
وقت جد مبكر: منذ سنة 1953
تاريخ نشـ... ر نص عن
«الجاراميدور»، إلى سنة 1985
سنة نشر نصوص عديدة: فلاحون
بلا أرض، المشروع حاسي، «ضبط



النص»

يضم الإنتاج المحصي لباسكون ما يناهز مائة وخمسون نصا
مكتوبا مساهما بذلك في مختلف أنواع العلوم الاجتماعية:
مونوغرافيات، نصوص في المنهجية، في النظرية العامة، نصوص
بمدى شمولي عن المغرب، منصبة على ظواهر كونية وعلى مقولات
إنسانية كبيرة أو متعلقة ببلدان أخرى غير المغرب
باسكون مارس، تقريبا، كل تخصصات العلوم الاجتماعية، كما
فعل المتخصصون: التاريخ الاقتصادي، السوسولوجيا، الديمغرافيا،
علم السياسة، الاثنولوجيا، الأركيولوجيا... كل من سيجتهد في
التحقيق منه كمؤرخ أوكسوسولوجي أو كإنتروبولوجي، يمكن أن
يواجه الكثير من الصعوبات. إلى جانب انشغالات الباحث باسكون
بإنتاج معرفة شاملة عن المغرب، تنضاف أنشطته المختلفة كمدرس
وإطار تقني.

الفلسفة والسياسة عند هابرماس



يحاول هذا الكتاب أن يقدم عينة دالة منتقاة من إنتاجات هابرماس يمكن أن تقدم قراءتها إضافة نوعية لمقاربة الشأن العام المغربي وفي انفتاحه على تيارات الفكر المعاصر والعلوم الاجتماعية.

لا يمكن تجاهل فيلسوف مركزي أسس للمرحلة المعاصرة مثل هابرماس وإنتاجه العلمي في مجال العلوم الاجتماعية، ليس فقط كأحد أعمدة مدرسة فرانكفورت النقدية، ولكن نظرا لغنى وتنوع إنتاجه المنفتح من جهة على مرجعية فلسفية قوية، ومن جهة أخرى لمواكبته للأسئلة المعقدة للإنسان المعاصر. إن هابرماس يقدم لنا سيرة مغايرة لتعامل المثقف مع الفكر والواقع...

ومن الزوايا المهمة التي يمكن للممارسة والفكر الانفتاح عليهما في إنتاجات هابرماس مساهمته المتميزة في التنظير للتواصل، والفضاء العمومي بما هو فضاء له مشروعية وقيمة في البناء الديمقراطي وفي تأسيس و بروز جذور المواطنة وفي دفاعه عن الحداثة كمشروع مفتوح....

قريبا في الأكشاك

التقرير
الاستراتيجي
المغربي

2007-2006

الطبعة الأولى: 2006 - الطبعة الثانية: 2007 - الطبعة الثالثة: 2008 - الطبعة الرابعة: 2009 - الطبعة الخامسة: 2010 - الطبعة السادسة: 2011 - الطبعة السابعة: 2012 - الطبعة الثامنة: 2013 - الطبعة التاسعة: 2014 - الطبعة العاشرة: 2015 - الطبعة العاشرة: 2016 - الطبعة العاشرة: 2017 - الطبعة العاشرة: 2018 - الطبعة العاشرة: 2019 - الطبعة العاشرة: 2020 - الطبعة العاشرة: 2021 - الطبعة العاشرة: 2022 - الطبعة العاشرة: 2023 - الطبعة العاشرة: 2024 - الطبعة العاشرة: 2025

دفاتر سياسية

المجلد الخامس

مارس 2003

ديسمبر 2004

من العدد 11 إلى العدد 66

حاليا
عند
الطبعة
المجلد
الخامس
من
جريدة
دفاتر
سياسية



عبد الله ساعف

بعث هوشي منه
سنة 1949 في
طالب إطار
مسؤول في

الحزب الشيوعي المغربي
لتأطير المحاربين المغاربة
والعناية بهم سواء منهم الذين
التحقوا بالقوات الفيتنامية
في مواجهتها للقوات الفرنسية
أو الذين فروا من صفوف هذه
الأخيرة. وقد عين الحزب لهذه
المهمة امحمد بن عمر لحرش.
ويعتبر الكتاب الحالي بحثا
ومساءلة للتجربة الفيتنامية
لهذا الرجل ول مسار حياته
غير العادي، سواء قبل
التجربة أو بعدها.